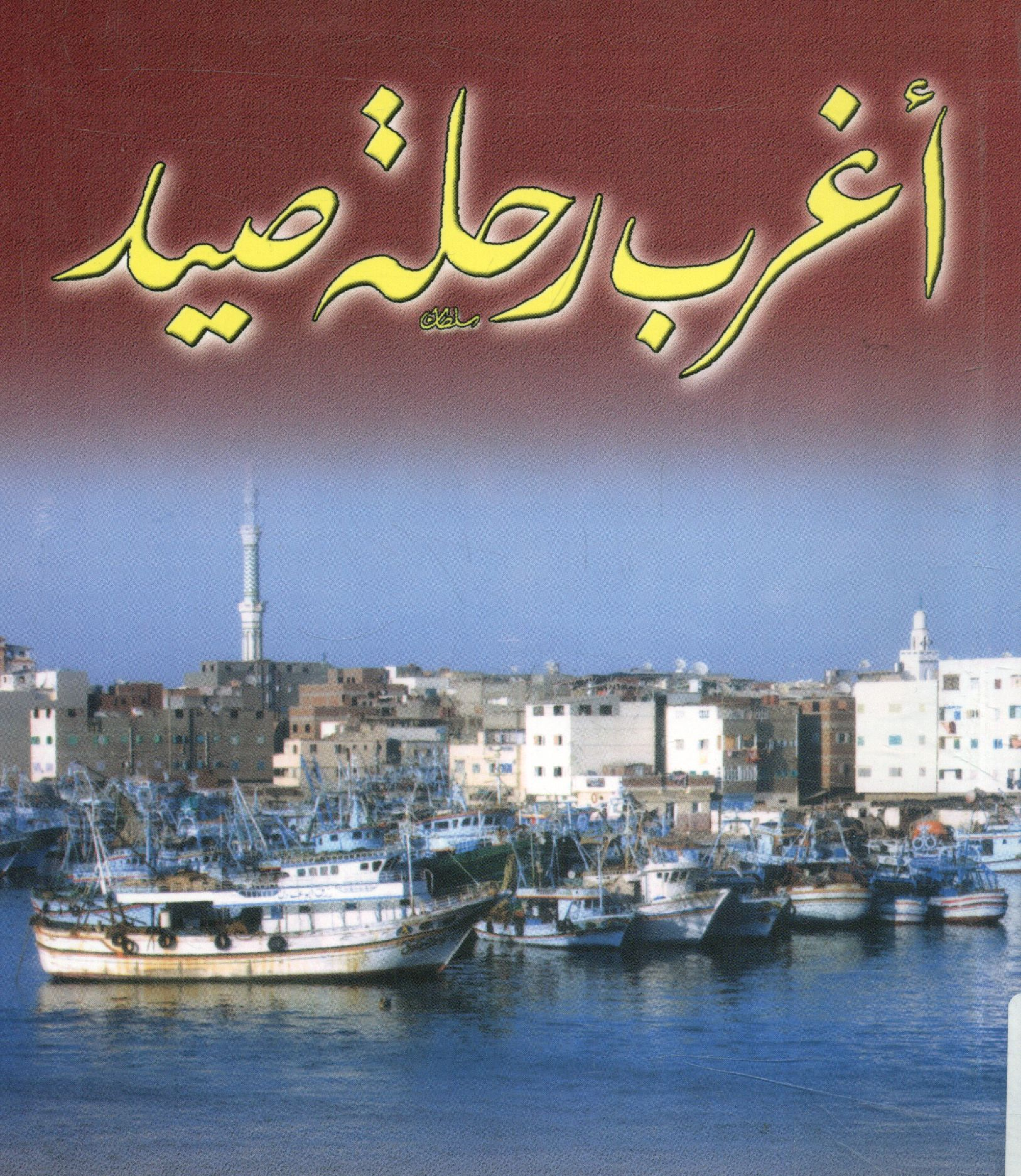
أغرب رحلة صيد



محمد عبده صبح

بسم الله الرحمن الرحيم

إهـــــــداء ٢٠١٠
دار الكتب و الوثائق القومية
القاهرة

أغرب رحلة صيد

محمد عبده صبح

الطبعة الأولى – ٢٠١٠

إهداء

أهدى هذه الواقعة المثيرة إلى أبطالها الذين أصبحوا سطوراً فى سجلات الخالدين من أبناء مصر . وكانوا يستحقون ذلك .

محمد عبده صبح

مقدمة

تعد مهنة الصيد إحدى أهم المهن التى عرفها الإنسان منذ القدم ، فهى اصطياد للأقوات من البحر ، والصياد فى ذلك شأنه شأن الفلاح الذى يجنى محصوله . ولكنها للأسف مهنة محفوفة بالمخاطر التى قد تودى بحيوات أصحابها . نحن نتحدث عن مهنة الصيد التى يعتلى فيها الصيادون المراكب الآلية ويجوبون البحار والمحيطات فى رحلات غير مأمونة العواقب ، ولا نتحدث عن صياد يصطاد بالصنارة من نهر أو ترعة أو يستقل قارباً فى بحيرة لا يزيد عمقها عن المتر أو يطرح شبكته وهو يقف على شاطئ بحر يلتقط الفتات مما تقذفه الأمواج .

والصيد فى البحر الأبيض المتوسط بالمراكب الآلية فى رحلات تمتد لأيام طوال هو المفهوم العام لمهنة الصيد فى بليدة عزبة البرج التى تساحل هذا البحر الأهم فى أقصى شمال مصر ، والتى يمتلك مواطنوها المراكب الضخمة التى تسير بالماكينات وتقطع المسافات .. وتنقطع بهم السبل لأسابيع يعودون بعدها بصيدهم الوفير .

كان أبناء العزبة فيما مضى يستخدمون المراكب الشراعية فى الصيد من هذا الخضم الممتد أمامهم بلا حدود . وكانت تقلبات الجو واختلاف مواقيت النوات كثيراً ما تطيح بمراكبهم . ورغم الاتجاه إلى تسيير

المراكب بالماكينات فإن الخطر لم يزل محدقاً ، فلا شيء أكبر من البحر ولا أقوى .

وتزداد المراكب حجماً ، وتزداد قوة مواتيرها .. ويكون هذا داعياً إلى الانتقال لمسافات أبعد وبحار أخرى وخلجان وربما محيطات سعياً وراء الرزق ، فإذ بالمخاطر تزيد والنوائب تكثر .

ودائماً ما تعيش عزبة البرج مآسي غرق المراكب وفقدان البحارة ، ولكن لا يكون هذا داعياً أبداً للإقلاع عن تلك المهنة المتوارثة في تلك البليدة المستكينة على ساحل البحر الأبيض ، فلا عمل لهم غير الصيد والسعى بين عباب البحار .

ولو حكى كل صياد ما قابله فى رحلاته لكان لعزبة البرج القِدح المُعَلَّى الذى لا تضاهيها فيه بلدة أخرى ، فالحكايات كثيرة والوقائع مثيرة والمخاطر والغرائب والطرائف لا حصر لها وجميعها يُؤمن على مدى خطورة هذه المهنة وصعوبة ما يلاقيه الصياد فى رحلاته وحياته .

وينطوى هذا الكتاب على واحدة من الحكايات المثيرة التى حدثت فى عالم الصيد لمجموعة من الصيادين كانوا على متن مركبى صيد يبحران فى صحبة اعتاد عليها بعض البحارة ليكون أحد المركبين أماناً للمركب الذى تداهمه نكبة . وهى قصة غريبة وطريفة ومن الصعب أن تتكرر ، أدعوك عزيزى القارئ لسبر أغوارها وفقط عليك أن تدرك أنها مجرد واحدة من حكايات كثيرة من المفترض أن تتسع لها الكتب ويخابر بها مواطنو البر الذين لا يدرون شيئاً عن مملكة البحار وحرافة الصيد .

ويبقى القول أن جميع الأسماء التى وردت فى هذا الكتاب حقيقية سواء كانت لأشخاص أو أماكن أو بلدان ، وقد نقلنا الواقعة بكافة حذافيرها وكما حكاها البحارة أنفسهم وصاحبا المركبين وعدد من شهود العيان وبعض المسئولين ، وفى هذا انتقلنا إلى عزبة البرج التابعة لمحافظة دمياط وبرج البرلس بمحافظة كفر الشيخ والمطرية دقهلية ، كما كانت هناك لقاءات فى دمياط ورأس البر ، وكثيراً ما عاودنا الانتقال لأكثر من مرة وأعدنا المقابلات .. وكنا على تواصل عبر أجهزة الهاتف . وتم تسجيل أكثر من عشر ساعات فضلاً عما كنا ندونه من ملاحظات ونلتقطه من صور تتابع حراكنا . فإن كان ذلك يكشف مصادر هذه الواقعة فإننا يجب أن نضيف إليه دخولنا على شبكة المعلومات الدولية نستقى منها بعض المعلومات ، وكذا اطلاعنا على بعض الأطالس والكتب والاستعانة ببعض المعارف العامة متعددة المصادر .

والله أسأل أن يكون فى كل ذلك إفادة للقارئ ومتعة ، وأن يمثل هذا الكتاب إضافة إلى المكتبة العربية فى مجال أو تخصص أحسبه لم يطرق كثيراً .

وبه تعالى التوفيق .

محمد عبده صبح

أصل الحكاية

أغرب رحلة صيد

في أقصى شمال مصر . وعلى نهايات الضفة الشرقية لفرع نهر النيل المسمى بفرع دمياط عند مصبه فى البحر الأبيض المتوسط تقع مدينة عزبة البرج ، يحدها من الشمال البحر الأبيض المتوسط ، ومن الشرق بحيرة المنزلة ومن الغرب نهر النيل ومن الجنوب مزارع القرى المتاخمة لها .

وتقع عزبة البرج إلى الشمال من مدينة دمياط بنحو خمسة عشر كيلو متراً حيث يربطهما طريق برى وحيد يمتد شرق نهر النيل ، فإذا ما بلغ عزبة البرج فإنه يشقها طولياً حتى أقصى الشمال لينحرف بعد ذلك شرقاً حتى ينتهى عند مدينة بورسعيد الواقعة على بعد ٥٠ كم من عزبة البرج .

ورغم قصر المسافة بين عزبة البرج ومدينة دمياط فإنه تتواجد بينهما عدد من القرى والتوابع من أهمها كفر حميدو التى أصبحت تمثل امتداداً جنوبياً لمدينة عزبة البرج ثم الشيخ ضرغام والرطمة وطَبل والخياطة والجواهرة والبصايلة وعزبة اللحم التى تلاحمت مع مدينة دمياط وأصبحت تمثل أطرافها الشمالية . بينما تتواجد قرى الديبة والمناصرة والجرابعة على الطريق الذى يربط عزبة البرج بمدينة بورسعيد ، وجميعها تنحصر فيما بين البحر المتوسط شمالاً وبحيرة المنزلة جنوباً وتتبع محافظة بورسعيد . وعلى الضفة الغربية لنهر النيل أمام عزبة البرج يوجد مصيف رأس البر .

وتعتبر عزبة البرج شبه جزيرة ، حيث تحيطها المياه من ثلاثة جوانب ، وإن كانت تختلف عن أشباه الجزر فى سائر أنحاء العالم لاختلاف مذاق الماء الذى يحيط بها ما بين المالح " البحر الأبيض المتوسط " والعذب " نهر النيل " والخليط بينهما " بحيرة المنزلة " مما يعطى تنوعاً بيولوجيا للمنطقة ويضفى عليها أجواء مميزة .

وتقبع عزبة البرج فى مكان آثر تتجلى فيه عظمة الخالق عز وجل .. فهذا نهر النيل بمائه العذب الفرات يلتقى البحر الأبيض المتوسط بمائه الملح الأجاج دون أن يحدث خلط للمياه أو امتزاج وكأن بينهما حائلاً غير مرئى يحجز كليهما عن الآخر. وصدق الله العظيم القائل فى محكم آياته " وَهُوَ الذى مَرَجَ البَحرينِ هَذا عَذبُ فُراتُ وَهَذَا مِلحُ أُجَاجُ وَجَعَل بَينَهُما بَرزَخًا وحِجرًا مَّحجُورًا " فهذا مشهد ربانى رائع لا تخطئه النواظر ، يتجلى فى لقاء النهر العذب بالبحر الملح حيث تتقابل المياه وتتلامس دون أن تطغى إحداهما على الأخرى أو تجور . فلا البحر فاض على النهر بمائه الملح وجعله ذراعاً بحرياً له ، ولا النهر شق قناة عذبة وسط ملوحة البحر أو أحدث خلطاً فى مياهه .. بل بقى كل منهما على حاله ومذاقه وشاكلته وكينونته تصديقاً وتفعيلاً لقوله تعالى : " مَرَجَ البَحَرينِ يَلتَقَيانِ بَيَنهُمَا بَرزَخُ لا يَبغيِانِ " .

فى عزبة البرج .. هذه القدرة الإلهية ، وهذه العظمة الربانية ، وهذه المعجزة الكونية ، وهذه الرؤية الأهم . فهذا مضيق ينتهى إليه النهر ويمتد أمامه البحر .. يفصل فيما بين الماءين المختلفين بقوى غير منظورة لنا ، وفيما بين ساحل البحر الأبيض المتوسط شمالاً والضفة

الشرقية لنهر النيل حيث توجد عزبة البرج ، وبين ساحل البحر شمالاً والضفة الغربية لنهر النيل حيث توجد رأس البر .. تتكشف هذه الدلالة الإيمانية وتعلن عن نفسها .

وتتعرض هذه المنطقة لرياح غالباً ما تكون غربية ، فتحرك الرمال إلى موقع رأس البر بينما يمثل نهر النيل حاجزاً أمام ولوجها إلى عزبة البرج ، وقد كان هذا سبباً فى تشكيل تضاريس المنطقة وارتفاع الأرض غرب النيل عنه فى شرقه ، ولهذا كان الفيضان السنوى لنهر النيل يتجه فى أغلبه إلى الضفة الشرقية حيث يغمر منطقة عزبة البرج ويترك عليها الطمى الذى هو أحد محسنات التربة وأحد أهم عناصر خصوبتها وصلاحيتها لمختلف الأنشطة الحياتية . ولهذا وجدها الإنسان منذ بواكير الحياة فى تلك المنطقة هى الأصلح ، وفضلها على الضفة الغربية التى كانت عبارة عن كثبان وآكام رملية .

إذن عزبة البرج حملت من مزايا الموقع ما يؤهلها لأن تكون مصيفاً موسمياً وأيضاً محلاً دائماً للإقامة المستقرة . ولأن الاصطياف كان ترفاً لم يلتفت إليه المواطنون قديماً فقد اتخذت عزبة البرج موقعها كمجتمع حياتى نما وامتد من مجرد عزبة إلى قرية حتى صارت مدينة تحمل سمات المدنية .

ومدينة عزبة البرج واحدة من عشر مدن تضمها محافظة دمياط ، وتقع منها فى أقصى الشمال ليس بعدها إلا البحر . ومحافظة دمياط إحدى المحافظات الساحلية الشمالية حيث يحدها شمالاً البحر الأبيض

المتوسط وشرقاً بحيرة المنزلة ومحافظة بورسعيد وإلى الغرب والجنوب محافظة الدقهلية ، فيما يشقها فرع نهر النيل المسمى باسمها طولياً من الجنوب إلى أقصى الشمال حيث مصبه فى البحر . وتقع مدينة " عزبة البرج " ضمن زمام مركز دمياط " المدينة " وتبلغ مساحتها حوالى ٨ كم٢ ، يسكنها نحو ٦٠ ألف نسمة . وكان من الطبيعى وقد تواجد البحر الأبيض المتوسط شمالاً ونهر النيل غرباً وبحيرة المنزلة شرقاً ، أن يكون صيد الأسماك هو الحرفة الأولى لمواطنى عزبة البرج ، وأن تكون باقى الأعمال الحرفية أو الأنشطة التجارية متعلقة بمهنة الصيد ، وفى خدمة مجتمع الصيادين أو مرتبطة بالبيئة التى تغازلها المياه من ثلاثة اتجاهات .

وفى عزبة البرج أكبر أسطول صيد سمك فى مصر حيث يبلغ تعداد المراكب حوالى ثلاثة آلاف مركب تمثل نحو ٦٥% من مجمل أسطول صيد السمك فى مصر ، وجميع هذه المراكب آلية تدار بمحركات تتراوح قوتها من ٥٠ إلى ٢٣٠ حصاناً ومعظم هذه المراكب مصنعة من الأخشاب وبعضها من الحديد ، وجميعها صنعت فى عزبة البرج التى تضم العديد من ورش صناعة المراكب ، ولمواطنيها خبرة وبراعة فى هذه الصناعة المتوارثة والمتطورة دوماً ، والتى لم تعد مقصورة على صناعة مراكب الصيد بل امتدت إلى صناعة اليخوت والمراكب السياحية الكبيرة .

وترسو مراكب الصيد أمام شاطئ عزبة البرج .. على الضفة الشرقية للنيل حيث تجرى بعض عمليات الصيانة والتزود بالوقود

ومستلزمات رحلة الصيد ، وتبحر إلى البحر المتوسط عبر البوغاز الذى يمثل نقطة اتصال النهر بالبحر فإذا ما اجتازت هذا المضيق انطلقت إلى رحابة البحر لتتوغل فى آفاقه ماخرة عبابه . وقد تتجه يمينا بعد ذلك أو يساراً حسبما رؤية طاقمها وميولهم ، وأيضاً حسبما الطقس واتجاه الرياح ومواسم تواجد الأسماك ، فإذا ما أتمت رحلتها وعادت بصيدها دخلت نهر النيل عبر ذات البوغاز لترسو أمام شاطئ عزبة البرج وتفرغ حمولتها فى حراك موصوف بكل دقة وبلاغة فى قوله تعالى : " وَمَا يَسْتَوِى الْبَحْرانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلِّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُم تَشْكُرُونَ " هذه آية تخطر على قلب كل من يقف فى عزبة البرج على شاطئ النهر أو ساحل البحر ويرى مراكب الصيد ذاهبة وآيبة . ذاهبة إلى رزق الله وآيبة بفيض منه .. صنوف من الأسماك والقشريات والمحار متعددة الأشكال ومختلفة الأحكام ومتنوعة الطعوم .. أحلها الله وطيب أُكلها . وقواقع وأصداف تؤكل وجُعل منها زينة . ضروب من الأرزاق حباها الله لعباده وذخائر من الثروات الطبيعية تتكشف تباعاً ويستجد منها ما لم يكن يخطر على بال أحد . وفى ذلك نقول أنه إذا كان الماء العذب أكسير الحياة وباعث النماء وأساس الوجود على الأرض . فإن الأمر مثل ذلك وأكثر للماء الملح الأجاج . فهذا الماء الملح الأجاج المنفر الذى تنقبض منه الأنفس وتعافه جعلت فيه منافع جمة تعددت واستجدت مع الأزمان حتى بات الإنسان يشربه بعد تحليته ، وسبحان الذى ذكر بصريح الآية أن العذب الفرات سائغ شرابه ، وذكر الملح الأجاج دون أن ينفى شرابه ، وهو

أعلم بأنه سيأتى يوماً نستخدم هذا الماء فى الشرب والرى مثله مثل العذب الفرات ، بل أصبح أغنى منه بإمكانية استخراج الأملاح والمعادن فضلاً عن المحار والأصداف ناهيك عن البترول والغاز الطبيعى وما ينطوى عليه قوامه من نفائس النعم التى تتكشف تباعاً . وشواهد هذا القول تجلت حصرياً بعطاء الجودة والإفاضة فى تلك المنطقة من البحر القريبة من التقائه بنهر النيل فى عزبة البرج .

ولأن الله عز وجل جعل رزق هذه البليدة الآمن أهلها فى البحر مثلما هو فى النهر وأيضاً فى البحيرة ، فكان لابد أن يعمل أهلها فى الصيد ، وفى كل ما يخدم هذه المهنة ويتعلق بها .

ولأسباب تتعلق بالمساحات الشاسعة والإمكانات الأكبر ، أصبح الصيد فى البحر الأبيض المتوسط هو الأهم والأكثر شيوعاً واجتذاباً . فالنهر محدود المساحة والبحيرة ضحلة ولا تعطى رحابة البحر ولا كمياته . ثم إن التقدم الذى لاحق صناعة المراكب وأدى إلى عملقتها وميكنتها لا يصلح له إلا الصيد فى البحار العميقة الزاخرة بالأسماك وسائر المكنونات البحرية .

والمراكب ليس لها مواعيد محددة لرحلاتها . فإذا ما أتمت استعداداتها واكتمل طاقمها أبحرت ، ويكون ذلك فى أى وقت من النهار بداية من الصباح الباكر وحتى آخر ضوء ، ويسمح لها بدخول البوغاز آيبة إلى عزبة البرج متى وصلت بشرط أن يكون الوقت نهاراً مثل خروجها . وهى اشتراطات أمنية للحفاظ على كيان المهنة وسمعتها ودرءاً للمخاطر .

وتتراوح مدة رحلة الصيد ما بين بضعة أيام وعشرين يوماً تبعاً لحجم المركب وقدرة محركه واستعداد طاقمه وطبيعة الأحوال الجوية الطارئة . ويعود المركب عادة بصيد تتراوح كميته من ٥٠٠ إلى ٧٠٠ كجم بينما تزيد هذه الكميات فى المراكب الكبيرة المجهزة تكنولوجيا والتى تجوب أعالى البحار وتصطاد فى المياه الدولية ، وبعض هذه المراكب يذهب شرقاً قبالة سواحل الشام وغرباً قبالة سواحل ليبيا ودول المغرب العربى .

ومهنة الصيد من المهن التى تتوارثها الأجيال ، ويعلمها الآباء للأبناء حيث يصطحبونهم في رحلات الصيد وينقلون إليهم خبراتهم . ولكل مرحلة عمرية عملها الذى يناسبها فوق المركب . فإذا ما بلغ الفتى أشده ، أتقن كافة الأعمال على ظهر المركب ، واكتسب الخبرة واتسم بالمهارة . وفى العموم فإن مهنة الصيد من المهن الصعبة التى تتطلب مواصفات خاصة أهمها الشجاعة والجرأة والصبر وقوة التحمل والذكاء وشدة الملاحظة ، فضلاً عن الإلمام بأحوال البحر والجو وبالأخص مواعيد النوات ومدى تأثيرها . ويجب أن يكون الصياد على دراية بطبيعة المناطق التى يتوجه للصيد بها . كما يجب أن يعرف إمكانات المركب الذى يعمل عليه ومدى تحمله للرحلة التى يذهب إليها . وهناك أيضاً بعض المحاذير .. فيجب أن لا يغرى الصيد الوفير بطول البقاء فى البحر خشية نفاد الوقود أو الغذاء أو الماء .. أو أن تدركه نوة تؤثر عليه . كما يجب ألا ينجرف المركب نحو المياه الإقليمية لإحدى الدول وإلا تعرض للحجز والقبض على طاقمه .

وعلى الرغم من حيطة الصيادين وإحجامهم عن الخروج للبحر وقت تقلبات الجو وأثناء النوات ، إلا أن البحر كثيراً ما ينقلب عليهم ويغدر بهم ، ومنذ ولج أبناء عزبة البرج البحر وارتادوه وهم يعيشون مآس لا حصر لها من أثر غرق السفن وابتلاع البحر للصيادين ، فلا تكاد تمر سنة إلا وتفجع العزبة بكارثة من هذا النوع وتفقد خيرة أبنائها . ولكن على ما يبدو أن اتساع البحر زاخراً بالمحصول السمكى يعد سبباً كافياً كى لا ينصرف عنه أبناء العزبة خاصة فى ظل انقطاع سبل الحياة فى مدينتهم لمحدودية الأرض التى تسمح بمزاولة الأنشطة الزراعية والصناعية والتجارية ، وأيضاً لما جُبل عليه ابن عزبة البرج من عشق للبحر واستمراء لمهنة الصيد .

والغريب أن ابن عزبة البرج الذى يعيش معظم وقته فى البحر ، يحمل حنيناً جارفاً نحو بلدته ، ويعيش حياته مفعماً بحبها ، ويرى فيها الملاذ والأمان الذى يفتقده فى البحر . فهو بلا شك يعيش فيها آمناً بينما يكون فى البحر مترقباً . وقد نقلت إلينا صفحات التاريخ أخباراً وفيرة عن بطولات أبناء العزبة فى الدفاع عن بلدتهم إبان تعرضها للحملات المغايرة التى قصدت الاستيلاء عليها واحتلال دمياط ليكونا مقدمة لإخضاع مصر والسيطرة عليها .

وعلى شاطئ نهر النيل فى عزبة البرج توجد شوادر الأسماك التى تستقبل حمولات المراكب وتعيد بيعها بالجملة إلى تجار التجزئة وتشحن بعربات النقل إلى سائر المحافظات . وبالطبع فإن عزبة البرج ككل تعتبر سوقاً مفتوحاً لبيع الأسماك التى تصاد ليس فقط من البحر

المتوسط ، ولكن أيضاً من نهر النيل وبحيرة المنزلة . ومن أهم هذه الأسماك البورى والقاروص والوقار والبربونى والدنيس وغطى موسى والطوبار والجران وثعبان الماء والسردين والبلطى والنقط واللوت والمرجان والشيلان والمغازل والبياض وقشر البياض والمكرونة والشفش وأيضاً الجمبرى بمختلف أنواعه مثل الأزاز والسويسى . كما تصاد الكابوريا والبكلويز " الجندوفلى " وأم الخلول والسيبيا " السُبِّيط " . وهى أنواع لا تتوافر معاً فى أى بلدة صيد لأنها من مصائد متنوعة . وهو ما يميز عزبة البرج حاضرة البحر والنهر والبحيرة واختلاف مذاق المياه وتنوع المحصول السمكى الذى تنتج منه العزبة ما يقارب ٨٥ % من إنتاج مصر بقيمة مالية تبلغ نحو نصف مليار جنيه سنوياً .

ونظراً للموقع المتميز لعزبة البرج وتواجدها فى أقصى شمال البلاد على ساحل البحر الأبيض المتوسط ، وإلى الغرب من بحيرة المنزلة ، وترامى المروج الخضراء إلى الجنوب وفى الضفة الغربية للنهر .. فإنها تعد ملقفاً لتوافد الطيور المهاجرة التى تأتى أسرابها من الشمال الشرقى هرباً من الصقيع وسعياً وراء الدفء وتوافر الغذاء . وتحط هذه الطيور على جزر بحيرة المنزلة لتستريح فى أحراشها ، ويغريها توافر الغذاء بالبقاء لعدة أيام قبل انتقالها إلى سائر بحيرات مصر أو التوغل جنوباً . ويكون مجىء هذه الطيور إلى منطقة بحيرة المنزلة خلال شهور سبتمبر وأكتوبر ونوفمبر . كما تتواجد مرة ثانية خلال شهرى مارس وأبريل فى طريق عودتها حيث أنها تأتى مجيئاً ورواحاً فى أسراب كثيفة على دفعات لا يحكمها موعد محدد وبذلك يطول موسم

تواجدها فى المنطقة . وتكون وفادة هذه الطيور هدفاً لاغتنامها حيث ينشط أبناء عزبة البرج فى صيدها بكميات وفيرة تدر عليهم دخولاً كبيرة ولك أن تتخيل ذلك إذا ما قلنا أن هذه الطيور تتغذى على الطحالب والأعشاب والحبوب والعوالق العضوية بالبحيرة فضلاً عن الأسماك التى تصطادها بمهارة فائقة لدرجة أن البعض يرى أن تواجد هذه الطيور يؤثر على الثروة السمكية للبحيرة ! ويصل عدد أنواع الطيور المهاجرة إلى نحو ١٣٠ نوعاً بيد أنه تجدر الإشارة إلى أنه لا يقتصر تواجد الطيور فى منطقة بحيرة المنزلة على شهور توافد هذه الطيور المهاجرة فهناك أيضاً الطيور المحلية المتواجدة طوال العام والتى يرتزق صائدو الطيور من صيدها وبيعها .

وفيما يتم نقل هذه الطيور بكميات كبيرة لبيعها فى بعض البلدان ، فإنها تكون متوافرة وبأسعار أقل فى عزبة البرج ومدينة دمياط والقرى المجاورة حيث يسرح بائعو هذه الطيور لبيعها للمواطنين بأسعار زهيدة . وهى تعد من الأكلات الشهية المفضلة عند الكافة .

ومن أهم أنواع الطيور التى تصاد من هذه المنطقة : الغر والبلبول والخضيرى وأبو منازل والشرشير والحمراوى والرقاب والبشاروش والزرقاوى واليمام والحمام الغيطى والسمان وأيضاً العصافير بمختلف أنواعها .

ومن سابق السرد يتبين لنا أن عزبة البرج ليست فقط موقعاً متميزاً نادراً يكشف مآثر الرحمن عز وجل وبديع قدرته ولكنها أيضاً موطن

خير . فقد حباها الله بوافر نعمائه من البحر والجو فى تنوع رائع ، ولهذا عاش مواطنوها رغم بساطة حياتهم فى رغد من العيش وسعة فى الرزق . وقد طبعت النعمة دلائلها على وجوه أبناء عزبة البرج فتراها نضرة ، وغالبيتهم ذوو بشرة بيضاء مشوبة بالحمرة . والغريب أن لا يكون ذلك كذلك . فهم يأكلون أطيب الأُكل ، ويعيشون فى أجواء هادئة لا يعكرها صخب ، ويشتمون هواء نقياً يأتى من البحر محملاً باليود ومشبع بالأوزون الذى يضفى على الناس الصحة والحيوية .

وأهل عزبة البرج يميلون إلى التدين والطيبة فى التعامل والشفافية وعدم الكلفة أو التصنع . كما أنهم نشطاء بحكم بيئتهم الصحية ، فهم يعملون دون كلل أوملل أو استصعاب . وأشد ما تكون خبرتهم فى البحر عملاً بالصيد فإن رأى بعضهم غير ذلك فإنه يرحل إلى بعض الدول الأجنبية كإيطاليا واليونان وفرنسا وغيرها للعمل كبحارة على سفنها . يذهبون إلى تلك البلاد وقد سبقتهم شهرتهم ، ولذلك لا يجدون صعوبة فى البحث عن عمل ، فأينما ذهبوا عملهم فى انتظارهم . وقد أضفى ذلك عليهم خبرة جديدة فى الطواف بسائر دول العالم والتعامل مع مختلف الجنسيات والاطلاع على ثقافات عدة .

وحرى بنا أن نذكر أن بعض صيادى عزبة البرج قد نزحوا بمراكبهم إلى البحر الأحمر للصيد فيه وفيما بعده . ومن تلك المناحى يأتون بأنواع أخرى من الأسماك وبكميات كبيرة تجد أسواقها فى سائر بلدان الجمهورية .

أما وقد اتخذ أبناء عزبة البرج من كل بحار العالم وخلجانه

ومحيطاته نصيباً وكان لهم تواجد ، فلابد أن يكون هناك الكثير من الشواهد المذهلة والمواقف الصعبة والأحداث الغريبة والتى تكون فى مجملها باعثة على الخوف والقلق ، وقد تضيف إلى مكنونات الحزن والألم . بيد أنه توجد أيضاً المفارقات الطريفة التى يلوكها البحارة بعد ذلك على سبيل الندرة ، وجميعها عوامل صقلت شخصية ابن عزبة البرج وغرست فيه زعامة وشهامة ومروءة .

وقد يكون فيما يلى قصاً لواحدة من أغرب الوقائع التى حدثت لبعض أبناء عزبة البرج فى رحلة صيد عبر البحر الأحمر ، أسمعت أحداثها الدنيا بأسرها . وتناولت وقائعها كل وسائل الإعلام فى مختلف دول العالم . والجديد هنا أننا نسجلها بل نوثقها كما حدثت تماماً . وكما حكاها أصحابها دون مزايدات إعلامية أو مبالغات . وأيضاً دون طمس للحقائق أو تغطية لبعض الأدوار غير المعلنة . نحن باختصار نكتبها كما جرت وقائعها وبكل حذافيرها بمنتهى الدقة والأمانة . ونضعها فى ذمة التاريخ .. لتكون رقماً فى سجل معاناة أو بطولات أبناء عزبة البرج وما يتعرضون له فى رحلاتهم الشاقة التى يجوبون فيها أعالى البحار لا يصدهم خوف ولا تمنعهم رهبة .

هدوء العاصفة

أغرب رحلة صيد

ميناء الأتكة بالسويس .. وحركة دءوب لمراكب الصيد الضخمة التى تجوب خليج السويس ، فيما يتجه بعضها إلى البحر الأحمر متوغلاً نحو مناطق الجنوب فى رحلات شاقة طويلة المدى ، قد يصلون فيها قبالة السعودية واليمن على الساحل الشرقى للبحر الأحمر ، وإلى السودان وأريتريا على الساحل الغربى ، وقد تمتد بهم الرحلة إلى مضيق باب المندب فيجتازونه متجهين إلى خليج عدن على امتداد اليمن شرقاً أو إلى الغرب عند جيبوتى ثم الصومال الذى تمتد سواحله بطول خليج عدن وتنحرف جنوباً إلى الغرب على المحيط الهندى حتى حدود كينيا وهو بذلك صاحب أطول سواحل بحرية لدولة أفريقية .

والصيد يتم فى المياه الدولية ، سواء كان فى البحر الأحمر أو خليج عدن أو امتد شرقاً إلى البحر العربى أو جنوباً إلى المحيط الهندى بين هذه الدول ، وهى مناطق غنية بالأسماك . الصيد فيها يوماً قد يأتى بحصيلة أسبوع من الصيد فى مناطق أخرى ، كما أنها متنوعة فى المحصول السمكى ، ولهذا تعد هذه المناطق رغم بعدها .. مناطق جذب للمراكب الكبيرة التى تستطيع أن تتحمل وعثاء هذه الرحلة الطويلة والتى قد يمتد أمدها إلى قرابة الشهرين !

فى ميناء الأتكة الحركة لا تنقطع فيما بين تجهيز المراكب للإبحار أو استقبالها آيبة ، فمن هذا الميناء الخدمى الخاص بالصيد يتم تزويد

المركب بكل احتياجاته فى رحلته من السولار والزيوت ، والمواد الغذائية والمياه ، وألواح الثلج ومعدات الصيد ، وقد تزيد تكلفة تجهيز المركب الواحد عن المائة والخمسين ألف جنيه وقد لا يدفع صاحبه من هذا المبلغ شيئاً .. فهنا التعامل بالائتمان ، وعادة لا يكون صاحب المركب موجوداً أثناء إعداد المركب وتجهيزه ، ومع ذلك يتم تزويد المركب وأفراده بكل ما يلزم . هذا بالطبع فضلاً عما يكون معهم من أدوية ومتعلقات شخصية وخلافه .. لزوم هذه الرحلات الطويلة .

وعندما تعود المراكب بصيدها إلى ميناء الأتكة ، لا تجد صعوبة إطلاقاً فى بيع حصيلتها من مختلف أنواع الأسماك ، ومهما كانت الكميات . بعض هذه المراكب يعود بحصيلة ثلاثة آلاف طاولة مملوءة بمختلف أنواع الأسماك ، والطاولة تزن من ٢٠ إلى ٢٥ كجم .. حسب الحجم والنوع ، ولا مشكلة على الإطلاق فى تصريف مثل هذه الكميات التى تتجمع من العديد من المراكب فى كل يوم ، فتجار الأسماك " السوايسية " وغيرهم يتجمعون فى ميناء الأتكة لشراء ما يريدونه ، بينما تشحن معظم هذه الكميات إلى سوق العبور بالقرب من القاهرة حيث يشتريها تجار الجملة وينتقون منها الأنواع المميزة لترسل إلى الفنادق الكبرى والقرى السياحية أو تشحن للتصدير . بينما تباع باقى الكميات إلى تجار الأسماك الذين يأتون من سائر أنحاء الجمهورية إلى هذه السوق الشهيرة .

وفى كثير من الأحايين تتحرر المراكب من حمولاتها وهى عائدة من رحلاتها الطويلة وتفرغها فى برانيس عند بدايات حدود مصر الجنوبية

على البحر الأحمر ، حيث يتم شحنها فى عربات نقل إلى سوق العبور ، وفى ذلك اختصار للوقت وحفاظ على جودة الأسماك .

ويقوم صاحب المركب أو المسئول عنه بتسديد كافة المديونيات لتجار ميناء الأتكة بعد عودة المركب من رحلة الصيد وقبل أن يجهزه للمرة الثانية ويستعد للرحلة التالية .

ومن أهم أنواع الأسماك التى تصاد من البحر الأحمر وخليج عدن والبحر العربى والمحيط الهندى خلال تلك الرحلات : الوقار والمرجان والبربونى والبياض والصرع والمكرونة والبراكودة " المغازل " والسردين وأيضاً الجمبرى والسبيط " السيبيا " والكاليمارى والاستاكوزا.

ومعظم المراكب العملاقة التى تعمل من خلال ميناء الأتكة بالسويس ، أصحابها دمايطة من عزبة البرج ، وهنا لابد أن يتبادر إلى الذهن سؤال مشوب بالدهشة .. ولماذا لا يكون هذا الحراك فى عزبة البرج ؟ لماذا لا ترسو هذه المراكب فى عزبة البرج ، إما على شاطئ نهر النيل مثل الآلاف من مراكب الصيد التى تعمل فى البحر الأبيض المتوسط ، أو يكون مرساها على ساحل ذات البحر ، فتكون على مرأى ومتابعة من أصحابها ، وفى ذات الوقت تخفف من عناء انتقال بحارة هذه المراكب فيما بين عزبة البرج والسويس ؟ وهناك إجابات متعددة لهذه النزعة الإقليمية البحتة ، فنهر النيل أمام عزبة البرج يكتظ بمراكب الصيد التى تعمل فى البحر الأبيض وتنتقل إليه عبر بوغاز دمياط ، ولا يتسع المكان لرسو مثل هذه السفن الضخمة التى تعمل فى البحر الأحمر وما بعده ، وتحتاج لخدمات أكبر ومدى أوسع . ثم إن ساحل البحر

الأبيض بامتداد عزبة البرج شمالاً وإلى الشرق منها ليس مجهزاً لرسو السفن .. فمياه البحر تنبسط متدرجة فى العمق نحو الشاطئ حتى تتلاشى ، الشيء الذى يحول دون اقتراب المراكب من البر ، فإذا ما وقفت فى " الغاطس " بعيداً عن البر كان أمر تجهيزها صعباً ومكلفاً .

وهناك ما هو أهم من ذلك . فإن رسو مثل هذه المراكب فى عزبة البرج أياً كان تراكيها .. فى النهر أو البحر ، سوف يضطرها عند رحلة الصيد فى البحر الأحمر وما بعده .. إلى المرور من قناة السويس ، وهو أمر مكلف للغاية بسبب ارتفاع رسوم المرور ، وتكون رحلة الصيد غير مجدية على الإطلاق ، وعلى خلفية أن ميناء الأتكة بالسويس هو موقع التجهيز لرحلات الصيد ، ومنفذ المرور إلى البحر الأحمر ومنه أيضاً تأخذ المراكب تصاريح رحلات الصيد ، فإن انتقال المراكب من عزبة البرج إلى موقع الميناء عبر قناة السويس يستلزم السير مسافة ١٢٠ ميلاً بحرياً (الميل البحرى = ١٨٥٢ متراً) من الأجدى توفيرها اختصاراً للوقت والجهد . وكلها أسباب داعمة لتواجد هذه المراكب فى ميناء الأتكة بالسويس بصفة دائمة وأن يكون نشاطها من خلاله . بيد أنه تجدر الإشارة إلى أن هيئة قناة السويس تمنح مراكب الصيد تسهيلات فى المرور لمرة واحدة فى السنة برسوم مخفضة . وتستفيد المراكب من هذه الميزة فى الرجوع إلى عزبة البرج لإجراء العمرات اللازمة لها ثم العودة إلى ميناء الأتكة .

ولكن .. لماذا التفكير أصلاً فى الصيد من البحر الأحمر .. وكان من الممكن تذليل صعاب تراكى هذه السفن على شاطئ النيل أمام عزبة

البرج والاكتفاء بأن يكون نشاطها فى البحر الأبيض ، تصطاد منه كسائر مراكب عزبة البرج الأصغر حجماً . هنا نقول أن طموحات هذه المراكب أكبر من أن تعمل فى البحر الأبيض الذى أصبح محدوداً فى محتواه السمكى بسبب ما يتعرض له من تلوث نتيجة حركة الملاحة به وما تتواجد على سواحله من مدن عملاقة تلقى بمخلفاتها فيه . بل إن النية فى الاتجاه إلى البحر الأحمر وخليج عدن وما بعد ذلك كان السبب فى الاتجاه إلى تصنيع هذه المراكب الضخمة .

نعود إلى السويس .. وإلى ميناء الأتكة ، والحركة الدءوب التى لا تنقطع على مدار الأربع والعشرين ساعة فى كل يوم . وهذا يوم الأربعاء الثامن عشر من مارس عام ٢٠٠٩ وهذا مركب الصيد " أحمد سمارة " وقد انهى بحارته كافة تجهيزاته لرحلة صيد في البحر الأحمر وخليج عدن . وفى الساعة الثالثة عصراً أدار ميكانيكى المركب الماكينة لنحو ربع الساعة ثم تحرك متجهاً إلى مكتب السواحل للحصول على تأشيرة الخروج ، وبعدها انطلق المركب على بركة الله يمخر عباب خليج السويس متجهاً إلى الجنوب صوب البحر الأحمر وعلى متنه طاقمه المكون من سبعة عشر فرداً منهم ثلاثة أشقاء دمايطة من كفر حميدو وهم أحمد نصر كابتن المركب ، وإيهاب نصر مساعد الكابتن وهو أيضاً ميكانيكى المركب المسئول عن تشغيله ، ومحمد نصر مُشغل البحارة أى المسئول عن تشغيل الصيادين .. وهم أبناء عم الحاج سمارة نصر صاحب المركب وأحد أبناء عزبة البرج . أما البحارة أو الصيادون فمنهم أربعة دمايطة هم : محمود مسعد الغنام من عزبة

البرج ، أحمد محمد طرابيه من كفر حميدو ، ومحمد محمد طلبة وعبده محمد محمد وهما من الروضة ، وعشرة من قرية برج البرلس بمحافظة كفر الشيخ هم : حجازى أحمد أحمد ، الشحات رجب مرزة ، رضا عبد العاطى محمد ، رضا عثمان غالى ، أمين محمد صابر ، عبد السلام إسماعيل عمارة ، صبحى عبد اللطيف محمد وابنه السيد صبحى عبد اللطيف ، محمود محمود غالى ، معاذ حمدين محمد عبد الرحمن .. ويحدوهم جميعاً الأمل فى رحلة موفقة .

وما كان المركب " أحمد سمارة " يبتعد عن الشاطئ حتى لحق به المركب " ممتاز ١ " الذى كان يتم استعداداته بالتزامن مع المركب " أحمد سمارة " ، ليكونا معاً فى هذه الرحلة الممتدة . وعلى متن المركب " ممتاز ١ " طاقمه المكون من ثمانية عشر فرداً هم : أحمد حسن خليل كابتن المركب ومحمد حسن خليل مساعد الكابتن وهما ابنا الشيخ حسن خليل صاحب المركب وهو من أعيان عزبة البرج ، ومعهم خمسة دمايطة آخرون هم إبراهيم محمد إبراهيم وحسن مورو ومحمد محمد فؤاد والسيد محمد موسى ومفرح محمد الفقى وجميعهم من عزبة البرج ، وسبعة من الدقهلية هم الحسين عبد الجليل موسى والسيد أحمد محمد والسيد الجبلى وإبراهيم محمود أحمد والعربى محمد العربى وشقيقه محمد محمد العربى وأحمد محمد محمد وجميعهم من المطرية ، وأربعة من كفر الشيخ هم محمود أمين محمد وعبدالله محمد أمين ونعيم إبراهيم محمد وأسامة السيد وجميعهم من برج البرلس .

وحسبما هو دارج فلكل مركب اسم يختاره صاحبه له ، فيعرف المركب به ويكتب فى سجلاته وتراخيصه . ودائماً ما يتخير أصحاب

المراكب الأسماء الجميلة أو التى تحمل دلالات دينية تفاؤلاً وتيمناً بالسلامة ، وكثيراً ما يطلق أصحاب المراكب أسماء أبنائهم على مراكبهم .

ويتضح من اسم المركب " أحمد سمارة " أن صاحبه سمارة نصر أسماه باسم أحد أبنائه . وهذا صحيح ، فهو متزوج وعنده ابنان مازالا فى مراحل التعليم هما أحمد وعبدالرحمن ، ولكن الطريف أن " سمارة " اسم شهرة لاسمه الحقيقى وهو محمد عوض نصر ، وفى مجتمع الصيادين بصفة عامة وفى عزبة البرج بصفة خاصة تنتشر أسماء الشهرة أو الكُنية ، ودائماً ما يتوارى الاسم الحقيقى لصاحبه . وسواء عُرف الشخص باسم الشهرة أو بالاسم الحقيقى فلابد أن يسبقه لقب الحاج أو الشيخ أو الريس أو المعلم أو الأسطى أو ما شابه .. للتوقير والاحترام . وكثيراً ما يُنادى الشخص منسوباً بأبوة أكبر أبنائه أو حتى بناته كنوع من التبجيل أو إظهار المودة . والحاج سمارة يملك مركب صيد آخر بالمشاركة ، اسمه " شهد البحار " .

أما الشيخ حسن خليل فاختار لمركبه اسم " ممتاز ١ " دلالة على التميز والتفوق والأولوية . ولهذا الاسم قصة ، فعندما كان الشيخ حسن خليل صغيراً كان والده يملك مركباً بالمشاركة مع الحاج إبراهيم القشاوى اسمه " ممتاز الأول " : ثم عملا مركباً أسمياه "ممتاز الحديث" ثم استقل كل من الشريكين بنفسه ، وعمل الشيخ حسن خليل وشقيقه لطفى مركباً باسم " ممتاز " . ومع تحسن الأمور المادية استقل كل من الشقيقين بحاله ، فترك الشيخ حسن خليل المركب لشقيقه وصنع مركباً

جديداً ورأى أن يحافظ على الاسم الممتاز .. فأسماه " ممتاز ١ " ، وللشيخ حسن خليل ثلاثة أبناء وابنة واحدة . والأبناء الثلاثة هم : أحمد وشهرته حمادة ، وعلى وشهرته علاء ، ومحمد .. ويعملون جميعاً بمهنة الصيد . وفى أوقات لاحقة استطاع الشيخ حسن خليل أن يصنع مركبين آخرين فجعل كل ابن من أبنائه يستقل بمركب ، استقل الابن الأكبر أحمد بالمركب " ممتاز ١ " الذى يعمل فى البحر الأحمر ، بينما استقل الابن الأوسط على بمركب آخر أسموه " حمادة السكر " والابن الأصغر محمد بالمركب الثالث الذى أسموه " الولد الشقى " والمركبان هذان يعملان فى البحر الأبيض المتوسط . وهنا لابد أن يطرأ سؤال وجيه : إذا كان لكل ابن مركب . فما الذى جمع ابنيه أحمد ومحمد فى مركب واحد هو " ممتاز ١ " ؟ وقد يكون طريفاً قبل أن نجيب على هذا السؤال أن نقول .. بل إنه كان من الممكن أن يكون الأبناء الثلاثة على هذا المركب تحديداً ، والسبب أن هذه الرحلة للمركب " ممتاز ١ " كانت خلال وقت حظر الصيد فى البحر الأبيض التى تمتد لشهرين وهو قرار تعمل به كل دول حوض البحر الأبيض المتوسط مجتمعة خلال هذه الفترة سنوياً لتنمية الثروة السمكية فى البحر الأبيض والحفاظ عليها من الصيد الجائر الذى يحصد الأسماك حصداً يهددها بالفناء . وعليه كان المركبان " حمادة السكر " و " الولد الشقى " فى حالة توقف شأنهما شأن كل مراكب عزبة البرج التى تصطاد من البحر الأبيض المتوسط . وقد طلب محمد الابن الأصغر للشيخ حسن خليل أن يشترك مع شقيقه الأكبر أحمد فى رحلة المركب " ممتاز ١ " فى البحر الأحمر ، فسمح له والده

ليكتسب خبرة جديدة ، فعاد على وطلب من والده أن يصطحب الشقيقين فى هذه الرحلة فرفض الوالد الشيخ حسن خليل مداعباً الابن بقوله " لا أضع البيض كله فى سلة واحدة " وهى عبارة لها مدلولها فى هذه المهنة الشاقة ، فلا شك أن الشيخ حسن خليل صاحب الخبرة الطويلة فى مجال الصيد والعمل فى البحر يدرك جيداً أن مهنة الصيد محفوفة بالمخاطر ولا يجب أن يجازف بكل أبنائه على مركب واحد .

وخلاف اسم المركب الذى يختاره صاحبه يوجد رقم لكل مركب ضمن مسلسل رقمى لمراكب كل ميناء صيد . والمركب " أحمد سمارة " رقمه ١٠٩٢ س . س أى تابع للسويس وهو صناعة عزبة البرج عام ١٩٩٧ ويبلغ طوله ٣٠,٩٥ متر وعرضه ٨,١٥ متر ، أما المركب " ممتاز ١ " فرقمه ١١٩٧ س . س ، وهو أيضاً صناعة عزبة البرج عام ١٩٩٢ ويبلغ طوله ٣٢,٣٠ متر وعرضه ٨,٥ متر . ويكتب رقم المركب واسمه بخط واضح فى مكان بارز على جانبى مقدمة المركب . وغير اسم المركب ورقمه تتزين المراكب ببعض الرسومات الجميلة والزخارف الزاهية وتكتب عليها الأدعية الدينية وأحياناً الحكم والأقوال المأثورة مما يزيد المراكب جمالاً . وعلى هذه الشاكلة يبحر الآن المركبان " أحمد سمارة " و " ممتاز ١ " فى خليج السويس متجهين جنوباً صوب البحر الأحمر حيث سيتعدانه مروراً من باب المندب إلى خليج عدن فى رحلة صيد طويلة قد تصل مدتها إلى الشهرين ، يتحكم فى ذلك كميات الصيد التى يتحصلون عليها وأيضاً الأحوال الجوية التى كثيراً ما تتحكم فى سير الرحلة . والمركبان مجهزان لمثل هذه الرحلات

الطويلة والشاقة وأيضاً للصيد من الأعماق الكبيرة ، فماكينة كل منهما قوتها ٨٥٠ حصاناً ، وفى كل مركب العديد من الأجهزة الحديثة مثل جهاز الرادار الذى يوضح الرؤية الأمامية وخاصة فى الليل ، وجهاز الستالايت الذى يوضح خطوط الطول والعرض وخط سير المركب ، وجهاز الأعماق " اسكنديل " الذى يبين عمق الماء تحت المركب . كما يوجد العديد من أجهزة الاتصال منها جهاز V.H.F للاتصال من مسافة أقصاها ٣٠ ميلاً بحرياً ويكون لهذا الجهاز هوائى " إيريال " يوضع أعلى المركب ، وجهاز راديو كوباني وهو وسيلة اتصال من المسافات البعيدة " يكون الاتصال عبر ميناء متفق عليه " وهذا بالطبع إضافة إلى أجهزة المحمول الخاصة بالبحارة وهى تعمل عندما يكون المركب داخل الأجواء المصرية ، فضلاً عن جهاز المحمول " الثريا " الذى يتيح الاتصال من أى مكان عبر الأقمار الصناعية وهو أهم وسائل الاتصال التى يستخدمها البحارة وأسهلها . كما يوجد فى كل مركب وسائل الحماية مثل طفايات الحريق ووسائل النجاة وأهمها العوامات الشخصية وقارب الرماص .

هى إذن مراكب مجهزة لمثل هذه الرحلات الطويلة والتى تظل فيها الماكينات تعمل دون توقف وعلى مدى أيام الرحلة مهما كان طولها !

كان المركبان " أحمد سمارة " و " ممتاز ١ " فى خليج السويس وقد بلغا نهايته جنوباً ودخلا إلى مياه البحر الأحمر ، وواصلا مسيرهما يقطعان الليل بالنهار بينما كان الجميع على متن المركبين فى يقظة من أمرهم ، وفى مثل هذه الرحلات تقل فترات النوم ، ويكون النوم متقطعاً

مصحوباً بالقلق والتحسب لما قد يحدث ، فهى مهمة قبل أن تكون رحلة، ومشقة دون أن تكون نزهة ، والحفاظ على المركب حفاظ على حياتهم فى هذا الخضم الذى لا يقبل الخطأ . والبحر تارة تنبسط مياهه هادئة كما لو كانت صفحة نهر ، وتارة يهيج وترتفع أمواجه صاخبة كما الجبال وتضرب المركب فى عنف . وقد يزيد ارتفاع الموج عن ارتفاع المركب ويمر من فوقه ويخل توازنه فينقلب ويبتلعه البحر وتكون الطامة الكبرى .

وعندما يكون المركب خفيفاً وهو فى طريقه لرحلة الصيد .. تلعب به الأمواج كيفما تشاء ويكون توازنه معدوماً أمام غضبة البحر ، ويصبح المركب كما الريشة فى مهب الريح .. يترنح فى كل اتجاه ، ويتمايل بشدة على كلا الجانبين وتكثر احتمالات غرقه . ونفس هذه المخاطر والاحتمالات تكتنف المركب إذا ما باغته البحر وهو فى طريق عودته محملاً بحصيلة الصيد .. حيث يثقل وزنه ولا ترتفع حوافه عن سطح الماء لأكثر من نصف متر ، ويتأثر جداً بارتطام الأمواج به وتدخل المياه إلى المركب فيثقل وزنه أكثر ويزيد اقتراب حوافه من مستوى سطح البحر ويكون عرضة للغرق السريع ، وعلى البحارة أن يجتهدوا ويسرعوا فى نزح هذه المياه من قاع المركب بالماكينة المخصصة لذلك .

ولا شك أن طاقم القيادة يدرك جيداً كيفية التعامل مع البحر فى مثل هذه الأحوال الجوية المباغتة والأنواء الضارية ، وهم تلاشياً لانقلاب المركب على أحد جانبيه وغرقه .. عادة ما يوجهون المركب فى وجهة

الأمواج ويديرون الماكينة بأقصى طاقتها .. حتى لا تجرف الأمواج المركب ويرتد للخلف ويختل توازنه ويغرق .. وفى مثل هذه المواقف يجاهد المركب فى السير وتنخفض سرعته كثيراً عن الثمانية أميال فى الساعة لتصل فى بعض الأحوال إلى ميل واحد فقط .. حيث يضيع جهد المركب فى مقاومة الأمواج العاتية ، ويظل البحارة على أعصابهم يعيشون فترات عصيبة مشحونة بالخوف والقلق والتوتر والترقب حتى تهدأ ثورة البحر ويعود إلى رشده .

مثل هذه المواقف كثيراً ما تجابه البحارة فى رحلاتهم مهما احتاطوا لها وتحسبوا ، وحتى لو أحجموا عن اقتحام البحر أيام النوات الشديدة .. لأنها أحياناً تأتى فى غير مواعيدها . ولا أحد يحاسب البحر أو يعاتب .

ومن أخطر المواقف التى تقابل البحارة فى رحلاتهم .. تعطل مراكبهم ، فقد يستحيل إصلاح هذا العطل والمركب فى الماء ، ومن هذه الأعطال مثلاً انفصال رفاس المركب . والرفاس هو المروحة الموجودة أسفل مؤخرة المركب .. والتى تدفع المركب للحركة . وفى مثل هذه الحالات يقف المركب متلقفاً الأمواج تحدف به يمنة ويسرة ، وليس أيسر من غرقه إلا إذا ما كان قريباً من ساحل يمكنه بطريقة أو بأخرى التوجه إليه ، أو صادف مركباً يشده إلى البر .

ولكن .. ماذا عن مصير البحارة عند غرق المركب الذى يقلهم ؟

من الغريب أن المركب نفسه الذى يكون معرضاً للغرق وقد يغرق ، يحمل معه وسائل الإنقاذ التى تحافظ على حياة البحارة الذين يستقلونه ،

وأهمها الرماص وهو قارب نجاة يستخدمه البحارة عند غرق المركب ، وهذه القوارب مختلفة الأحجام وغالباً ما يكون في كل مركب صيد رماص يتسع لعدد العاملين على المركب . ويكون مزوداً باحتياجاتهم من الطعام والماء والعلاج الذى يكفيهم لعدة أيام يصلون خلالها إلى البر أو تنتشلهم إحدى السفن المارة قريباً منهم . هذا من حيث المبدأ . أما خلاف ذلك ففى المركب أجهزة الاتصال التى تستغيث من خلالها فتلحق بها السفن القريبة للمساعدة أو الإنقاذ . كما يمكن إطلاق صفارات للتنبيه وطلب الإغاثة ، ويمكنهم أيضاً إطلاق دخان أصفر إذا ما كان الجو نهاراً ، أو إطلاق صواريخ ضوئية إذا ما كان الوقت ليلاً ، وهى وسائل لطلب الإغاثة تشاهدها السفن والطائرات ويمكن التنبيه من خلالها إلى موقع المركب الذى يتعرض للخطر وإنقاذه .. أو إنقاذ بحارته ، ولكن استخدام أى من هذه المحاولات مرهون بمدة وقوع الكارثة .. فمن الممكن أن يُباغَت المركب بأمواج تقلبه ويسقط بمن فيه إلى قاع البحر فى غمضة عين ، فما عساها تعمل وسائل الإنقاذ إزاء ذلك ؟ لا شك أن عنصر الوقت يكون مهماً فى إنقاذ المنكوبين والحفاظ على حياتهم .

والبحر الأحمر الذى ترتاده الآن المركبان " أحمد سمارة " و " ممتاز ١ " بحر قلق متقلب . تعلو أمواجه جداً أثناء غضبته ، ولهذا تتحسب له البحارة جيداً ، وعموماً فإن أفكار الغرق والتحسب للنوازل لا تفارق الصياد حتى وإن كان يصطاد من ترعة ، فما بالنا وهذا الخضم الهائل ؟

ويصل المركبان إلى برانيس ، ذلك الميناء القابع على نهايات حدود مصر الشرقية مطلاً على البحر الأحمر . ويتوقفان به للحظات لإثبات

ولوجهما إلى الجنوب خارج الأجواء المصرية . بعدها أقلع المركبان واستمرا فى وجهتهما الجنوبية فى البحر الأحمر الذى اعتادت مراكب الصيد أن تصل إلى منتهاه فى نحو عشرة أيام قد تزيد حسبما الرياح والأمواج والعوائق . ومن الممكن أن تكون هذه الأيام العشرة أيام عمل للمركبين فى خليج السويس أو البحر الأحمر ، وأن يكون فى هذا المتسع مجال خصب للصيد والاغتنام . ولكن طموح المركبين " أحمد سمارة " و " ممتاز ١ " والمراكب التى فى حجمهما وبإمكاناتهما غالباً ما يكون أكبر ، وهو طموح مشروع فى السعى على الرزق .

وأخيراً وصل المركبان إلى آخر بقاع البحر الأحمر وما أن بلغا مضيق باب المندب حتى اجتازاه ومرقا إلى خليج عدن حيث انتويا الصيد منه ، وراحا يبحثان بمعاونة الأجهزة عن تجمعات الأسماك لاصطيادها . وكان المتبع سابقاً أن تأخذ المراكب المصرية تصاريح صيد من دول حوض البحر الأحمر وخليج عدن تسمح لها بالصيد فى مياهها الإقليمية ، فيأمنون بذلك على نشاطهم وتواجدهم فى حيازة تلك الأقطار الشقيقة ، إلا أن هذه الدول راحت توقف هذه التصاريح دولة تلو الأخرى ، مما حدا بهذه المراكب أن تصطاد فى المياه الدولية بعيداً عن هذه الدول احتراماً لخصوصياتها وللشرعية الدولية . بيد أن إقليماً واحداً مازال يمنح هذه التصاريح للصيادين .. وتستفيد منها مراكب الصيد المصرية وهو الصومال لاند أو أرض الصومال ، وكان كلا المركبين " أحمد سمارة " و " ممتاز ١ " يحمل تصريحاً للصيد من المياه الإقليمية لهذا الإقليم . ولكن طاقمى القيادة فى كلا المركبين – على ما يبدو – قد

آثرا السلامة وابتعدا إلى الناحية الشرقية تجاه اليمن ليصطادا منها . و " آثر السلامة " هذه جملة ذات معنى ، يجدر بنا أن نوضح مغزاها ونلوكها بشيء من التفصيل . فالصومال لاند إقليم انشق عن الصومال فى تسعينيات القرن الماضى ومنح نفسه حكماً ذاتياً . ولكن وبغض النظر عن استقرار الأوضاع فى هذا الإقليم المنفصل .. تبقى الحسرة على تفتت الصومال الذى أصبح صومالين لا يجمعهما وفاق ، ثم ومرة ثانية وفى غضون سنوات قليلة تسود الفوضى أرجاء هذا القطر العربى الشقيق وينشق مواطنوه على أنفسهم فى منطقة ما بين الصوماليين ، ويتداعى الكيان الصومالى أمام النزعات القبلية لتظهر بونت لاند فى عام ١٩٩٨ كإقليم منفصل معلناً استقلاله بحكم ذاتى .

وهكذا تمزق الكيان الصومالى وانفصل فى ثلاث دول أو مناطق .. لأنه لم يتم الاعتراف الدولى بتلك الكيانات المنفصلة . فجغرافياً لا يوجد إلا صومال واحد موحد على كل خرائط الدنيا ولا اعتراف بهذه الحركات الانفصالية ، ولكنه سياسياً أو واقعياً انفصل عن الصومال إقليمان . أولهما الصومال لاند فى الشمال وهو أقرب صومال إلى مصر ويطل على خليج عدن . يليه جنوباً إقليم بونت لاند على ذات الخليج ثم وإلى الجنوب يبقى الصومال الأصلى أو جمهورية الصومال ذات العاصمة مقديشيو .. ذلك الصومال الذى يحمل تاريخاً مريراً فى الاستقطاعات والانفصالات والانشقاقات والتقلص ، ولم يكن الصومال لاند وبونت لاند إلا الجزء الحديث من هذا التاريخ .

وخلاف ما يثار عن تردى تلك المناطق ، وانتشار المجاعات بها والأوبئة والأمراض ، وتعاطف دول العالم وإرسال المعونات لها ، فلم يعد يُذكر الصومال الآن إلا مقترناً بأعمال القرصنة التى تقوم بها العصابات الإجرامية المسلحة التى تسطو على السفن التابعة لمختلف دول العالم فى المياه الدولية بخليج عدن ، وتجبرها على تغيير مسارها لتتراكى على سواحلهم . ويبدأون مطالبهم بالفدية مقابل إطلاق سراح هذه المراكب وأطقمها .

وتنتمى هذه العصابات الإجرامية المسلحة تحديداً إلى منطقة بونت لاند المنشقة عن الصومال والمتنازع عليها . وبتحديد أكبر فهم يتبعون بعض بلدانها مثل إيل وجاروى وهارار ديرى . وتسرح هذه العصابات فى خليج عدن بزوارق سريعة مسلحة بشتى أنواع الأسلحة الآلية الحديثة والقنابل ، وتقتحم السفن مهما كان حجمها وتجبرها على الاستسلام ، فيستجيب فى الغالب ربابنة تلك السفن حفاظاً على سلامة أفراد أطقمها وعلى السفن ذاتها ومنقولاتها التى أحياناً ما تكون مواد بترولية أو كيماوية لا تؤمن عاقبة إطلاق النيران عليها ، وربما تكون الحمولة عبارة عن شحنات أسلحة مما يزيد الأمور خطورة وتعقيداً . وتبدأ مفاوضات المطالبة بالفدية التى تكون بملايين الدولارات ، وتكون تهديداتهم شديدة فى حالة عدم الاستجابة للدفع ، وتصل إلى التلويح بمصادرة المركب أو حرقه .. وقتل البحارة .

وقد استجابت " مرغمة " حكومات الدول مالكة هذه السفن لهؤلاء القراصنة ، ورضخت الشركات الملاحية لمطالبهم .. حفاظاً على حياة

البحارة وحماية للسفن ومنقولاتها . ولكن يبقى القول أن هؤلاء المجرمين باتوا يهددون الملاحة فى خليج عدن الذى يعد من أهم المناطق الملاحية الاستراتيجية فى العالم . ويشهد الحراك التجارى فيما بين قارات آسيا وأفريقيا وأوروبا ، مما دعا العديد من دول العالم لأن تتحد ضدهم وترسل بارجات حربية إلى هذه المناطق ويكون لها تواجد عسكرى لتأمين حركة الملاحة ، كما انتقلت سفن حربية تابعة للاتحاد الأوروبى تقوم بدوريات فى المياه الدولية قبالة السواحل الصومالية لحماية ممرات الشحن . وكان لهذا أثره فى تأمين العديد من السفن العملاقة التى تمر من هذه المنطقة ، إلا أن المساحات البحرية كانت أوسع من أن تراقب بالكامل ، والمسافات أطول من أن تقتفى ، وحركة الملاحة أكبر من أن تؤمن ، ولهذا لم تتنبه هذه العمليات الإجرامية .. بل أخذت حذرها ، وجُعل القراصنة يبالغون فى المبالغ التى يطلبونها كفدية للمراكب التى يستولون عليها ، وكانت المبالغ الطائلة التى تتحصل عليها هذه العصابات من جراء هذا النشاط الإجرامى دافعاً لها لأن توسع مدى نشاطها ليمتد إلى مناطق أخرى فى المياه الدولية بعيدة عن بلدهم .. بل ووصلوا إلى القرب من سواحل بعض الدول المقابلة لهم أو المجاورة يوقعون فيها فرائسهم . لقد امتد مسعاهم إلى مساحة تبلغ نحو المليون كم٢ !

وأخبار هؤلاء القراصنة وعملياتهم الإجرامية المتنامية أصبحت باعثة على القلق ، وجُعلت فى صدر أولويات اهتمامات حكومات مختلف الدول .. فهى أمور ليس لها شبيه فى سائر أنحاء العالم ، وهى

مشكلة استعصت على الحلول ، ومن العار على الكيان العالمى أن يهدد أمنه وسلامة ممتلكاته مجموعة من المارقين على القانون فى إقليم يفتقر إلى الشرعية الدولية ، لم ينتزع اعترافاً من أحد .. ولا حدود له على خريطة ، وقد بلغت بهم الجرأة مداها فلم يهابوا أى مركب يقع تحت طائلتهم .. ولم يتراجعوا أمام أى دولة ترفع السفن علمها . وحتى السفن التى تبادلت معهم إطلاق النار .. تعاملوا معها ولم ينسحبوا رغم مخاطر تلك الاشتباكات وما تنجم عنه من قتلى .

لقد تأثرت الملاحة البحرية لكل دول العالم وتهددت بفعل هؤلاء القراصنة الأشرار الذين لا يعرفون لغة سوى المطالبة بالأموال .. فى تحد سافر للمبادئ والقيم والقوانين والأعراف الدولية . وكانت مصر من أكثر دول العالم تضرراً باعتبارها ممر الوصول ما بين الدول الأفريقية والأسيوية وبين الدول الأوروبية عبر قناة السويس ، حيث بدأت بعض الشركات تعدل من خطوط سير سفنها تجنباً لمخاطر هذه القرصنة .

ولا شك أن ربابنة السفن بدأوا يتحسبون لهذا الرعب الملاحى ، فالقراصنة لم يتركوا سفينة تفلت من بين أيديهم بما فى ذلك السفن التى كانت ذاهبة إلى مناطقهم تحمل المعونات الإنسانية إليهم !

وعلى أن مراكب الصيد لا تعد فريسة ذات مغنم لهذه العصابات لصغر حجمها وقلة قيمتها " نسبياً " إلا أن مراكب الصيد المصرية التى تذهب إلى هذه المناطق – وأغلبها من عزبة البرج – كانت تأخذ حذرها حتى قبل شيوع أعمالهم الإجرامية وذيوع صيتهم . وليس أدل على ذلك من القول أن مركبا الصيد " أحمد سمارة " و " ممتاز ١ " كانا يحملان

تصاريح للصيد من المياه الإقليمية للصومال لاند ومع ذلك استغنيا عن الاستفادة من هذه التصاريح وجنحا شرقاً تجاه اليمن وقد اعتزما الصيد من المياه الدولية قبالته .

ثلاثة أسابيع مضت من الإبحار المتواصل فى خضم مساحات مائية شاسعة قطع المركبان " أحمد سماره " و " ممتاز ١ " خلالها البحر الأحمر طولياً من أقصى شماله عند فم خليج السويس إلى منتهاه جنوباً عند مضيق باب المندب حيث عبراه إلى هذا الخليج العدنى الذى يجوبانه الآن بحثاً عن الأسماك فى المياه الدولية .. لا يبتعدان عن السواحل اليمنية أكثر من أربعين ميلاً بحرياً .. وهو شىء مسموح به لأن المياه الإقليمية لأى دولة فى العالم تنتهى عند بُعد ١٢ ميلاً بحرياً . كان الجو لطيفاً والمياه هادئة والنفوس متعطشة لبدء عملية صيد مجزية تعجل بزمن الرحلة وموعد الرجوع . وكانت الساعة تشير إلى الثالثة عصراً من يوم الجمعة الموافق للعاشر من أبريل عام ٢٠٠٩ عندما تلاحظ لبحارة المركبين وجود مركب صيد آخر على البعد فلما اقتربوا منه أكثر رأوه يرفع علم اليمن ، وكان هذا كفيلاً بأن لا يلق البحارة بالاً إلى هذا المركب الصديق . إلا أن الكابتن ومساعده فى كلا المركبين ارتابوا فى أمره ، ووقع الشك فى نفوسهم ، وأحسوا أن شيئاً لن تحمد عقباه آت .. لا محال !

فما الذى رآه أبناء دمياط الشقيقان أحمد نصر وإيهاب نصر فى المركب " أحمد سمارة " والشقيقان أحمد حسن خليل ومحمد حسن خليل فى المركب " ممتاز ١ " ولم يره البحارة فى المركبين وأحسوا معه

بالشرر المستطير ؟ لقد تشككوا – بما لهم من خبرة بحرية – فى تبعية هذا المركب لليمن . فهذا المركب صنع فى السويس ضمن مجموعة مراكب صنعت آنفاً لحساب الصومال الذى حدثت به اضطرابات سياسية اضطرت رئيسه عبدالله يوسف لأن يتركه ويرحل إلى اليمن الذى يعيش به الآن بناء على رغبته ، وكان طبيعياً أن تتشتت الأفكار وتقع الريبة فى النفوس ، فهل أصبح هذا المركب ضمن ممتلكات الرئيس السابق للصومال ، ولهذا يرفع علم اليمن قاطعاً صلته بدولة الصومال . أم أن هذا المركب مازال تابعاً للصومال ، وأنه يرفع علم اليمن تمويهاً .. ومعنى ذلك – حسبما هو شائع عن الصومال – أنه يحمل قراصنة ؟

وبين شقى رحا واحتمالين كلاهما غير مريح ، كان الأمل بأن يخيب حدسهما فى تلك الظنون ، ويكون المركب يمنياً حسبما يدل علمه المرفوع .. وليس سوى ذلك .

وعموماً لم يرصد هذه المعلومة إلا الكابتن ومساعده فى كلا المركبين وقد حبسوها فى صدورهم ولم يبح بها أحد للصيادين الذين كانوا مشغولين فى تجهيز الشباك للصيد . وفى مراكب الصيد دائماً ما يحتفظ الكابتن ومساعده ببعض المعلومات ولا تذكر أمام الصيادين خاصة إذا ما كانت باعثة على القلق ، حتى لا تشاع الفوضى وتعم المخاوف فى المركب وتضطرب المنظومة . وقيادة المراكب تحتاج إلى شخصيات ذات سمات خاصة يغلب عليها الطابع القيادى وتستطيع اتخاذ القرار الفورى عند الأزمات والتعرض للمواقف الصعبة . وربما نكون الآن على المحك من واحد من تلك المواقف .

كان المركب " ممتاز ١ " يبحر فى المقدمة .. يلاحقه المركب " أحمد سمارة " ، وكانت سرعة المسير واحدة وتبلغ نحو ٧,٥ ميل بحرى فى الساعة ، وقد مر المركبان إلى جوار مركب الصيد الذى يرفع علم اليمن .. بسلام ، ولكن ما أن ابتعدا عنه حتى بدأت مراقبته بالنظارات المعظمة . وقد حدث بالفعل ما يسترعى الانتباه . فبينما كان المركبان " ممتاز ١ " و أحمد سمارة " على بعد نحو ثلاثة أميال بحرية .. لوحظ أن حركة غير عادية دبت فى مركب الصيد المشبوه الى يرفع علم اليمن ، وتم إنزال لنشين إلى الماء وبسرعة قفزت إليهما مجموعتان من الأفراد السود المدججين بالسلاح ، وسرعان ما انطلق اللنش الأول صوب المركب الأقرب إليهم " أحمد سمارة " والذى كان خلف المركب " ممتاز ١ " . فى تلك اللحظة الخاطفة اتصل أحمد نصر كابتن المركب " أحمد سمارة " بأحمد حسن خليل كابتن المركب " ممتاز ١ " عبر جهاز المحمول وأبلغه بالموقف الذى كان هو الآخر يرصده . ثم اتصل بسرعة بصاحب المركب الحاج سمارة نصر وأخبره بما يرى. ورد عليه صاحب المركب وطمأنه ، وطلب منه التريث ليرى ما سيحدث . قبل أن يصل اللنش إلى المركب " أحمد سمارة " راح أفراده يطلقون النيران بكثافة حول المركب وأعلاه لبث الرعب فى نفوس البحارة وفى ذات الوقت يرون رد الفعل ، فلربما من وجهة نظرهم يكون البحارة المتواجدون عليه مسلحين وجاهزين للتعامل معهم .. وربما فى هذه الحالة يتركونهم ويفرون بعيداً تجنباً لمخاطر التراشق ، وقد أصابت هذه النيران رباط حديدى " واير " أعلى المركب فقطعته ،

وخلق ذلك رعباً للبحارة الذين فوجئوا بما يحدث .. وهم لا يحملون سلاحاً ، فأختبأ بعضهم تفادياً لضرب النار ، وانبطح البعض الآخر على أرضية المركب . يحدث هذا على مرأى ومسمع من طاقم قيادة وبحارة المركب الآخر " ممتاز ١ " فجعل محمد حسن خليل شقيق ومساعد الكابتن أحمد حسن خليل يتصل بوالده بالمحمول ويخبره بأن المركب " أحمد سمارة " يتعرض لعملية قرصنة من لنش به بعض المسلحين بينما يوجد لنش آخر فى طريقه إليهم . فرد عليه والده مطمئنا إياه وطلب منه ألا يخاف وقال له " الصوماليون مسلمون مثلنا وطيبون فلا تخافوا ، وقفوا لهم .. ولنرى ما يحدث " .

كان اللنش يتقدم سريعاً إلى مركب الصيد " أحمد سمارة " ومازال أفراده يطلقون النيران من مختلف الأسلحة بعشوائية وبشكل مرعب وفظيع ، ولكن وعلى الرغم من عدم تسلح مركب الصيد " أحمد سمارة " وتأزم الموقف ، لم يستسلم قائدها أحمد نصر ، وقام بإنزال البحار الذى يوجه المركب بالضُمان " إطار توجيه الحركة " وحل محله .. وأطلق صفارات المركب بطريقة متفق عليها لتنبيه الميكانيكى لزيادة سرعته ، والذى قام بدوره بتشغيل الماكينة بكامل طاقتها فزادت السرعة من ٧,٥ ميل بحرى فى الساعة إلى ثمانية أميال وهى أقصى سرعة للمركب ، وعلى أثر ذلك راح أحمد نصر يلف المركب دائرياً حول لنش القراصنة الذى كان قد وصل إليهم ليغرقه ، إلا أن اللنش اتخذ موقعاً بمؤخرة المركب وجعل يلف معه ، وفى نفس الوقت استمر أفراده فى إطلاق النار على المركب ليجبروا البحارة على الابتعاد عنهم ، وأخيراً لم يكن

هناك مناص من الاستسلام لحملة السلاح حفاظاً على المركب وسلامة من فيه ، وصعد واحد من الثلاثة يتبعه آخر ، واستمرا فى إطلاق النار حول أفراد المركب وفوق رؤوسهم مباشرة ويشيرا لهم ليبتعدوا . وبسرعة عاود أحمد نصر اتصاله بالمركب الآخر وقال للكابتن أحمد حسن خليل " الجماعة طلعوا عندنا المركب . وهم صوماليون " وفى التو اتصل محمد حسن خليل بوالده وأخبره بأن القراصنة وصلوا المركب " أحمد سمارة " وأنهم سيتعرضون لنفس المصير حالاً .

تقدم أحد القراصنة إلى كابتن المركب " أحمد سمارة " ليسيطر على حركة المركب بينما توجه الآخر إلى مساعد الكابتن عند الماكينة ، وكانا يتحدثان اللغة الصومالية التى يعرف البحارة بعض مفرداتها بحكم ترددهم لسنوات على هذه السواحل .

أما اللنش الذى كان يقلهم فقد انطلق بثالثهم عائداً إلى المركب الذى جاءوا منه ، ورجع سريعاً محملاً بجدد مدججين بالسلاح .. ربطوا لنشهم فى المركب " أحمد سمارة " وقفزوا فى خفة وسرعة إلى زميليهم ليصبح عددهم سبعة قراصنة ، بدأوا يفرضون سطوتهم على البحارة ويفرطون فى استخدام السلاح وإطلاق النار .. مع مراعاة الحذر من البحارة ومنع اقترابهم منهم ، وبدأت التعليمات أو الأوامر بكلمات " ويريا " أى استمع لى أو انتبه لى ، و " صع " أى سر أمامى .. وهكذا . وكان من ضمن هؤلاء القراصنة عمر بغالية زعيم القراصنة وأكثرهم إجراماً وشهرة .

وهذا سيناريو آخر مشابه تتم أحداثه على المركب الأمامى " ممتاز ١ " ينتهى بتعبئته بثمانية قراصنة .. استولوا عليه وفرضوا سيطرتهم بالإفراط فى إطلاق النار ، وكأنها سمة القرصنة أو طبيعة القراصنة . وبسرعة أعاد القراصنة توزيع أنفسهم ، وانتقل عمر بغالية إلى المركب " ممتاز ١ " الأمامية وبدأ فى بسط سيطرته وتوجيه المركب حسبما يريد فيما كان يتبعه المركب الخلفى " أحمد سمارة ". وقد شملت إرهاصات عملية القرصنة استيلاء القراصنة فى كلا المركبين على جهاز التليفون المحمول " الثريا " الذى يعمل عن طريق القمر الصناعى ، ويستخدمه أفراد المركب فى إجراء الاتصالات أينما كانوا مع ذويهم فى مصر . كما يتلقون مكالماتهم عليه .. لانعدام فاعلية أجهزة المحمول التى معهم متى تعدوا حدود الأجواء المصرية . وعن طريق جهاز الثريا يكون الاتصال المتبادل بين طاقم المركب وصاحبه .. فيبثونه أخبارهم . ويطمئن هو عليهم وقد يسدى إليهم بعض النصح والإرشاد .

كان هناك اتصال تليفونى سريع بين كل من الحاج سمارة نصر والشيخ حسن خليل أفضى فيه كل منهما للآخر ما سمعه ، وجعل كلاهما يتصل بعد ذلك بمركبه فلا يتلقى رداً .. لقد كان جهاز الثريا فى كلا المركبين مغلقاً . ويعاود الحاج سمارة نصر والشيخ حسن خليل الاتصال ببعضهما وهما مصدومان مما حدث . وراحا يفكران فى مصيبتهما وهما لا يحريان شيئاً . ولكن ما الذى كان يحدث حالئذ على متن كلا المركبين . وإلام صار الحال بعد أن اقتحمها القراصنة وسيطروا على الأفراد بقوة السلاح ؟

شغل قراصنة

أغرب رحلة صيد

كان القراصنة أصحاب وجوه عابسة ناطقة بالغدر . وكان الخوف والحذر متبادل بين الطرفين . فرغم ما كان مع القراصنة من سلاح .. إلا أنه بدا جلياً أنهم يخشون البحارة ويتحسبون لهم ويحتاطون منهم . وفى ذات الوقت كان البحارة على المركبين يخشون من تمادى القراصنة فى إطلاق النار حولهم وأعلى رؤوسهم . لقد كانت الأجواء مشحونة بالقلق والخوف والتوتر .

فى المركب " ممتاز ١ " الذى يسير فى المقدمة سأل الكابتن أحمد حسن خليل القراصنة : ماذا تريدون منا ؟ نحن نصطاد السمك بعيداً عن سواحلكم ! ورد عليه القراصنة بأنه غير مستهدف . وأن الغرض من وجودهم على مركبه التخفى فى البحث عن مركب أجنبى يستولون عليه . وأنهم سيتركونه لحال سبيله متى وجدوا هذا المركب .

ولأن مراكب الصيد صغيرة نسبياً ومحدودة القيمة مقارنة بالمراكب التجارية التى اعتاد القراصنة الاستيلاء عليها فقد صدقهم الكابتن أحمد حسن خليل وهو فى شك من الأمر . ومبعث هذا الشك أنهم كانوا آنفاً فى مركب صيد يتخفون فيه ، فما الذى استمالهم لتركه والتخفى فى مراكب أخرى بعد عملية قرصنة غير مأمونة العواقب !؟ ثم إن إفراطهم فى استخدام السلاح وإطلاق النار يؤكد أنهم جبناء وخائفون من المصريين .. بما يعنى أن كلامهم هذا ربما يكون للتهدئة فقط حتى

يعودوا بالمركبين إلى سواحلهم ، ويكون الرهان على الأفراد بغض النظر عن قيمة المركبين .. وتاريخهم يشى بذلك ، فقد سبق لهؤلاء المجرمين اختطاف أفراد أجانب من جماعات حقوق الإنسان كانوا فى مهام إنسانية فى بلادهم . وتم التفاوض بشأنهم لدفع فدية مقابل إطلاق سراحهم !

ولكن أياً كانت النوايا ، فقد راح الكابتن أحمد حسن خليل يفتش معهم عبر رادار المركب عن سفينة تجارية يستولون عليها . وكلما رأوا سفينة وطلبوا منه مطاردتها ، يفشل فى اللحاق بها لتفاوت السرعات . لقد كانت السفن التجارية تسير بسرعة ٣٠ ميلاً بحرياً فى الساعة .. بينما لا تزيد سرعة مركب الصيد عن ثمانية أميال بحرية ، وفى كل هذه المحاولات كان المركب " أحمد سمارة " يسير تابعاً للمركب " ممتاز ١ " لا يبتعد عنه ، وكان أفراده هم الأخر يعيشون فى أجواء مشحونة بالرعب والتوتر فى حضرة سبعة قراصنة من عتاة الإجرام ومحترفيه . مجرمون فى كلا المركبين يُطمئنون البحارة بأنهم يعرفون أنهم مصريون بسطاء يسعون على أرزاقهم ، وأنهم مسلمون مثلهم ، وما يلبثون أن يكشروا عن أنيابهم لأتفه الأسباب ويصوبوا أسلحتهم ناحيتهم ويطلقوا النيران على المحك منهم .. حتى أن البحارة استشعروا بأنهم من الممكن أن يُقتلوا إذا ما اختل التصويب قليلاً . ولهذا رضخوا جميعاً لخدمتهم وتلبية أوامرهم ، وقد احتلوا القاع فى كلا المركبين لا يبرحونه إلا لتلبية طلب أو تنفيذ أمر للقراصنة .

ومن الغريب أن أعمال القرصنة وسيرتها على مستوى العالم ارتبطت بالماضى وبالعصور الوسطى عندما كانت عصابات البحر تسطو على السفن وتسرق محتوياتها وقد تقتل ركابها . ولكنه فى ظل تغير الظروف وتقدم العالم والالتزام بالشرعية الدولية والاتفاقات والمعاهدات انتهى تماماً هذا السلوك . وأصبحت السفن تسير فى شتى محيطات وبحار وخلجان العالم آمنة مطمئنة . وفجأة انبثقت من الصومال تلك العصابات المسلحة التى تجوب خليج عدن وتقتنص السفن وتقتادها إلى سواحلهم عنوة لتبدأ المفاوضات على إطلاق سراحها مقابل فدية مادية غالباً ما يكون مُبالغ فيها . ومن الغريب أن نذكر أن العصابات الصومالية أو القرصنة الصومالية نشأت فى أعقاب انهيار نظام الرئيس محمد سياد برى فى بداية التسعينيات وتحول المدن الصومالية إلى ساحات حرب . وفى حينها لجأ الصيادون الصوماليون إلى مبدأ الدفاع الذاتى فى مواجهة سفن الصيد الدولية التى كانت تعبث بثرواتهم البحرية ، وأيضاً لمنع الشركات العالمية الكبرى من طمر نفاياتها السامة فى مياههم الإقليمية فكانوا يرون أنفسهم بمثابة خفر السواحل . وقد انخرط فى هذا العمل أعداد من الشباب للفوز بنصيب مادى ، وذلك فى ظل فوضى الحرب الأهلية ، ثم تصاعدت المجابهات وطالت السفن الآمنة واتخذت أعمالهم هذا الشكل المشبوه .

سار المركب " ممتاز ١ " وتابعه المركب " أحمد سمارة " ليلة كاملة فى اتجاه سواحل بونت لاند ، ثم عاد القراصنة وغيروا الاتجاه مسيرة نهار كامل وكانوا فى سيرهم يتلاشون الاقتراب من خط سير السفن

الحربية ويطلبون الانحراف إلى اتجاهات أخرى ، فإذا ما رأوا سفينة تجارية طلبوا من الكابتن اللحاق بها .. يفشلون ، ولكنهم لا ييأسون .

فى غمرة هذا البحث استطاع الكابتن أحمد حسن خليل أن يغافلهم وأخذ منهم جهاز الثريا واتصل بوالده وأطلعه على سير الأمور . وقال له أنهم مازالوا فى البحر يبحثون مع القراصنة عن مركب يسطون عليه . وهدأ الأب من روع الابن وطالبه بالهدوء ريثما يرى ما ستنتهى إليه الأمور ، بعدها أعاد أحمد حسن خليل جهاز الثريا إليهم دون أن يدروا . وبالطبع أنبأ الشيخ حسن خليل الحاج سمارة نصر بفحوى المكالمة ليكون على بينة من الأحداث .

وأخيراً وبعد مشقة من المتابعة والمطاردة تلاحظ للكابتن أحمد حسن خليل وجود مركب أجنبى يمكن الاستيلاء عليه .. فقد كان يسير بسرعة بطيئة لا تزيد عن سبعة أميال بحرية ويسلك خط سير يمكن اعتراضه ، فدل القراصنة عليه .. وطلبوا منه اعتراضه ، ومن ثم وجه الكابتن أحمد حسن خليل المركب تجاهه . وبسرعة نبه قراصنة المركب " ممتاز ١ " زملاءهم فى المركب " أحمد سمارة " ، وبدأ ثلاثة قراصنة من كل مركب يستعدون لاقتحامه وعندما اقتربوا منه باغتوه باللنشين وإطلاق النيران .. وبسهولة استطاعوا الاستيلاء عليه . وبذلك تفرق القراصنة فيما بين المراكب الثلاثة وساروا جميعهم فى اتجاه واحد صوب سواحل بونت لاند حيث مناطق نفوذهم .

كان المركب الجديد لنش خدمات بحرية Pilot تابع لإيطاليا ، وهو ما يعد غنيمة ثمينة للقراصنة نظراً لأهميته وارتفاع قيمته وبالتالى قيمة

الفدية التي سيطلبونها .. وهو ما يعنيهم .

لقد جنى هؤلاء القراصنة من حصيلة هذه الفدى مبالغ طائلة تقدر بعشرات الملايين من الدولارات سنوياً .. تدفعها إليهم الدول خاشعة خاضعة خانعة .. حماية لمراكبها ومواطنيها ، حتى أصبح دخل بونت لاند سنوياً من أعمال القرصنة يزيد بكثير عن ميزانيتها . وقد أحدثت هذه المبالغ طفرة فى حياة الصوماليين الذين ينتهجون أعمال القرصنة . فهم ينفقون ببذخ ، بل ويقرضون المال للتجار وللمحتاجين وهذا يكسبهم قبولاً من جانب الآخرين ، والكثير منهم تزوج أكثر من واحدة ، وهم يقيمون حفلات زواج فاخرة ، ويعيشون فى فيلات رائعة ويقتنون سيارات فارهة ذات دفع رباعى . وأصبح من أحلام أى فتاة أن تتزوج قرصاناً .. لأنه سيجعلها تعيش حياة القصور . وقد تحولت بلدانهم ومنها إيل وجاروری وهارار ديرى إلى بقاع مزدهرة بالمقارنة بسائر بلدان الصومال التى مازالت تعيش الكفاف وتغط فى التخلف ، وتنتظر المساعدات الغذائية الأجنبية ، وهو ما جعل سكان هذه البلدان الفقيرة يتحسرون على حالهم ، وبدأوا يتطلعون بمرارة إلى حياة الرفاهية التى يعيشها أقرانهم الذين امتهنوا القرصنة . وكان هذا داعياً بعضهم للانضمام إلى كتائب القراصنة . وللأسف فإن كثيراً ممن توجهوا إلى هذه المهنة المشبوهة كانوا من المدرسين والمهندسين وبعضهم كان يعمل فى الشرطة .. جميعهم وغيرهم تركوا أعمالهم وجاءوا من مختلف أنحاء الصومال بما فيها العاصمة مقديشيو ليجدوا لهم موقع قدم فى سوق القرصنة المربح .

بعد أن تم الاستيلاء على اللنش الإيطالى تحدث أحمد حسن خليل كابتن المركب " ممتاز ١ " مع القراصنة فى أمر إطلاق سراحهم وقد نالوا مرادهم . فقالوا له سنترككم بعد أن نقترب من حدودنا ، ولم يجد فى ذلك تبريراً ولكنه سكت حتى اقتربوا من بونت لاند ففاتحم ثانية فى أمر إطلاق سراحهم فأمهلوه حتى يقتربوا من سواحلهم . وهكذا ماطلوه حتى وصلوا إلى سواحل لاس كورى فى بونت لاند بعد ثلاثة أيام من السير والبحث والقرصنة واتضح أنهم حنثوا فى وعودهم ، وتراكى المركبان " ممتاز ١ " و " أحمد سمارة " إلى جوار اللنش الإيطالى على سواحل القرصنة فى تلك المنطقة الجبلية الخالية من كافة المظاهر الحياتية .. كضحايا جدد لواحدة من عمليات القرصنة . وما لبثوا أن جاءت عدة عربات محملة بقراصنة آخرين مدججين بمختلف أنواع الأسلحة ، ومعهم كميات كبيرة من صناديق الذخيرة والقنابل وكأنهم ينتوون حرباً ، وقد صعد فريق منهم إلى كل مركب من المراكب الثلاثة بينما نزل معظم القراصنة الذين اختطفوهم من البحر بعد أن سلموا القراصنة الجدد جهازى الثريا الخاصين بالمركبين واستقلوا نفس العربات التى انطلقت بهم إلى ذويهم – على أغلب الظن – ليستريحوا من عناء التعب لأيام وليال بين أمواج البحر وقيظ النهار وعواصف الليل وقد نالوا ما أرادوا .. على أمل العودة مجدداً لممارسة أنشطتهم الإجرامية . وقد بقى بعض القراصنة فى تلك المنطقة الجبلية .. لا هم صعدوا إلى المراكب ولا هم رحلوا من المنطقة ، لقد ظلوا على الساحل للمراقبة البرية وحراسة المراكب الثلاثة المختطفة ، والتى ترسو على بعد نحو ثلاثين متراً من البر .

هى إذن عملية منظمة ومرتبة ومتعددة الأدوار ، يؤدى كل فرد فيها دوره المنوط به ، فالذى يقتحم فى البحر لا يحرس فى البر . وهذا يرسخ معلومة متداولة عن القراصنة مفادها أنهم يتشكلون من ثلاثة عناصر أساسية هى الميليشيات التى كانت تعمل لدى أمراء الحرب وهم يشكلون القوة العسكرية فى السطو والحراسة ، والصيادون المحليون وهم يشكلون الخبرة اللازمة بالبحر ، ومجموعة من التقنيين الذين يجيدون التعامل مع الأجهزة المتطورة التى يستخدمونها .. وهى المجموعة التى تقوم بالتخاطب مع أطقم السفن لكونها تجيد بعض اللغات . وهى أيضاً التى تتواصل مع العالم الخارجى وتتفاوض مع ملاك السفن أو مستأجريها أو أصحاب البضاعة أو شركات التأمين المؤمن لديها المركب من أجل دفع الفدية وإطلاق سراح المركب .

ولم يعد يعنى الآن إلا أننا تحت طائلة قراصنة ، ضحايا لعملية اختطاف مباغتة داهمت مركبى الصيد ، وانتهت بالتحفظ عليهما وعلى متنهما خمسة وثلاثون بحاراً مصرياً أصبحوا رهائن مجهولى المصير .

تراكى مركبا الصيد " أحمد سمارة " و " ممتاز ١ " على سواحل لاس كورى فى إقليم بونت لاند وأوقفا محركيهما بعد ٢٧ يوماً منذ خروجهما من ميناء الأتكة بالسويس . كانت منها ثلاثة أيام فى حضرة قراصنة الصومال عاش خلالها الصيادون أسوأ أيام حياتهم فى أجواء مشحونة بالقلق والتوتر وقد لبوا خلالها كل مطالب القراصنة راضخين أذلة ، فكانوا يطهون طعامهم ويقدمونه للقراصنة .. ثم يأكلون ما يتبقى منهم . فإذا ما ظمأ قرصان منهم ألقى بالزجاجة فارغة فتملأ له وتقدم

فى خنوع وأدب جم ، ولم يكن أسهل على القراصنة من إطلاق النار تجاه البحارة لتوجيههم لشىء ما أو الأمر بأداء أى خدمة .. وربما تفريغاً لنزعة سادية يتلذذون بها بتعذيب وإرهاب وإذلال الصيادين . وها هم بعد أن وصلوا إلى الساحل يرحل معظمهم إلى غير رجعة .. ولكن ليس قبل أن يحل محلهم قراصنة جدد أنيط بهم حراسة المراكب وبحارتها .

كان فى كل مركب صيد نحو تسعة قراصنة . أما المركب الإيطالى فكان عليه أكثر من عشرين قرصاناً . وبالطبع يجىء اختلاف العدد تبعاً للأهمية ولكنهم كثيراً ما كانوا ينتقلون بين المراكب وبعضها ، ويبدلون أماكنهم فتختلف أعدادهم على كل مركب ، ولكنها أبداً لا تكون قليلة على كل مركب منها حتى يضمنون السيطرة التامة عليه .

ولم يكن القراصنة الجدد أخف وطأة من سابقيهم ، بل جاءوا أشد قسوة وعدواناً ، وكانوا يحتلون السطح فى كلا المركبين " أحمد سمارة " و " ممتاز ١ " لا يبرحونه إلا لضرورة . بينما فرضوا على كافة البحارة أن يظلوا أسفل المركب . وكان معهم أسلحتهم الآلية لا يتركونها أبداً . وبجوارهم صناديق الذخيرة والقنابل ، وكثيراً ما كانوا يطلقون النار للتنبيه أو التحذير أو التسرية عن نفوسهم ، وفى ذات الوقت للإعلان عن قوتهم وبسط النفوذ وبث الرعب فى قلوب البحارة .. كانوا يطلقونها بالقرب من الرؤوس والأجسام . وهكذا عاش الصيادون أجواء مفعمة بالتوتر ، يزيدها قلقاً أن القراصنة أحياناً ما يكونون مسطولين بفعل الخمر الذى يشربه بعضهم ، وكثيراً ما يكونون تحت تأثير مخدر

القات الذى يتعاطونه .. فكانت بعض سلوكياتهم مريبة لا تنبئ عن خير. والصيادون لا يملكون شيئاً من أمرهم . يأتى الصباح فلا يحتسبون لنهارهم ليلاً ، ويأتى الليل فلا يضمنون ولوج الصبح . وتمر الأيام ثقيلة بطيئة مجهولة المصير .. لا يعرف البحارة عما تسفر وإلام تنتهى ، وليس إلا تنفيذ الأوامر ، والخضوع لهم فى انكسار .

وكان لابد أن يخبر الحاج سمارة نصر والشيخ حسن خليل أجهزة الدولة بما حدث . فهى مشكلة دولية وإن اتخذت طابع الخصوصية . وبالفعل تم الاتصال بجهاز الأمن القومى " المخابرات " وإبلاغه بما حدث .. ليكون على المحك من هذه المشكلة ويضطلع بمهامه .

فى تلك الأيام انقطع اتصال البحارة بذويهم ، وكلما اتصل الأهالى بهم يجدون جهاز الثريا مغلقاً لا يستقبل مكالماتهم ، ووقعوا فى حيرة وأصابهم القلق على أقاربهم الصيادين .

لم يكن أحد يعلم بخبر وقوع المركبين ضحيتين لعملية قرصنة إلا صاحباهما الحاج سمارة نصر والشيخ حسن خليل إثر الاتصال الخاطف الذى تلقاه كل منهما من مركبه . فى البداية تكتما الخبر الصادم وحاولا احتواءه ، وكان يداومان الاتصال بالمركبين لعدة مرات يومياً ولا يجدان استجابة . وأمام قلق بعض الأهالى لم يكن هناك مناص من إعلانهما بالخبر المشئوم ، ووقع الخبر على بيوتات عزبة البرج وقوع الصاعقة ، وسرعان ماعم القلق أرجاء كفر حميدو المتاخمة لعزبة البرج .. وهى بليدة يعمل معظم أهلها بمهنة الصيد ، ومنها الأشقاء الثلاثة أبناء عم

الحاج سمارة نصر صاحب المركب " أحمد سمارة " وهم أحمد نصر وإيهاب نصر ومحمد نصر . وكان لابد أن ينتشر الخبر فى الروضة بمحافظة دمياط ومنها اثنان من بحارة المركب " أحمد سمارة " . وبسرعة عم الخبر أرجاء محافظة دمياط بالكامل وامتد إلى برج البرلس بمحافظة كفر الشيخ والمطرية دقهلية ولكليهما أبناء فى تلك الرحلة المشئومة .

وتمشياً مع المنطق بدأ سائر الأهالى يزحفون إلى الحاج سمارة نصر والشيخ حسن خليل صاحبى المركبين يسألونهما ويستفسرون .. ولم يكن المسئول أعلم بالسائل .. ولا أهدأ . فالأول له أبناء عم ثلاثة ، والثانى له ابنان .. ولكل منهما مركب يزيد ثمنه عن المليون ونصف المليون جنيه .

وبدأ الخبر ينتشر ، وأذاعته وكالات الأنباء كحالة من حالات الاختطاف وأعمال القرصنة التى تتعرض لها السفن فى خليج عدن بفعل فئة ضالة من أبناء إقليم بونت لاند الصومالى ، أجهضت أمان الملاحة فى المحيط الهندى وخليج عدن والبحر الأحمر ، وأقلقت دول العالم التى بدأت تتحسب لإبحار سفنها فى هذه المناطق وتأخذ بوسائل احتياط مكلفة مثل تزويد المراكب التجارية بالأسلحة .. بل إن فرنسا وضعت جنوداً مسلحين على سفن الصيد التابعة لها وهذا بالطبع فضلاً عن وجود قوات وقواعد عسكرية بحرية تابعة للاتحاد الأوروبى الذى وقع اتفاقية مع جزر سيشل الواقعة فى المحيط الهندى لمحاربة القراصنة الصوماليين ، وتنص على نشر قوات أوروبية فى بعض الجزر والخلجان التابعة

لسيشل والتى تخشى أوروبا أن يستغلها القراصنة فى تدبير هجمات على سفنها . وقد سبقتها إلى هذه الاتفاقيات أمريكا التى كانت ترسل طائرات بدون طيار إلى سيشل لتعزيز أنشطة المراقبة . ومع كل ذلك لم ترضخ كثير من السفن لهؤلاء القراصنة ، وتبادلت معهم إطلاق النار ، وكانت هناك خسائر من الطرفين . وفقد القراصنة بعض أفرادهم ، وأصيب آخرون وأسر بعضهم .. ولكنهم أبداً لا يتراجعون عن هذا النشاط الإجرامى ، وما زالوا يستولون على عشرات السفن التجارية العملاقة سنوياً ، ويتحصلون نتيجة إطلاق سراحها على ملايين الدولارات . إنها صناعة أو تجارة أو حراك من الصعب فى ظل مكسبه الباهظ الإقلاع عنه . ولعل القراصنة يرون أن مكاسبه أكبر من خسائره .

وفى إضافة جديدة نرانا الآن بصدد إحدى عمليات القرصنة لمركبى صيد مصريين على متنهما خمسة وثلاثون بحاراً يقضون أياماً عصيبة ، ولا يحرون لأنفسهم نهاية . وحفاظاً على حيوات البحارة قضت تعليمات الكابتن فى كلا المركبين أن يتم التعامل مع القراصنة من خلاله فقط ومعه مساعده .. وذلك تلاشياً لاحتكاك البحارة بالقراصنة خشية أن يحدث مالا تحمد عقباه ، فقد يفيض الكيل بأحد البحارة فيثور فى وجوههم أو يرفض تلبية مطلب لهم أو يعاملهم بغضب فيطلقون عليه النار ، وتكون الطامة الكبرى . كما طلب كابتن كل مركب من بحارته أن يتحلوا بالصبر والصمود وأن يتسموا بالهدوء والامتثال . وعلى هذه الخلفية ظل البحارة فى كلا المركبين يعيشون أياماً معلقة مجهولة الهوية .. والقراصنة لا يحادثون أحداً ، وليس بينهم وبين كابتن المركب

ومساعده إلا تقديم الطعام والشراب لهم وغسل ملابسهم . وتنظيف أماكنهم التى كانوا يتعاطون فيها القات .. ذلك النبات المخدر الذى اعتاد الصوماليون كما اليمنيون أن يمضغوه ويمتصوا عصارته ثم يلفظوه ويعاودون ملأ أفواههم به مرة أخرى ، أى أنهم يأكلون ويشربون ويدخنون . أما البحارة ففى الدرك الأسفل من المركب يعيشون الكفاف ، ويقتاتون مما يتبقى من طعام القراصنة . ما يفيض من غداء ستة أو سبعة أو ثمانية قراصنة يكون طعاماً لسبعة عشر فرداً فى المركب " أحمد سمارة " أو ثمانية عشر فرداً فى المركب " ممتاز ١ " وعلى قلة الطعام هذه .. كان البحارة لا يأكلون إلا هذه المرة على مدار اليوم بالكامل حفاظاً عما معهم من طعام ، خاصة أنهم رأوا جدب البر البونتلاندى أمامهم ، ثم إنها كانت أوامر القراصنة حتى لا يستقوى البحارة ، فقد كان يُطمئن القراصنة أن يجدوا البحارة هزالاً ضعافاً ، ومرضى يشكون العلل وينشغلون بحالهم ، وأحياناً ما كان البحارة يحاولون صيد سمكة بالصنارة . فإن حدث واصطادوا سمكة وغالباً ما تكون كبيرة الحجم .. أكلوا وشبعوا . وخلاف ذلك فهم فى جوع دائم .

ومن أشد ما كان يضايق البحارة فى تلك الأيام المريرة ، انقطاع الاتصال مع ذويهم ، فهم لا يدرون شيئاً عن أحوال أهلهم فى مصر ، وفى ذات الوقت يوقنون أن محاولات أهلهم فى الاتصال بهم تبوء بالفشل لغلق تليفون الثريا الذى يعمل بالأقمار الصناعية ، والذى أصبح فى حوزة القراصنة . فالبحارة قلقون على أهلهم .. وقلقون على قلق أهلهم عليهم .

ومن الأمور التى استجدت بعد خمسة أيام من تراكى مركبى الصيد " أحمد سمارة " وممتاز ١ " إلى جانب اللنش الإيطالى ولفتت أنظار البحارة .. وصول قاعدة عسكرية بحرية اتخذت مكاناً لها على مرمى البصر من ساحل لاس كورى ، كما دأبت طائرة مروحية " هليكوبتر " تابعة لهذه القاعدة على التحليق فى المنطقة يومياً وما تلبث أن تعود إلى القاعدة البحرية ، ولم يخالج البحارة شك فى أن هذه القاعدة العسكرية تابعة لقوات مكافحة القرصنة التابعة للاتحاد الأوروبى أو تابعة لإحدى الدول الكبرى .. جاءت مثلاً لتأمين خطوط سفنها أو أى شيء من هذا القبيل ، ولهذا لم ينشغل البحارة بهذا النشاط البحرى والجوى ، خاصة أنه لم يكن فى الحسبان أبداً ولم يدر بالخاطر أن تنقذهم مثل هذه الطائرة أو حتى القاعدة العسكرية .. فى ظل وجود قراصنة مسلحين بمختلف أنواع الأسلحة ، ومعهم صناديق ذخيرة وقنابل وسلوك غير محسوب فى إطلاق النار .. وقد كانوا يطلقون النار على الطائرة المروحية التى تحوم فوقهم لتهديدها أوحتى إسقاطها .. أو على الأقل لترويعها وإجبارها على العودة .

أجواء سيئة باعثة على القلق تلك التى يحياها البحارة على متن مركبى الصيد " أحمد سمارة و " ممتاز ١ " اللذين يتراكيان على سواحل لاس كورى فى بونت لاند الصومالية . وهى أيضاً ذات الأجواء التى يعيشها أهالى هؤلاء البحارة فى محافظات دمياط وكفر الشيخ والدقهلية الذين بات يؤرقهم مصير أبنائهم فى تلك الغربة الموحشة تحت سطوة قراصنة غلاظ . وبات الآن على صاحبى المركبين الحاج سمارة

نصر والشيخ حسن خليل أن يتحركا لحل المشكلة على أى شاكلة شريطة أن يعود البحارة سالمين . وما أصعب أن يواجه الإنسان مشكلة لم يكن يتوقعها ، ولم يكن يتحسب لها . ولكن يبدو أن الله لن يخيب رجاءهما . فهذه بارقة أمل تأتى على استحياء . لعلها أول محاولة ولعلها تكون الأخيرة فى إنهاء مشكلة الأسر هذه حتى يعود البحارة إلى أهلهم . ولكن ما ذلك الذى نمهد له بهذا التفاؤل ؟

ففى ذات يوم ، وبينما كان الشيخ حسن خليل شارد الذهن يفكر فى ابنيه المأسورين مع سائر البحارة على متن مركبى الصيد فى بونت لاند الصومالية .. تذكر شيئاً مهماً للغاية أو تنبه إليه .. إن هذه المشكلة التى تعانيها مركبا الصيد " أحمد سمارة " و " ممتاز ١ " ليست أول مشكلة تواجه مراكب عزبة البرج ، فمراكب عزبة البرج كثيراً ما تقابلها مشاكل معقدة بسبب الجنوح فى الصيد إلى المياه الإقليمية لبعض الدول أو الادعاء عليها بذلك ، ولهذا السبب كان يتم احتجازالسفن والتحفظ على البحارة واستجوابهم . وكثيراً ما كان أصحاب هذه المراكب يتصلون بابن عزبة البرج السفير عبد الرءوف الريدى سفير مصر لدى الولايات المتحدة الأمريكية الذى كان بدوره يحل هذه المشاكل .. ويعود البحارة بالمراكب . فماذا لو اتصل به وطلب منه المساعدة فى حل هذه المشكلة ؟

صحيح أن السفير عبد الرءوف الريدى قد ترك موقعه كسفير لمصر فى الولايات المتحدة الأمريكية ، ولكنه يستطيع بما له من علاقات مع العديد من المسئولين فى الكثير من دول العالم أن يحل لهم هذه المشكلة

خاصة أنه ينعم بمصداقية وحب لدى العديد من كبار المسئولين فى مختلف دول العالم . ثم إنه مازال يشغل العديد من المناصب الهامة المؤثرة فى مصر .. منها مثلاً رئاسته للمجلس المصرى للشئون الخارجية الذى كثيراً ما يسهم فى حل مشاكل المصريين فى الخارج .

لقد وجد الشيخ حسن خليل بما لا يدع مجالاً للشك أهمية محادثة السفير عبد الرءوف الريدى وإشراكه فى هذه المشكلة . وكله يقين أن السفير الريدى سيبذل قصارى جهده فى حل هذه المشكلة أولاً لما عرف عنه من إنسانية وميل إلى مساعدة الغير وثانياً لكونها من تلك المشاكل المستعصاة والمتعلقة بالخارج وثالثاً وأخيراً لأنها مشكلة خاصة بأبناء بلدته التى كثيراً ما يبدى اعتزازه بالانتماء إليها .

وفى مكالمة تليفونية .. شرح الشيخ حسن خليل المشكلة للسفير عبد الرءوف الريدى .. وحكى له معاناة البحارة وما يتعرضون له من تهديد بالقتل . وتأثر السفير عبد الرءوف الريدى بما سمع . وحزن حزناً شديداً لما يتعرض له أبناء بلدته الصيادون من محن فى السعى وراء الرزق . فالمآسى لا تنتهى عند احتجازهم لدى الدول التى تدعى دخولهم لمياهها الإقليمية وتقوم باستجوابهم ومعاملتهم أسوأ معاملة . ولكنها تصل إلى حد الغرق وفقدان الحياة . فكم من مركب خرج للصيد ولم يعد .. ابتلعه البحر بمن فيه . إنه لا تكاد تمر سنة إلا وتفجع عزبة البرج فى كوكبة من خيرة أبنائها الصيادين الذين يلقون حتفهم بين أمواج البحر وتنتهى أجسادهم إلى بطون الحيتان أو تتفتت بين العباب . والسفير الريدى تحديداً لا ينسى واقعة مريرة ألمت بعائلته فى أربعينيات

القرن الماضى .. عندما غرق مركب شحن يقل أبناء عمه الذين لقوا جميعاً حتفهم بين الأمواج . ثم إنه منذ سنوات قليلة تم إطلاق صاروخ على مركب تجارى يملكه شقيقه الحاج يحيى صاحب إحدى الشركات الملاحية فى دمياط . وغرق المركب بكافة حمولته .. والفاعل مجهول . فقد غرق المركب بالقرب من سواحل لبنان . وفى ظل الصراع الدائر بين حزب الله اللبنانى والعدو الإسرائيلى .. تاهت القضية وسكت أصحابها .

وعلى هذه الخلفيات المريرة لما يتعرض له أبناء عزبة البرج فى البحار والمحيطات والخلجان ولأسباب شخصية وإقليمية وقومية . كان لابد أن يكون للسفير عبد الرءوف الريدى دوراً فاعلاً فى حل هذه المشكلة . هكذا وعد محدثه الشيخ حسن نصر . والسفير الريدى من ذلك النوع الذى إذا وعد .. صدق . وقد راح بالفعل يبحث المشكلة ويفكر فيها محاولاً التماس أى طريق يؤدى إلى الحل والعودة بالمركبين والبحارة سالمين .

كانت صعوبة هذه المشكلة تكمن فى أنه لا توجد دولة يمكن تحميلها مسئولية ما حدث ، ولا توجد حكومة يمكن مخاطبتها أو توجد هذه الحكومة ولكنها عقيمة عن اتخاذ أى إجراء مفيد . فما يحدث فى إقليم بونت لاند نوع من الهمجية والتسيب ، وهذا الموضوع فى أيد مجرمين عتاة من العار النزول إلى مستواهم ومخاطبتهم . ثم إنهم أعلنوا – كما اعتادوا – عن قيمة الإتاوة التى يريدونها ثمناً لإطلاق سراح المركبين . وكل شىء عندهم بالثمن .. بالمال . لا توجد سياسة ولا دبلوماسية ولا

خواطر ولا احترام . فالقراصنة لا يعرفون إلا لغة المال ، ويحصلون عليه بالبلطجة وفرض السطوة بالسلاح . لقد أقلق هؤلاء الشباب المنشقون عن إقليمهم المنشق عن الصومال كل دول العالم ، وكبدوها الكثير من الخسائر سواء بما تم دفعه كإتاوات نظير الإفراج عن السفن ، أو بما حشدوا من قوات بحرية وجوية لمجابهة هؤلاء القراصنة وتأمين الخطوط الملاحية .

وتصادف فى تلك الأيام وكنا فى شهر أبريل من عام ٢٠٠٩ أن أُعلن عن زيارة للرئيس الصومالى شيخ شريف شيخ أحمد إلى مصر ، ورجاها السفير الريدى فرصة لأن تكون مشكلة مركبى الصيد على طاولة محادثاته مع الرئيس حسنى مبارك فلربما تجد حلاً .

واتصل السفير الريدى بالسيد / أحمد أبو الغيط وزير خارجية مصر ، وأفضى إليه بمشكلة الصيادين ، وضرورة عرضها على الرئيس الصومالى ، فوافق وزير الخارجية ، وبالفعل أبلغ بها الرئيس حسنى مبارك لتكون ضمن أجندة مباحثاته مع الرئيس الصومالى . وحسبما هو مقرر وصل الرئيس الصومالى إلى القاهرة يوم الثلاثاء الموافق ٢١ أبريل عام ٢٠٠٩ فى زيارة استمرت ليومين أجرى خلالهما مباحثات مع الرئيس حسنى مبارك . وقد جاءت تصريحاته بعدها داعية ومطالبة بمساعدة مصر للصومال على حل مشاكله والعمل على إرسال قوات عربية إلى الصومال للمساعدة فى استقرار الأوضاع الأمنية حيث لا تلقى قوات الاتحاد الأفريقى الموجودة فى الصومال

قبولاً لدى الجماعات الصومالية المسلحة خاصة " حركة شباب المجاهدين " التى تعتبرها قوات معادية ودخيلة .

وأضاف الرئيس الصومالى قائلا أنه بحاجة ماسة للدعم العربى من أجل إعادة بناء مؤسسات الدولة وإعادة إعمار ما دمرته الحرب الأهلية وإعادة تأهيل الجيش الوطنى وإعادة السلام والاستقرار إلى بلاده .

هكذا كانت تصريحات الرئيس الصومالى الذى بدا وكأنه يشكو حاله ، ويطلب العون والمدد !

ومن ناحيته صرح وزير الخارجية أحمد أبو الغيط أن شيخ شريف بحث دعم الحكومة الصومالية الجديدة والأوضاع السياسية والاقتصادية والإنسانية فى منطقة القرن الأفريقى ذات الأهمية الخاصة بالأمن القومى المصرى بالإضافة إلى مكافحة ظاهرة القرصنة التى باتت تشكل تهديداً مباشراً للكثير من المصالح الإقليمية والدولية فى منطقة خليج عدن .

ويأتى هذا على خلفية أن حل الأزمة الصومالية فى اليايسة سينعكس إيجاباً على ما يحدث فى البحر من قرصنة . وأن استقرار الصومال والحفاظ على وحدته الوطنية وإقامة سلطة شرعية ممثلة للشعب الصومالى بجميع أطيافه وانتماءاته هى الضمان الوحيد للقضاء على القرصنة . بل إنه من المستحيل القضاء على عمليات القرصنة فى المنطقة دون عودة السيادة للدولة الصومالية وإبعاد كافة التدخلات الإقليمية والدولية فى شئونه الداخلية .

يذكر أن شيخ شريف شيخ أحمد عندما كان رئيساً للمحاكم الإسلامية قبل أن يصبح رئيساً للصومال قال فى تصريح له أنه لا يستطيع أن يفهم ما يحدث قبالة السواحل الصومالية . ويبدو أن الأمر فيه سر ، وأنه لن يفاجأ إذا أُعلن فى يوم ما عن أن القرصنة فى الصومال ما هى إلا شركة عالمية متعددة الجنسيات . والصوماليون الضعفاء ليسوا سوى مرتزقة يعملون لدى هذه الشركة العملاقة ، مما يؤكد وجود أصابع خفية لها مصلحة فى ذلك .

إذن جاء الرئيس الصومالى ورحل .. وبقيت المشكلة ، فالرئيس الصومالى لا يملك السيطرة على إقليم بونت لاند المنشق بالقوة والذى يحافظ على استقلاله بحكم ذاتى بعيداً عن تبعية الصومال ، بل ولا يملك أيضاً السيطرة على الأحوال الأمنية فيما بقى له من الصومال . هكذا أعلن بلا مواربة ولا حرج . بل وطلب من المجتمع العربى أن يحل له مشاكله .

كان الحاج سمارة نصر والشيخ حسن خليل يتابعان زيارة الرئيس الصومالى لمصر كما لو كانا من رجال السياسة المعنيين بمثل هذه الأمور . وعاشا حالة من الترقب والشغف لسماع ما سوف تسفر عنه تلك الزيارة . ولكن للأسف خاب الرجاء الذى عولا عليه الآمال العظام.

هذا إذن باب هام يوصد فى وجه الحلول طالما عول عليه الحاج سمارة نصر والشيخ حسن خليل الآمال فى انفراجة مشكلتهما التى بدت وكأنها تتعاظم على الحلول . وليبقى المركبان بعيداً يقفان فى حزن أمام

ساحل لاس كورى فى بونت لاند وعلى متنهما خمسة وثلاثون بحاراً متحفظ عليهم كرهائن لحين دفع الفدية أو الوصول إلى حل يفك احتباسهم ويعتقهم من حياة العبودية لمجموعة من المارقين على القانون الذين يعيثون فى البحر ويبددون أمان الملاحة .

بعد نحو عشرة أيام عاشها البحارة على متن كلا المركبين فى جو إرهابى غامض ملىء بالقلق والتوتر والخوف وتوقع الموت فى أى لحظة نتيجة طلقة طائشة أو متعمدة ، فوجىء البحارة بإعلاميين – على ما بدت شاكلتهم – يأتون إليهم ومعهم كاميرا تصوير تليفزيونية ، وصعدوا إلى المركب " ممتاز ١ " وفيها طلب القراصنة من البحارة أن يتحدثوا إليهم ويقولوا أنه تم ضبطهم أثناء صيدهم الأسماك فى المياه الإقليمية أمام سواحل بونت لاند ، وقد امتثلوا لأوامر فرضت عليهم بقوة السلاح واعترفوا زوراً على أنفسهم . وتم تصوير أحمد حسن خليل كابتن المركب وهو يحمل الشباك .. كأداة اتهام . وظهرت هذه اللقطات فى وسائل الإعلام وعلى شبكة المعلومات الدولية " الإنترنت " ، وهى محاولة ساذجة أراد بها القراصنة أن ينفوا عن أنفسهم تهمة الإجرام وأعمال العنف ، وأن يظهروا بصورة الوطنيين الذين يحمون شواطئهم من طمع الغير ، وكأنه منوط بهم حماية الحدود نيابة عن الحكومة التى يرون سعادتهم فى قوتها وتسيير أمور بونت لاند بعيداً عن الصومال الذى انفصلوا عنه .. ولكن هذا الاعتراف المغلوط ، وهذه الصور الخادعة ، وتلكم التمثيلية الملفقة لم تنطل على الرأى العام العالمى الذى أصبح يدرك جلياً ماهية هؤلاء القراصنة ويحفظ سجلهم الإجرامى .

وليس أدل على ذلك من طلب القراصنة بعد هذا التمهيد الإعلامى لفدية مقدارها خمسة ملايين دولار مقابل إطلاق سراح مركبى الصيد والبحارة وكأنهم كانوا يصطادون اللؤلؤ من سواحلهم .

لقد قدروا وقرروا فيما بينهم وبين أنفسهم أن يتقاضوا مبلغاً مالياً مقداره خمسة ملايين دولار مقابل الإفراج عن الغنيمة المصرية : البحارة والمركبين وإلا فمصير البحارة القتل . والمركبين الحرق .

لم يكن – بطبيعة الحال – من حق هؤلاء القراصنة تقاضى مليماً واحداً مقابل الإفراج عن البحارة والمركبين . بل لم يكن أصلاً من حقهم التعرض لهم وإرهابهم واختطافهم من المياه الدولية إلى سواحلهم . ثم إن هذا سلوك يجب أن يعاقبوا عليه لأنه خروج على الشرعية . وهو يهدد أمن الدول ويعرض ممتلكاتها للسطو ومواطنيها للقتل . وإن كان ولابد من الدفع فليدفع هؤلاء المجرمون ثمن جرمهم ومقابل احتجاز البحارة وقيمة تعطل المركبين وربما تلفهما . ولكننا مع سابق هذه الرؤى .. لسنا فى مجال احتكام أو مجلس قضاء حتى نثبت براءة أو نعلن إدانة ، وعلينا فقط أن ننشغل بما انتهى إليه رأى القراصنة ، والمفترض أن نرضخ لمطلبهم مثلما رضخت معظم دول العالم .. حفاظاً على الأنفس أولاً ، وعلى الممتلكات ثانياً ، وهذا بالطبع يتطلب الدخول مع القراصنة فى مفاوضات يكون الغرض منها تخفيض المبلغ .. ثم التسليم بالدفع درءاً للمخاطر .

على أنه تجدر الإشارة إلى أنه ومنذ بدء اليوم الأول لرسو المركبين على سواحل لاس كورى ، والبحارة على كلا المركبين تكتنفهم حالة من

الغضب واللا رضا ويفكرون فى عملية هجوم على القراصنة يفكون بها أسرهم ، وكثيراً ما فكروا فى الانقضاض على القراصنة وخطف أسلحتهم وشل حركتهم والعودة بهم . وكثيراً ما كانت الأوقات مناسبة لمباغتة القراصنة بهذه العملية ، وقد رأى البحارة فى نفوسهم المقدرة على القيام بهذا العمل البطولى واستشعروا أنهم يملكون عوامل نجاحه . إلا أن إحكام العقل كان يمنع القيام بمثل هذه المحاولات ، لأنه أولاً لم يكن هناك اتصال بين بحارة المركبين للقيام بهذه العملية فى وقت واحد على ظهر المركبين ، وهو ما يتحتم الالتزام به ، لأن قيام بحارة أحد المركبين منفردين بهذه العملية يعنى التنكيل ببحارة المركب الآخر والدخول فى حسبة معقدة . وحتى فى حالة التوافق بين المركبين والاتفاق على القيام بهذه العملية .. وعلى فرض نجاح البحارة فى تقييد القراصنة وفك حصار أنفسهم والعودة بالمركبين سينطلق القراصنة الأخر وراءهم على الفور باللنش الإيطالى الواقف على أهبة الاستعداد وسيصلون إليهم مهما ابتعدوا . لأن اللنش الإيطالى يستطيع السير بسرعة ٣٠ ميلاً بحرياً فى الساعة . أما سرعة مركب الصيد فلا تزيد عن الثمانية ، فضلاً عن وجود حراسة أخرى على الساحل ستنشط فى الاتصال بباقى القراصنة وسيجرى اتخاذ كافة تدابير ملاحقة المركبين الهاربين بعملية من المؤكد أنهم سيستعدون لها جيداً خاصة وأنهم سيكونون على يقين أن بحارة مركبى الصيد أصبحوا مسلحين بأسلحة القراصنة الموجودين معهم .. بما يعنى نشوب معركة شرسة فى البحر، معركة غير محسومة .. بل قد تميل أكثر لصالح القراصنة نظراً

لهجومهم بلنشات صغيرة الحجم يصعب التصويب عليها وإصابتها بينما تعد مركب الصيد بحجمها الكبير هدفاً سهلاً تناله الطلقات والقنابل ، وتفادياً لهذه المعركة ، وجدوا بخبرتهم وبالحساب وعلى ضوء الإمكانات المتوافرة لهم والإمكانات الأكثر وفرة للقراصنة ، أنهم لكى يأمنوا عدم اللحاق بهم يجب ألا يتعقبهم أحد قبل ٤٨ ساعة يدخلون خلالها إلى المياه الإقليمية لدولة قريبة فيلوذون بحمايتها ، أو يكونون قد ابتعدوا فى المياه الدولية كثيراً عن مناطق نفوذ القراصنة . ومن المستحيل بطبيعة الحال أن يتركهم القراصنة طوال هذا الوقت دون ملاحقة ، وكلها أمور لا تحسم أى فكرة للخلاص من حوزتهم ، وتحبط أى محاولة ينفث بها البحارة عما يستشعرونه من كبت ويعتلى نفوسهم من ضيق .

لقد كانت عملية القرصنة على المركبين عملاً إجرامياً أطبق على صدور البحارة منذ اللحظة الأولى ، جاء فى سياقها المعاملة السيئة من القراصنة ، وفرض الأوامر على البحارة بالسلاح الذى أسرفوا فى استخدامه لدرجة أن البحارة كانوا يستشعرون الموت فى كل لحظة . وعند رسو المركبين على سواحلهم كانت معاملة القراصنة الجدد الذين حلوا محل الأول أكثر إساءة .. فقد كان فى أسلوبهم غلظة أشد . وأخيراً يأتى المبلغ التعجيزى الذى طلبوه على سبيل الفدية لإطلاق سراح البحارة والمركبين ، والتهديد بحرق المركبين وقتل البحارة فى حالة عدم الدفع .. وجميعها أمور خانقة من شأنها تأليب النفوس . ولكنه ليس من العقل فى شىء ، القيام بعملية تنجح فى بدايتها ثم تفشل بعد ذلك وتكون الطامة أكبر .. والعبرة دائماً بخواتيم الأعمال . نقول ذلك على

خلفية هامة يرى فيها كابتن كل مركب أن أهم مهامه فى مرحلة الأسر هذه .. الحفاظ على حياة البحارة ، والعودة بهم سالمين ، وأن يجنبهم ما استطاع .. البعد عن الاحتكاك بالقراصنة ، والبعد عن أى عمل يعرضهم للخطر . إنها مسئولية القائد والراعى والعاقل . إذن ليس أفضل من التحلى بالصبر مرحلياً فى هذا الوقت ، ولنشهد وقائع مفاوضات دفع الفدية وما سوف تسفر عنه .

ونعود :

أعلن القراصنة لبحارة المركبين أنهم يريدون خمسة ملايين دولار مقابل إطلاق سراحهم وتركهم يعودون بالمركبين .. وقام أحدهم واسمه " يوسف أبو على " وهو يجيد التحدث بالعربية ، بطلب الحاج سمارة نصر باعتباره صاحب أحد المركبين ليخبره بالمبلغ الذى يريدونه فدية ، ورد عليه الحاج سمارة بهدوء وتودد .. مستنكراً الطلب ، فأعاد عليه " يوسف أبو على " الكلام بلهجة قاطعة آمرة بأنهم يريدون خمسة ملايين دولار وإلا سيحرقون المركبين ويقتلون البحارة . وعندما راح الحاج سمارة يستعطفه باسم الإسلام والعروبة والإنسانية .. أغلق القرصان التليفون منهياً المكالمة من جانبه !

بعد هذه البداية المفزعة طلب القراصنة من كابتن كل مركب أن يتحدث مع صاحبها فى شأن دفع الفدية ، وأن يذكر له أنهم مهددون بالقتل فى حالة عدم الدفع ، وأن المراكب ستحرق .. فتحدث أحمد نصر كابتن المركب " أحمد سمارة " مع ابن عمه الحاج سمارة نصر صاحب

المركب ، وتحدث أحمد حسن خليل كابتن المركب " ممتاز ١ " مع والده الشيخ حسن خليل صاحب المركب ، وقالا لهما أنهما مع سائر البحارة سيقتلون إذا لم يدفعا الفدية المطلوبة .. وناشداهما بسرعة تلبية الطلب والاستجابة فى أسرع وقت . وكانت هذه الكلمات .. بناءً على أوامر القراصنة الذين كانوا يقفون أمامهم وهم يتحدثون ، ويصوبون أسلحتهم فى رؤوسهم !!

وفى خطوة تالية طلب القراصنة من كافة البحارة أن يحادثوا أهلهم فى أمر الفدية ويطلبوا منهم دفعها على وجه السرعة حفاظاً على حياتهم .. واتصل البحارة بذويهم وطلبوا منهم أن يجمعوا المال بأى طريقة وبأى وسيلة وأن يخاطبوا الجهات الإعلامية والحكومة فى ذلك ، وأن تكون هناك تعبئة شعبية ورسمية واهتمام عام لجمع هذا المبلغ وإرساله فى أقرب وقت .. وإلا فسيقتلون . وكان البحارة يتحدثون مع أهلهم بجدية ورعب لأنها الأوامر التى تعضدها قوة السلاح المصوب تجاه رؤوسهم .. وكان القراصنة يجعلون كل هذه الاتصالات تتم من خلال التليفون الثريا المستولى عليه من كل مركب .

لم يكن المبلغ المطلوب هيناً يمكن تدبيره وإرساله حلاً لهذه المشكلة المؤرقة . ولكنه كان مبلغاً كبيراً يفوق ثمن المركبين . ولا شك أن القراصنة يدركون ذلك جيداً ، ولكنهم خلاف قيمة المركبين .. هناك خمسة وثلاثون بحاراً أصبحوا مهددين بالتصفية ما لم يستجب أهلهم فى مصر ويرسلوا لهم الفدية . هكذا وصلت رسالة الصومال !

وكان من الطبيعى أن تسود حالة من القلق بين أُسر وعائلات البحارة ، وأن يعم الكرب أرجاء عزبة البرج وسائر بليدات الصيادين المحتجزين ، وقد نُقل الخبر عبر الصحف وأُذيع فى مختلف وسائل الإعلام المسموع والمرئى وأصبح حديث الساعة .

ومرت الأيام ثقيلة كئيبة لا تُعرف خباياها . فالمبلغ المادى المطلوب كفدية فوق طاقة صاحبى المركبين .. لا يستطيعانه بحال ، وأيسر لهما كما ذكرا فى وسائل الإعلام المختلفة إبان ذلك أن يتركا المركبين للقراصنة على أن يترك القراصنة البحارة يعودون بسلام . ولكن القراصنة لهم رأى آخر : فهم لا يريدون إلا المال فلا المراكب تلزمهم ولا البحارة تعنيهم . ولكن الذى يضمن لهم المال هو التحفظ على البحارة والتهديد بقتلهم .

ومضت الأيام لا تسفر عن شيء ولا تفضى إلى شيء . والقراصنة ما انفك يطلبون المال ويستعجلون وصوله ، ويضغطون على البحارة ويرهبونهم ليؤثروا على أهلهم فى مصر . وتتوالى المكالمات والصرخات والاستغاثات .. ولا جديد .

وذات يوم .. وفى طليعة نهار أغبر ، أفرغ القراصنة ما فى جعابهم من زهق وغل وقالوا للبحارة .. " لن نظل إلى جانبكم هكذا .. لا نرى استجابة ، أمامكم ثلاثة أيام فقط لدفع الفدية . وإلا سنقتلكم ونستريح منكم لنرى أحوالنا المعطلة بسببكم " .

ووقع الخبر على كافة البحارة وقوع الصاعقة . ففى ظل ما يراه

البحارة فى سلوك القراصنة من عنف وشراسة وعدم تحفظ .. كان لابد أن يصدقوا هذا التهديد .

وأعطى القراصنة لجميع البحارة فرصة التحدث مع الأهل . وتحدث جميع البحارة مع ذويهم ينقلون إليهم الخبر المشئوم . ويستعطفونهم فى التحرك ويستغيثون ويصرخون ويعاتبون ويعيدون القول " سيقتلوننا بعد ثلاثة أيام إذا لم تدفعوا لهم الفدية . ويهرول الأهالى إلى الحاج سمارة نصر والشيخ حسن خليل مذعورين ، وينقلون لهما ما يسمعون ، ويستفسرون منهما عما سوف يتم ، ويبدون قلقهم ومخاوفهم مما قد يحدث للبحارة . كانت النساء تصرخ والأطفال تبكى والحاج سمارة نفسه حزين على أبناء عمه الثلاثة والشيخ حسن خليل أكثر حزناً على ابنيه . والطلب لا قِبل لهما به ، والمشكلة لا حيلة لهما فيها . ثم إنهم فى النهاية لا يجدان من يعاونهما فى حل هذه المشكلة . لقد حاولا الاستدانة فباءت كل المحاولات بالفشل . فقد كان الجميع وقد علموا ضخامة المبلغ المطلوب لا يجدون أنفسهم قادرين على المساهمة بشكل مؤثر فى تلبية الطلب فينسحبون ! ويبتهل الحاج سمارة نصر والشيخ حسن خليل إلى الله يدعوانه أن يقف إلى جوارهما فى حل هذه المشكلة التى تورطا فيها دون ذنب اقترفاه ، ويدعوان الله أن يخيب رجاء هؤلاء القراصنة المجرمين الذين أوجدوا لهما تلك المشكلة التى تنغص عليهما حياتهما . وقد يدفعان أرواح أبنائهما وأقاربهما وسائر البحارة ثمناً لها .

ويسأل البحارة على كلا المركبين الكابتن ومساعده عما إذا كانت قد وردت أخبار تفيد بشيء . فلا يجدان عندهما إجابة . ولكنهما بدورهما

يسألان نظيريهما على المركب الآخر فلا يجدان إفادة . ويسأل الكابتن أو مساعده فى كلا المركبين القراصنة عما إذا كانت قد جاءتهم استجابة فيقولون " لا شىء " يقولونها وقد بدا تماماً أنهم أصبحوا فى ضيق منهم. فهم بذلك يعطلونهم ويؤخرونهم عن الدخول فى " شُغل " جديد . وتزداد المخاوف وتتأزم النفوس ، وتمر الأيام الثلاثة التى منحها القراصنة مهلة لدفع الفدية دون الوصول إلى حل . ويأخذون مهلة إضافية ليوم واحد .. يمر هو الآخر دون جديد ، وينتظر القراصنة أكثر ثم يفيقون ويعنفون البحارة ويطلقون النيران من أسلحتهم المختلفة تجاههم فتصيب أو تخيب .. لا شىء يهم ، ويسرفون فى إطلاق النار ، ويتشددون فى المعاملة ثم يمنحونهم مهلة ليومين " كاملين " يقتلونهم بعدها إذا لم تأت استجابة خلالهما . ويمضى اليومان كسابق الأيام .. فلا حل ولا بادرة أمل فى حل . وينتظرون .. ويفاجئهم أحد القراصنة وكأنه يفضى إليهم سراً بأنهم سيقتلونهم جميعا فى الغد بسبب ضيق زعماء القراصنة ونفاد صبرهم من عدم استجابة أهلهم الذين بدوا وكأن البحارة لا يهمونهم فى شىء فوق أنه لا اهتمام أصلاً بهؤلاء الزعماء الصوماليين .. وهذه إهانة ليس كمثلها إهانة . وبشكل أو بآخر انتقل الخبر من مركب إلى الآخر ، ويبيت البحارة ليلتهم فى ذعر ورعب ونكد وكدر وخوف وحسرة يتلمسون الصباح ويترقبون حركات القراصنة انتظاراً للتصفية التى باتت وشيكة بين فينة وأخرى .

ويأتى الصباح باهتاً رتيباً على نفوس مرتجفة انقطعت بها السبل والحيل . وفى تودد يسعى الكابتن أحمد نصر إلى القراصنة وفى انكسار

واستجداء يقول لهم نحن مسلمون مثلكم .. نحن جميعاً نقول لا إله إلا الله . وقبل أن يكمل كلامه يقاطعه القراصنة بقولهم " المال . المال . لا نريد إلا المال . المال ديننا " . ويقطعون بهذه المقولة كل حديث يوجه إليهم ، وينهون كل حوار . ويمضى اليوم .. وفى غضونه يتسرب إليهم خبر جديد من أحد القراصنة يفيد بأن تصفية البحارة ستكون على مراحل . وستبدأ بقتل الكابتن ومساعده فى كلا المركبين ، ثم يتوالى تباعاً قتل البحارة طالما لا تأتى استجابة . وعلى هذه الشاكلة تمر بعض الأيام .. حزينة كئيبة .

وفجأة يعترى البحارة خوف وفزع وحسرة ولوعة وإحساس صادق بدنو الأجل . وأن القراصنة سينفذون لا محال ما كانوا يهددون به . فما الذى رآه البحارة ونقل إليهم هذا الإحساس الكئيب ؟ كانت هناك حركة غير عادية على البر أسفرت عن ورود عدة صناديق ذخيرة تم نقلها على الفور إلى ظهر المركبين لتوضع بجوار القراصنة رهن الاستخدام !؟

وتلبدت النفوس بالرهبة . فقد أوشكت الواقعة أن تقع وأن ينتهى الأمر بتلك المأساة التى طالما نبه القراصنة إليها . ومن ذا الذى يراجعهم فيما يرونه ؟ لقد اتضح جلياً أن القراصنة بدأوا يستعدون بل كاد أن يبدأوا عملياتهم الإجرامية بالتصفية الجسدية التى أعلنوا أو تنامى إلى أسماع البحارة أنها ستبدأ بقتل الكابتن ومساعده فى كلا المركبين . ثم يأتون على البحارة بعد ذلك . إذن لم يعد لكم أيها البحارة من ناصر،

وقد انتهى وقت الكلام وسيبدأ الفعل والتنفيذ . وياللبشاعة .. تتخذ الإجراءات على مرأى من الضحايا !

فى المقابل يعيش الأهلين فى مصر حياة معقدة لا بصيص فيها من أمل ، ويعيش صاحبا المركبين المشكلة بين شقين كلاهما مر . يتمثل الأول فى طلب القراصنة لفدية مُبالغ فيها .. والتهديد بقتل البحارة وحرق المركبين إذا لم يجدوا استجابة ، بينما يتمثل الآخر فى قلق الأهالى الذين يرعبهم ما يتوارد إليهم من البحارة .. وتقلقهم حياة الضنك التى يعيشونها فى ظل غياب العوائل . وعليهما التصريح علانية بقول فصل لما يرتآنه حلاً لهذه المعضلة حتى تستقيم الأمور وتطمئن الأسر المذعورة .

أين الحل؟

أغرب رحلة صيد

كان من الذكاء أن رأى الحاج سمارة نصر والشيخ حسن خليل أن يقسما العمل فيما بينهما ، فيتفرغ الحاج سمارة للشق الخارجي ويبحث في موضوع القراصنة ويحاول الوصول إلى حل ، بينما يتولى الشيخ حسن خليل موضوع تهدئة الأجواء واسترضاء الأهالي لتوفير المناخ المناسب للتحرك في هذه الأزمة ، والطريف أن كلاً منهما كان مهيأ لما خُصص له . فقد كان الشيخ حسن خليل " ٦٢ عاماً " رجلاً وقوراً يطلق لحيته .. ويتميز بالهدوء والمصداقية وله احترامه عند الآخرين ولهذا كان مؤثراً في تهدئة المواطنين وطمأنتهم . وكان الحاج سمارة نصر "٤٠ عاماً " رجلاً متفتحاً يتميز برجاحة العقل ويعرف كيف يسعى إلى هدفه .

وفي إشارة إلى الدور الذى تولاه كل منهما نقول أنه لم يكن التعامل مع العائلات الكلمى أمراً هيناً . ولم يكن الغائبون قلة يمكن احتواء ذويهم . لقد بات على الشيخ حسن خليل أن يستقبل وفوداً تمثل نحو ثلاثين صياداً يمثلون العون والمدد لأهلهم ، وقد وفدت هذه الأُسر من مناطق عدة ، وبثقافات مختلفة وأخلاقيات متباينة للاستفسار عن الغائبين والإعلان عن حوائجهم .

كانت الوفود تضم رجالاً من مختلف الأعمار السنية ونساءً وأطفالاً . وكان على الشيخ حسن خليل أن يستقبلهم في أى وقت يجيئون . ولبيان

حجم المعاناة يكفى القول أن كانت بعض هذه الوفود تأتى فى الصباح الباكر إلى منزل الشيخ حسن خليل ويعلنون عن مجيئهم بالصراخ .. فكانت النساء تولول وتلطم الخدود ، والرجال ينادون ويصرخون ، والأطفال يبكون ، فينهض الشيخ حسن من نومه مذعوراً لاستقبال الزائرين . وعليه أن يهدئهم ويلاطفهم ويطمئنهم ويجيب عن كافة أسئلتهم ويودعهم بالابتسام ومداعبة الصغار . وربما قبل أن يغادروا يأتى وفد آخر مماثل .

وتتكرر زيارات الوفود ليل نهار لا تنقطع البتة .. والشيخ حسن خليل نفسه يعيش معاناة هؤلاء الأهل وزيادة ، فله ابنان ضمن الرهائن المختطفة ، وله مركب كان يسترزق منه ، ولكن الأهالى الوافدة تتناسى كل ذلك ويعاتبونه ويؤنبونه أنه ترك البحارة ولا يسأل .. وأنهم بدونهم يعيشون حياة الكفاف . وعلى أثر توافد أهالى البحارة الغائبين والحوارات معهم ، يعيش الشيخ حسن ضغوطاً نفسية شديدة .

ولكن .. ماذا عن الحاج سمارة الذى تولى الشق الخارجى للمشكلة ، والمأمول فيه الوصول إلى حل لاسترجاع البحارة والمركبين من الأسر الصومالى ؟

منذ اللحظات الأولى لبدء الاستيلاء على المركبين ، لجأ سمارة نصر إلى شبكة المعلومات الدولية " الإنترنت " يستقى منها معلومات عن هؤلاء القراصنة قد تكون عوناً له فى الوصول إلى حل لهذه المشكلة . وبالفعل أحيط علماً بماهية هؤلاء القراصنة . فهم عبارة عن فئة ضالة

من شباب مواطنى بونت لاند استمرأوا أعمال القرصنة لما تدره عليهم من دخل كبير ، والكثيرون منهم بدأوا نشاطهم كقطاع طرق فى إقليمهم وكانوا يقيمون الحواجز على الطرق لإجبار الناس على دفع الإتاوات . ثم انتظموا فى فرق نشطت فى البحر وانتهجت القرصنة . فالأصل فى الموضوع السرقة والسلب والنهب . إنهم عبدة مال ، ولا يهمهم إلا المال ، أما الإنسانية والقيم والمبادئ والأخلاق والدين والأعراف والقوانين والشرعية ومثل هذه المفردات فلا مكان لها عندهم . هؤلاء لصوص يسرقون جبراً وكُرهاً ، ولا أدب عندهم ولا خجل ولا احترام ولا تجاوب ولا فهم ولا استيعاب ولا رحمة ولا شيء إلا أن تدفع لهم الفدية ويتركون لك رجالك وممتلكاتك . إنهم لصوص .. أسوأ أنواع اللصوص .

والغريب أن بعض قبائل بونت لاند غير راضية عن نشاط هؤلاء المارقين ولكنهم لا يحركون ساكناً .

أيضاً توجد منظمة تطلق على نفسها اسم " حركة الشباب الإسلامية " وتعتبر أشد المنظمات مناوءة لهؤلاء القراصنة . ولكن لا يتعدى نشاطها الشجب والاستنكار وعدم الرضا عن هذا السلوك الإجرامى . فلا أحد يواجه هؤلاء القراصنة فعلياً ويقضى على بؤرهم أو على الأقل يوقف نشاطهم الذى يتمادى ويتنامى ويتسع لمساحات أكبر فى خليج عدن ووصل إلى المياه الدولية وإلى القرب من المياه الإقليمية لدول الجوار ، بل وراح يزحف إلى المحيط الهندى جنوباً والبحر الأحمر شمالاً ويستخدمون لذلك لنشات سريعة وأسلحة حديثة وراحوا يستخدمون

مراكب كبيرة تحملهم ومعداتهم وقواربهم إلى المناطق البعيدة فيتخفون فيها لحين التقاط فرائسهم من السفن العابرة .

والقراصنة الذين هم أعداء العالم كله ، ليسوا بالضرورة كذلك لمواطنى الصومال من جراء ما ينفقونه ببذخ عليهم ، فهم يوزعون المال على عائلاتهم وأصدقائهم ، بل إن لهم علاقة مع بعض الفصائل الإسلامية المناوئة لهم .. حتى أنه يمكن القول أن بعض هذه الفصائل الإسلامية المتشددة تعتمد على القراصنة فى توفير المال اللازم لشراء السلاح الذى يستخدمونه فى بسط نفوذهم داخل الأقاليم الصومالية . فالحركة الإسلامية فى الصومال انقسمت إلى ست أو سبع فرق مختلفة لكل منها مشاكلها الخاصة فى الحصول على التمويل . وغير هذا فهناك علاقة قد نشأت بين القراصنة وبعض المسئولين فى حكومة بونت لاند ، حيث راحوا يقدمون لهم الرشاوى مقابل السماح باستخدام ميناء إيل وغيره كقواعد لانطلاق أعمالهم . إذن لقد استقطبوا الجميع من حولهم !

والمعلومات على شبكة الإنترنت متوافرة وكثيرة ومتشعبة وغريبة ومتوافقة ومتضاربة . تذكر بالأمثلة وتحكى بالأرقام وتحدد بالأسماء وتدل بالعنوان ولكنها جميعاً لا تؤدى إلى حل . أو حتى تجعلك تمسك بخيط يودى بك إلى حل . إنها مجرد حكايات " حصلت " فى تاريخ " مضى " تعرف منه كُنه الحاضر وآفاق المستقبل .

وتبقى المشكلة ..

مشكلة احتجاز المركبين " أحمد سمارة " و " ممتاز ١ " وعليهما خمسة وثلاثون بحاراً .. والمطلوب لفض الاحتجاز مبلغ قدره خمسة ملايين دولار . ولكن الحاج سمارة لا يكل ولا يمل . ولا يدخر جهداً فى السعى والتنقيب من أجل إيجاد حل لهذه المشكلة المباغتة والتى كان فى غنى عنها . كما كان الشيخ حسن وأهالى عزبة البرج وكفر حميدو والروضة وأيضاً المطرية دقهلية وبرج البرلس – كفر الشيخ .. بل كانت مصر كلها فى غنى عن هذه المشكلة التى طرأت وشغلت الرأى العام والإعلام .

ويبقى أن يعاود إشراك المسئولين فى مشكلته . إنها مشكلة قومية حتى وإن بدت إقليمية أو شخصية . وعلى هذا وافقه الشيخ حسن خليل الذى لا يحب أن يعدم وسيلة للحل ، وقد رأيا أن تكون البداية بلقاء الأستاذ ياسر الديب أحد أبناء المنطقة المهتمين بشئونها والنائب السابق بمجلس الشعب لأخذ مشورته فى تصعيد المشكلة إلى المسئولين أو إن شئت تصدير المشكلة إلى المسئولين ، فالأيام تمر ومعاناة الصيادين تتفاقم والطعام الذى كان معهم أوشك على النفاد والأمور تتأزم .. ولا قِبل لهما بالحل .

وبالفعل قابلا الأستاذ ياسر الديب الذى وافقهما على أهمية هذه الخطوة لتوسعة الاهتمام بالمشكلة . وفى مثل هذه الأمور .. عندما يريد المتضرر أن يقابل مسئولاً حكومياً فلابد أن أول من يفكر فيه هو محافظ الإقليم .. باعتباره ممثل الحكومة فى المحافظة . وعلى هذا اتفقت الآراء . وتوجه الأستاذ ياسر الديب إلى الدكتور محمد فتحى البرادعى

محافظ دمياط ، وأفضى إليه برغبة صاحبى مركبى الصيد المحتجزين فى الصومال .. فى لقائه . وبدون تردد وافق المحافظ أن يستقبلهما فى مكتبه متى شاءوا . بل أعلن عن رغبته فى ذلك .

واتصل الأستاذ ياسر الديب بصاحبى المركبين يبلغهما بذلك . وفى نفس اليوم توجه الشيخ حسن خليل والحاج سمارة نصر برفقة الأستاذ ياسر الديب وقابلوا الدكتور محمد فتحى البرادعى محافظ دمياط ، وعرضوا عليه المشكلة ، وكل ما يتعلق بها من أمور وأبعاد .. وكان المحافظ ودوداً للغاية ، وأنصت تماماً إلى كل ما قيل . ثم تحدث معهم يطمئنهم بأن هذه المشكلة لا تخصهم وحدهم .. ولا حتى كل أهالى البحارة على المركبين . ولكنها مشكلة دولة . وأن الدولة ليست بمنأى عن أفرادها . وأن أجهزتها المعنية تسعى فى حل المشكلة .. وستجد الإنفراجة إن عاجلاً أو آجلاً دون أن يضار أحد .

كان– ثلاثتهم – ينصتون إلى المحافظ باهتمام . وقد أسعدتهم كلماته خاصة أن محافظ دمياط الدكتور محمد فتحى البرادعى يتمتع بمصداقية كبيرة لدى مواطنى المحافظة . ثم إنه فوق ما قال أضاف لهم أن هذه المشكلة تلقى اهتمام القيادة السياسية العليا . وأنها حالياً إحدى أهم شواغل وزارة الخارجية ووزارة الدفاع وجهاز الأمن القومى !

على هذه الخلفية المطمئنة خرج صاحبا المركبين من لقاء المحافظ بشحنة معنوية دافعة ، وآمالاً عريضة فى انفراج الأزمة .. فهم شأنهم شأن كل أبناء دمياط يثقون فى محافظهم ويعرفون أن كلماته صادقة ولا تأتى على سبيل الترضية وجبر الخواطر وإبداء التعاطف . ولابد أنه

يعرف أن مشكلة احتجاز مركبين مصريين لدى قراصنة الصومال لم تنته . ولم تعدم الدولة فيها حلاً حتى وإن عجز رئيس الصومال نفسه عن إيجاد حل لها .

هى إذن مسألة وقت . مسألة صبر . ولكن وفود الأهالى لا تنقطع عن المجيء من كل مكان .. تسأل وتستفسر وتحتج .. فلم يزل القلق يعترى الجميع .. واللهفة واللوعة والحسرة والحيرة .

ورغم عدم تواجدهما معاً بشكل مرصود إلا أن خط الاتصال بين الحاج سمارة نصر والشيخ حسن خليل كان متواصلاً لا ينقطع .. يخبر كلاهما الآخر بما عنده أو بما يراه . كما كانت الاتصالات المتتالية لبحارة المركبين ، يحكون فيها ظروفهم الصعبة ويصفون أجواء الإرهاب التى يعيشونها وضرورة التصرف بشكل عاجل حفاظاً على أرواحهم .. وعلى المركبين . وهى بالطبع مكالمات تتم بأوامر القراصنة وتحت أسماعهم وأبصارهم . وحيث أن مبلغ الخلاص المطلوب كان فوق طاقة صاحبى المركبين ، وامتداداً للاتجاه إلى مقابلة المسئولين ، فقد اتفقا أن يذهبا إلى السفير الصومالى فى القاهرة لعرض المشكلة عليه وطلب تدخله لحل المشكلة سواء ودياً أو رسمياً أو على أى شاكلة يرتآها .

وبالفعل سافر الحاج سمارة نصر والشيخ حسن خليل إلى القاهرة وتوجها إلى السفارة الصومالية وقابلا السفير وعرضا عليه المشكلة واستنكرا فى ثنايا الحديث أن يأتى هذا السلوك ضد مواطنى مصر من مواطنى دولة أفريقية عربية مسلمة صديقة ، ونقلا إليه رغبتهما فى

ضرورة اتصاله ببلاده للإفراج عن البحارة والمركبين .

ولكنهما للأسف لم يجدا عنده استجابة لما يطلبان ، بل ورفض أن يعد بشيء ، وكان من الممكن أن يلتمسا له العذر ، ويرجعا ذلك إلى قلة حيلته وعدم سيطرة بلاده على إقليم بونت لاند الذى انفصل عن الصومال ومنح نفسه حكماً ذاتياً ، إلا أنهما استشعرا شيئاً غريباً لفت أنظارهما . لقد كان السفير الصومالى يتحدث عن القراصنة دون أن تظهر عليه علامات الأسى أو الخجل لما يفعلونه . بل على العكس لاحظا افتخاره وقد راح يحادثهم عن قوة القراصنة وسطوتهم وجرأتهم وتسلحهم وإمكاناتهم وكأنه يخيفهما منهم أو يحثهما على الرضوخ لهم . وهنا سأله الحاج سمارة نصر : هل يستطيع الوزير عبدالله أحمد جامع أن يحل هذه المشكلة ؟ وعلى الفور أجاب السفير : طبعاً ، وبكل تأكيد فهو وزير الداخلية فى بونت لاند وله سلطة عليهم . فبادره الحاج سمارة نصر قائلاً : إذن .. اتصل به واطلب منه ذلك ، ورد السفير سريعاً : ليس معى رقمه !

وقد بدا جلياً أن التمادى بعد ذلك فى الحديث أو إطالة الحوار لأكثر من ذلك يُعد مضيعة للوقت . فانصرفا بكل أسى .. وأسف ، وبينما كان السفير يودعهما .. كان يدعو الله أن يفرج كربهما !

وعاد الصديقان إلى دمياط بدون فائدة تذكر . وتمر الأيام لا تسفر عن شيء ولا تنبئ عن شيء .

وذات يوم .. وبينما كان الحاج سمارة نصر يفكر فى المشكلة ..

تذكر شيئاً لا يعرف كيف غاب عن ذهنه طوال الفترة الماضية .. ومنذ أن وقعت هذه الأزمة . لقد تذكر أن القراصنة الصوماليين سبق أن احتجزوا مركباً مصرياً ، وتم الإفراج عنه بعد دفع مبلغ الفدية . كان اسم هذا المركب blue star والمعلومات الخاصة بهذه الواقعة موجودة على شبكة الإنترنت . ولا شك أن الاتصال بصاحب هذا المركب ومخاطبته .. سيكون مفيداً فى حل المشكلة .. وبالعودة إلى شبكة الإنترنت وجد أن المركب المصرى مملوك لإحدى الشركات الملاحية المصرية واسمها شركة البحر الأحمر . واستطاع الحاج سمارة نصر أن يحصل على رقم تليفون رئيس مجلس إدارة الشركة واتصل به وحكى له مشكلته التى أصبحت مشاعاً وعرف بها الدانى والقاصى ، وطلب منه المشورة على ضوء خبرته فى التعامل مع هؤلاء القراصنة . وكان من الطبيعى أن يكون أول سؤال يسأله الحاج سمارة نصر عما عساه يفعله القراصنة مع البحارة فى ظل التأخر عن دفع الفدية وتهديدهم لهم بالقتل .

وكانت الإجابة مفاجأة ..

لقد قال له صاحب الشركة أنه ليس من مبدأ هؤلاء القراصنة أن يقتلوا أحداً أو يحرقوا المراكب . طالما لم تحدث مناوشات من البحارة ، وكل ما يريدونه .. المال .

كما قال له صاحب الشركة أنه دفع ٦٠٠ ألف دولار فدية لمركبه لأنه كان سفينة تجارية ضخمة يتكون طاقمها من ٢٨ فرداً وتحمل ستة

آلاف طن يوريا . فأراد أن يضحى بالمال ويأتى بالمركب قبل أن تتفاقم المشكلة ، ولكنه عاد وقال له أن مراكب الصيد صغيرة نسبياً وليست فى حجم أو قيمة المراكب التجارية . ومعنى ذلك أنه من الممكن أن تكون هناك مفاوضات ويتم النزول بالرقم لأقل من الستمائة ألف دولار التى دُفعت فدية للمركب التجارى blue star . وقد استراح الحاج سمارة نصر تماماً لهذه المكالمة التى طمأنته على حياة البحارة . ومن الطريف أنه بعد هذه المكالمة مباشرة اتصل القرصان يوسف أبو على الذى يجيد التحدث بالعربية بالحاج سمارة نصر وفى لهجة آمرة سأله لماذا لا تدفعون الفدية ؟ سنقتل البحارة ونحرق المركبين . وعلى الفور رد عليه الحاج سمارة نصر قائلاً " اقتل واحرق " !

قالها وهو على يقين بأنهم لن يقتلوا ولن يحرقوا . فهذا ليس مبدأهم كما فهم من صاحب الشركة الملاحية الذى تحدث معه وأخبره أن القراصنة لا يريدون إلا المال ، والقتل والحرق يعدم لهم هذه الفرصة . وقد استغل الحاج سمارة نصر هذه المعلومة فى أن يكون مفاوضاً قوياً معهم وأن يرد عليهم بعنف ولا يشعرهم بأنه خائف منهم أو راضخ لهم .

وبالفعل كان لرد الحاج سمارة نصر عليهم أثره فى الحد من العصبية التى كان القرصان يوسف أبو على يتحدث بها . وبدأ القراصنة يتنازلون عن المبلغ الضخم الذى كانوا يطلبونه " خمسة ملايين دولار " وقالوا أنهم يريدون أربعة ملايين فقط ، ثم نزلوا بالمبلغ إلى ثلاثة ملايين فقط ، ثم خفضوه إلى مليونين وأخيراً طلبوا مليوناً واحداً . وكان الحاج سمارة يتشاور مع الشيخ حسن خليل فى هذه المكالمات التى كان

يخبره بها أولاً بأول . وكانا يريان أن هناك تجاوباً من القراصنة قد يوصلهما إلى حل يعيدان به البحارة والمركبين ، وأنهم بالتمادى فى التخفيض من الممكن أن يصلا إلى مبلغ يمكن جمعه ودفعه لهم وتنتهى هذه المشكلة .. إلا أن القراصنة – على لسان متحدثهم يوسف أبو على – عادوا وسحبوا كل هذه العروض وراحوا ثانية يطلبون أربعة ملايين دولار ، وقالوا صرامة أن هذا أقل تخفيض من الممكن أن يصلوا إليه وأقل مبلغ من الممكن أن يقبضوه ! وفى مكالمات لاحقة اتضح أنهم متمسكون بالأربعة ملايين دولار . وقد أعطى ذلك انطباعاً للحاج سمارة نصر بضرورة توخى الحذر فى التعامل مع القراصنة . واتضح أنهم عندما نزلوا بالمبلغ وأوصلوه إلى المليون ، إنما كانوا يتلاعبون به ويضمرون الغدر ، وسهل أن يتقاضوا المليون دولار ولا يتركون المركبين إلا بعد استكمال المبلغ إلى الرقم الذى يفرضونه بعد ذلك . وربما أرجع الحاج سمارة نصر هذا التلاعب إلى الأسلوب الذى واجههم به سابقاً والشدة التى اتسمت بها كلماته فى رده عليهم .. ومنها مجابهته لهم قائلاً لمحدثه وهو يهدده بقتل البحارة وحرق المركبين : " اقتل واحرق " . فلابد أنهم غير معتادين لمثل هذه المعاملة فى الحوار مع أصحاب المراكب والحكومات .

وبدأ الحاج سمارة نصر وكأنه يراجع نفسه ، أو يلوم نفسه .. كيف يتكلم بالشدة مع مَن هو فى حاجة إليهم . إنهم قراصنة شداد غلاظ لا يعرفون إلا القسوة والعنف وإلا الخطف والنهب وإلا استعمال السلاح وطلب المال والتربح من الحرام ، فأين هو من قوم هذه سليقتهم وتلك

طبيعتهم ، وكيف سمح لنفسه بالحوار معهم بهذا التعالى . صحيح أنه مظلوم ومقهور وصاحب حق .. ولكنهم لصوص يستبيحون المحرمات . ومن الفطنة أن يستميلهم ويسترضيهم ويحتويهم بكلمات هادئة طيبة .

نحن إذن قد عدنا إلى نقطة الأصل فلا شبكة المعلومات الدولية أضافت جديداً ولا مقابلة السفير الصومالى نفعت ولا محادثة صاحب شركة الملاحة أفادت .. وعلينا الولوج من جديد فى طريق آخر لم نطرقه من قبل .

لم تزل المكالمات قادمة من الصومال تحكى معاناة البحارة وتهديدات القراصنة لهم بالقتل . وهو ما يخيفهم ويخيف ذويهم ، فهم تحت إمرة قراصنة مجهولى الأصل يجب التحسب لهم جيداً والحذر فى التعامل معهم .. ومما يزيد من معاناة أهل البحارة فى مصر أنهم لا يفلحون فى مخاطبة ذويهم حال الاتصال بهم ، فالمحمول " الثريا " مع القرصان المترجم الذى يرد عليهم متباطئاً فى الحديث . ويصمت كثيراً أثناء الحوار .. وهو بذلك يستهلك وقتاً طويلاً فى المكالمة ويتلاعب بأعصاب الأهالى ، وبعد ذلك يقول لمحدثه : " اطلب بعد ساعة " !

وأدرك البحارة أنهم معزولون بفعل القراصنة ، وأنهم يمنعون عنهم اتصالات ذويهم الذين لابد وأنهم يداومون علىالاتصال بهم . والبحارة على علم بمطالب القراصنة . ويعرفون أن الملايين الأربعة التى يطلبها القراصنة إنما هى فوق طاقة أصحاب المراكب . وأنه بذلك تُسد الطرق أمام بوابة الحل ، وعندما يأمرهم البحارة بمخاطبة أهلهم ومطالبتهم بهذا

المبلغ ، فإنهم ينفذون أوامر مفروضة عليهم بقوة السلاح المصوب تجاه رؤوسهم .. ويعرفون أنهم يطلبون المستحيل . وإن كانوا يجدونها فرصة فى الاطمئنان على أسرهم وعائلاتهم ، أو على الأقل سماع أصواتهم . كما أنها كانت الوسيلة الوحيدة التى يطمئن بها الأهالى عليهم .

وفى شأن آخر كان القراصنة يحددون يومياً للبحارة نوعية الأكل التى تجهز لهم . وكان البحارة يطبخون لهم ما يريدون من طعامهم الذى أتوا به من مصر . وفى مثل هذه الرحلات يكون المركب مزود بكميات من الأرز واللحوم والدجاج وسائر البقوليات وبعض الخضروات .. وبكميات تغطى مدة الرحلة التى تقارب الشهرين ، ولكن مع الإسراف فى الكميات التى تقدم للقراصنة كانت المواد الغذائية تتناقص بشدة وكذلك مياه الشرب .. خاصة أن البحارة سبق أن أكلوا من هذه الأطعمة وشربوا مدة ثلاثة أسابيع قبل أن يباغتهم القراصنة . وبدأ كل مركب يعتمد على الآخر فى سد بعض العجز فى المواد الغذائية .

وأخيراً حدث ما كان فى الحسبان :

لقد نفدت جميع المواد الغذائية التى كانت معهم فى المركبين ، وعلم القراصنة بذلك ، وانتظر البحارة ما عساهم سيفعلونه فى تلك البيئة الجدباء . إن كان على البحارة فقد استمرأوا الجوع ، ويستطيعون أن يقتاتوا من البحر .. فيمكنهم أن يصطادوا السمك ويطهونه ويأكلونه . أما القراصنة فشأنهم شأن عشائرهم وسائر قبائل بونت لاند .. لا يأكلون

السمك . لقد كانوا ينظرون إلى البحارة وهم يأكلون السمك وكأنهم يأتون بعجيبة . وقد يحدث أن يتجرأ أحدهم فيطلب قطعة صغيرة من السمك .. يأكلها على مضض وكأنه يريد أن يجرب طعام البحارة أو يقلد سلوكهم . والغريب أنهم أبناء برية تمتد على ساحل خليج عدن وتصل جنوباً إلى المحيط الهندى . ثم إنهم أصلاً فى موضوع الأكل هذا لا يفهمون فى تذوق أى طعام . وتقريباً كل الأطعمة عندهم متشابهة لا يفرقون بينها . هم فقط يكرهون السمك وكل ما يأتى من البحر . والغريب أن لهم سلوكاً فى تناول الطعام يجعلك تأنف من مجرد النظر إليهم .

إذن ما العمل وقد نفد الطعام . وهم مجبرون بطبيعة الحال على التواجد فى المركبين لا يبرحونهما ؟ هذا هو السؤال الذى يدور فى أذهان البحارة الآن .

لا شك أن ما حدث من نفاد للمواد الغذائية لم يكن أمراً مفاجئاً للقراصنة . فقد كان البحارة ينبهونهم تباعاً إلى مدى التناقص فى المواد الغذائية . بل لعل القراصنة أنفسهم كانوا يقدرون موعده وينتظرونه ولم يكن بالمستغرب عليهم أن يخابروا بانتهائه . ولهذا أرسلوا ببعضهم إلى البر . فعاد من ذهب ومعه كميات من الأرز والمكرونة والدقيق والصلصة وفقط ! وبعد ذلك كان طعام القراصنة اليومى المتكرر هو الأرز والمكرونة .. لا يتغير أبداً ، أما الدقيق فلم يكن لصناعة الخبز أو أى منتج غذائى .. فقط كان يعجن بالماء ويلقى فى الزيت المغلى حتى ينضج ثم يؤكل .

وفى بعض الأحايين كان القراصنة يأتون بخروف ، فيذبحه لهم البحارة ويطهون لحمه ليقدم لهم مع الأرز والمكرونة .

وفى وقت لاحق .. انتهى الماء الذى كان معبأ فى جراكن مكدسة فى المركبين . وكانت هذه هى الطامة الكبرى .. فقد حل القراصنة هذه المشكلة بالإتيان بمياه تعافها الحيوانات ، وقدموها للبحارة ليطبخوا بها ويشربوا منها . كانت مياه عفنة .. نتنة .. لها رائحة كريهة وتعلوها طبقة من الأوساخ . وكان البحارة مكرهون على الشرب منها بل ومضطرون إلى عدم الإفراط فى استخدامها . أما القراصنة الذين تناولوا هذه المياه ضمن عمليات الطبخ .. فقد عافتها نفوسهم . وأتوا لأنفسهم بمياه معبأة فى زجاجات ليشربوا منها !

كانت مثل هذه الأمور تشحن نفوس البحارة بالغل منهم والحقد عليهم .. حتى أن أحمد نصر كابتن المركب " ممتاز ١ " فكر مرة فى أن يدس لهم السم فى الطعام ويقضى عليهم . وكان متيقناً تماماً أنهم لن يلحظوا السم فى الأكل .. فالأكل عندهم لا يحمل لذة الطعم .. وهو عبارة عن أصناف رديئة من الأرز والمكرونة مطهاة بمياه قذرة . واعتزم أن ينفذ الفكرة ، ولكنه تذكر أنهم أحياناً ما يفاجأون بفأر فى المركب فيضعون له السم فى بعض الأطعمة التى يتركونها له . ويتناولها الفأر ولا يموت . ليس سماً زعافاً ذلك الذى يحتفظون به فى المركب للقضاء على القوارض ، ومن الممكن أن لا يموت البحارة إذا ما تناولوه أو من الممكن أن لا يأكل البحارة جميعهم معاً وعندما يتألم الذين يأكلون يتنبه الذين لم يأكلوا .. ويكون حساب البحارة عسيراً .

وحتى وعلى فرض موت جميع قراصنة المركب ، ما الذى سيحدث بعد ذلك ؟ هل يحمل البحارة جثثهم ويلقون بها على البر ؟ فماذا عن رؤية قراصنة المركب الآخر لهذا المنظر ؟ وماذا أيضاً عن حراس البر الذين سيفاجأون بالجثث تحدف على اليابسة ؟ فهل من الأنسب أن ترحل المركب بجثثهم لإلقائها بعد ذلك لوحوش البحر ؟ ثم .. وسواء ألقيت الجثث على البر أو فى البحر .. هل سيترك قراصنة المركب الآخر هذا المركب ليرحل ويفلت من الأسر ؟ الأمور معلقة ومعقدة ولابد فى أى خطوة أن يكون هناك تنسيق فيما بين المركبين . ولا شك أن طاقمى المركبين يقدرون تماماً كل خطوة يفكرون فى أن يخطوها . فلا مجال على الإطلاق لوجود نسبة خطأ .. لأن العواقب لن تكون آمنة . فهم فى بلاد غريبة ليس لهم فيها صديق . ولا يملكون عوناً . ولن يرحمهم أحد من هؤلاء المجرمين الصوماليين المنشقين حتى على أنفسهم .

والحال فى الصومال غير الحال فى مصر . ففى مصر إن باء مسعى الحاج سمارة نصر بالفشل فإنه لا يضار ويمكن المرور فى طريق آخر بحثاً عن الحل . وها هو وبينما كان يفكر فى المشكلة المستعصية على الحل تأتيه مكالمة تليفونية كثيرة الأرقام . فيستغرب شكلها ويرد على طالبه . ويفاجأ بأن محدثه شخص يتحدث العربية بركاكة . وعندما تأكد الطالب أن محدثه هو سمارة نصر صاحب إحدى المركبين ، عرفه بنفسه وقال أنه صومالى يعيش فى الإمارات ويستطيع أن يساعده فى حل مشكلته ويعيد إليه المركبين والبحارة .. وانفرجت أسارير الحاج سمارة نصر الذى أسعدته المكالمة جداً . وراح الصومالى

يضع النقاط على الحروف . فهو فقط يريد خمسين ألف جنيه !

ورآها الحاج سمارة نصر فرصة طيبة لابد من اغتنامها . والفرصة دائماً لا تأتى إلا مرة واحدة . وراحت الأفكار تتوارد على ذهن الحاج سمارة نصر والأسئلة تحوم .. هل هذا الشخص صاحب سطوة على القراصنة ويستطيع حل المشكلة ؟ أو هل له خاطر عندهم . أو كلمة مسموعة لديهم ؟ أو هل سيفيدهم بشيء مقابل سماحهم بإطلاق سراح مركبى الصيد . فليكن ما يكون .. المهم أنه يستطيع أن يعيد المركبين والبحارة .. وهذا هو المطلوب . وراح الحاج سمارة نصر يجادله ويسائله ويحاوره .. وفى النهاية اكتشف أنه نصاب أراد استغلال الموقف لصالحه . إنه مخادع صومالى أسوأ من قراصنة بلاده ، أراد أن يتربح من معاناة الناس ويتكسب من وراء مشاكلهم .

وعلى ذكر بنى الصومال .. وبالسؤال والسعى وراء أى معلومة تفيد ، نمى إلى علم الحاج سمارة نصر أنه يوجد مقهى فى مدينة نصر بالقاهرة يتجمع به الصوماليون الموجودون فى مصر . ورأى أنه من الممكن أن يجد عند هؤلاء الصوماليين وسيلة لحل المشكلة .. فقد يكون لبعض رواده أقارب أو جيران أو أصدقاء أو معارف من القراصنة ويستطيعون إفادته أو يقدمون له حلاً .

وسافر الحاج سمارة إلى القاهرة . وتردد على المقهى ليومين وجلس باعتباره زبوناً ، وشاهد الصوماليين يتوافدون على المقهى ويتسامرون ، وحاول التقرب منهم والتودد إليهم .. وتحدث مع بعضهم وأبلغهم أنه يريد أن يقيم علاقات تجارية مع الصوماليين تتعلق بتجارة الأسماك ،

وسألهم عن القراصنة مبدياً تخوفه من تعرض تجارته للخطر .. وكيف يمكنه التصرف حالئذ . وتحدث الصوماليون باستفاضة عن القراصنة ، وأنهم فئة ضالة لا تعبر أبداً عن مواطنى الصومال .. وأن أهالى القراصنة أنفسهم لا يرضون عن سلوكيات أبنائهم الإجرامية التى يجب أن لا تمنع أى علاقات مع الصومال .

ولكن الحاج سمارة لاحظ فى ثنايا أحاديثهم أنهم يتحدثون عن القراصنة بإعجاب ، ويبالغون فى إظهار قوتهم ونفوذهم وغلبتهم لكل دول العالم ، وأنه لا يمكن اختراق صفوفهم أو الوصول إليهم ، ويتناولون قصصاً عنهم يروونها كما تروى الملاحم البطولية !

ووجد الحاج سمارة أن خط الوصول إلى هؤلاء القراصنة عبر هؤلاء الصوماليين مقطوع . والحديث معهم غير مجد . فترك المقهى وعاد .

ويسمع الشيخ حسن خليل من الحاج سمارة نصر تفاصيل رحلة فاشلة لم تنم عن شيء . ولكنهما وقد أضناهما الفكر وأعيتهما الحيل .. لا يعدما الأمل ، ولا ينبغى لهما هذا .. وعليهما السعى فى مناح أخرى وبفكر متجدد للوصول إلى حل للمشكلة .

لسنا فى حِل من أن نذكر أن هذه المساعى تتم فى أجواء مشحونة بالتوتر ، فالبحارة ما انفك يطلبون ويصرخون ويستغيثون ويعاتبون .. والقراصنة أيضاً يتصلون ويهددون ويساومون ويخادعون . والأهالى ذهاباً وإياباً لا يعرفون وقتاً لزيارة الحاج حسن ولا حدوداً للكلام معه .

يأتون صباحاً ومساءً من كل بلدة من بلاد الصيادين ومن كل صوب .. يبكون ويلطمون ويشتكون ويسألون . والشيخ حسن الرجل الوقور الذى يطلق لحيته ويتميز ببال طويل وصبر مديد وهدوء أعصاب وموهبة فى احتواء الآخرين وإقناعهم .. مازال يقوم بدوره فى تطييب الخواطر وتهدئة النفوس وطمأنة الجميع على ذويهم وأن المشكلة فى طريقها إلى الحل بإذن الله . ويقول لهم : أنا أحرص منكم على حل المشكلة . لكم واحد ولى اثنان .. ومركب ، ضعوا هذا فى اعتباركم . نحن نعبأ ونهتم ونكترث ونسعى ونحاول .. وسيوفقنا الله .

وهذه مكالمة تليفونية ترد لتليفون الحاج سمارة نصر تحمل أرقاماً كثيرة هى الأخرى . وكان الطالب مواطن من عدن يعرض خدماته لحل المشكلة ؟ وبداية .. قابل الحاج سمارة محدثه بحفاوة وقد استراح لهذه المكالمة . فعدن من المناطق القريبة من بونت لاند ، ولأهلها علاقة بالصوماليين .. ولهذا راح يجارى محدثه فى الحوار ويستفسر منه ، وسأله عن مطالبه مقابل هذه الخدمة فقال له مائة ألف جنيه .. وربما أوحى هذا الرقم بمصداقية ونم عن جدية فى التحرك نحو حل المشكلة . ولكن بتواصل الحوار .. اتضح للحاج سمارة أن ما عنده شخصياً من معلومات عن أحوال الصومال وبونت لاند والقراصنة أضعاف أضعاف ما عند هذا الرجل . إنه نصاب أكبر ممن سبقه وطلب خمسين ألف جنيه . بل وأكثر منه طمعاً وجشعاً وجبروتاً وقسوة . لقد أنهى الحاج سمارة المحادثة حزيناً على ما آلت إليه نفوس البشر . وكيف سمح البعض لأنفسهم بالمتاجرة بآلام الناس والتربح من مصائبهم !

وفيما له صلة بذات السلوك اتصل صومالى يقيم فى القاهرة بالحاج سمارة نصر وعرض عليه أن يحل مشكلته دون أن يتقاضى مليماً واحداً فاستغرب الحاج سمارة ذلك . وسأله عما يريده .. فقال فقط عشرة آلاف جنيه نظير السفر إلى بونت لاند . وبسرعة انتهت المحادثة مع هذا النصاب الصغير .

وهكذا بدا أن مسلسل النصابين لا ينتهى . وجميعهم يريد الاحتيال على أصحاب المشكلة والتكسب من ورائهم .. ربما ظناً منهم أن أصحاب المراكب المخطوفة إنما يكونون فى حالة انعدام وزن . وأنهم سيصدقونهم ويدفعون لهم .. وربما لأن الصوماليين تحديداً يرون فى صوماليتهم سبباً لأن يصدقهم أصحاب المراكب المخطوفة عندهم . وأنهم لذلك سيتجاوبون معهم ويرضخون بالدفع .

ومن الأشياء التى كانت تقلق الحاج سمارة نصر وأيضا الشيخ حسن خليل أن يمتد أمد المشكلة وتستمر لمدة أطول ، فيقوم القراصنة كما هم معتادون بنقل المركبين والبحارة إلى منطقة " سانج " لحين حل المشكلة ، أو النظر فى أمرهم . ففى سانج يجد البحارة معاملة أسوأ ، ويعيشون فى أجواء يكتنفها الإجرام ، والمعاملة الأكثر صرامة وقسوة ، وقد تودى بحياة البحارة الواحد تلو الآخر . أيضاً كان هناك الخوف من نقل المركبين وبحارتهما إلى منطقة " إيل " التى يطلقون عليها " مقبرة السفن " حيث تظل السفن بها رابضة كمرحلة أخيرة لمفاوضات دفع الفدية فإن فشلت يقومون بطلائها من جديد وتغيير لونها واستخدامها كسفينة " أم " تحمل زوارقهم التى يستخدمونها فى عمليات القرصنة .

وعندهم عشرات السفن المحتجزة لهذا الغرض ومئات الأسرى مجهولى المصير .

ولهذا كان الحاج سمارة نصر والشيخ حسن خليل يستعجلان الخطى لحل هذه المشكلة ، ولم يدعا طريقاً إلا وسارا فيه ، ولكن للأسف كل الدروب حتى الآن تودى إلى لا شيء .

وفى لحظة صفاء مع النفس ، وتفكير عميق فى المشكلة وأبعادها ، تذكر الحاج سمارة صديقه محمد النهدى ، واندهش فيما بينه وبين نفسه وتعجب .. كيف غاب هذا الصديق عن حاضرته طوال الفترة الماضية ومنذ وقعت مشكلة المركبين وحتى الآن . إن هذا الصديق من الممكن جداً أن يصل بهما إلى حل لهذه المعضلة المؤرقة . ولكن .. من هو محمد النهدى أصلاً ؟ ولماذا توسم فيه الحاج سمارة خيراً ومقدرة على حل المشكلة ؟

محمد النهدى هذا مواطن يمنى يشغل منصب المدير التنفيذى لشركة المشرق للمنتجات البحرية ، ومقر الشركة فى اليمن . وهو إنسان طيب وودود وتربطه صداقة وطيدة ببعض أصحاب سفن الصيد المصرية . وكثيراً ما يسهل لهم الحصول على تصاريح صيد من المياه الإقليمية لبعض الدول . ومن فرط صداقة هذا اليمنى بالحاج سمارة نصر والشيخ حسن خليل أنه كثيراً ما يأتى لزيارتهما فى عزبة البرج . ولكونه يمنى يأتى التفاؤل فى استطاعته حل هذه المشكلة ، ففيما بين اليمن والصومال علاقات تاريخية وجغرافية يعضدها الآن وجود جالية يمنية كبيرة فى

الصومال ، ووجود عدد كبير من اللاجئين الصوماليين فى اليمن . ثم إن الرئيس الصومالى السابق عبدالله يوسف نفسه يعيش فى اليمن بمحض إرادته . بعد أن ترك السلطة طواعية .

وعلى الفور اتصل الحاج سمارة نصر بالشيخ حسن خليل وعرض عليه فكرة الاتصال بصديقهما اليمنى محمد النهدى بغية أن يشركاه فى مشكلتهما عساه يجد لها حلاً . خاصة أن اليمن يعيش على المحك من نشاط القراصنة باعتباره أقرب الدول إلى الصومال عبر خليج عدن . ويعد من أكثر دول العالم تضرراً من وجود القراصنة الذين باتوا يهددون سواحله ومعاملاته التجارية ويقومون بتهريب البشر الراغبين فى النزوح من الصومال المتقاتل أهله .. إلى اليمن ، وهى هجرة غير شرعية لها مخاطرها الأمنية على اليمن الذى يستقبل عشرات الآلاف من هؤلاء المشردين رغماً عن أنفه . وربما يولد من رحم هذا الزخم حل لمشكلة مركبى الصيد المصريين المختطفين .

وبالطبع وافقه الشيخ حسن خليل فيما ارتآه . ووجد أهمية هذه الخطوة ، وعليه اتصل الحاج سمارة نصر بالصديق اليمنى محمد النهدى وحكى له المشكلة بكل تفاصيلها ، وطلب منه أن يبحث لهما عن حل فى ظل الوجود الصومالى عندهم . وقد تأثر الصديق اليمنى وتألم لما سمع .. ووعده بأن يبحث له عن حل . فقط أن يمهله لبعض الوقت .

وكان لهذه المكالمة وقع طيب فى نفس الحاج سمارة نصر ، وعندما أخبر الشيخ حسن خليل بالمكالمة شاركه نفس الإحساس بالارتياح . وبات عليهما أن ينتظرا مسعى صديقهما اليمنى . وكلهما يقين وثقة فى

إخلاصه لهما .

وبالرغم من أنه كان لكل من الحاج سمارة نصر والشيخ حسن خليل دوره المحدد فى هذه المشكلة . فاختص الحاج سمارة بالسعى نحو الحل فيما تكفل الشيخ حسن خليل بملاقاة وفود أهالى الصيادين المأسورين فى الصومال . إلا أنه ما كان يحدث لأحدهما يحاط به الآخر علماً .. ربما فى التو واللحظة ، وأحياناً ما كان أحدهما يجنح لسبب أو لآخر إلى خط الآخر . فإذا ما جاءت مجموعة من أهالى أحد الصيادين إلى الحاج سمارة .. لابد أن يستقبلهم ويقوم معهم بدور الشيخ حسن خليل . كما كان القراصنة كثيراً ما يتصلون بالشيخ حسن ويطلبون منه دفع الفدية . فالموضوع له صاحبان أساسيان يسيران معاً على خط واحد .

ومن الغريب فى هذه المشكلة أنه كلما انسد باب فى وجه الحل .. فُتح آخر ، وكلما انتهى درب .. انبثق غيره ، وكلما انعدمت وسيلة استجدت غيرها . أو كما يقال كلما اشتدت ظلمة الليل دنا الصبح وأصبح فجره وشيكا . ففى ظل حياة حالكة على متن المركبين . كانت هذه الواقعة الفارقة :

فذات يوم وبينما كان الأخوة الثلاثة أحمد ومحمد وإيهاب يقومون بعملية نظافة حول القراصنة أعلى المركب " أحمد سمارة " ، لمح إيهاب شريحة تليفون صومالية ملقاة على الأرض ، فالتقطها خلسة وأخفاها فى ملابسه دون أن يراه أحد من القراصنة .

وبعد انتهاء عملية النظافة ونزول الأشقاء ، قام إيهاب بوضع هذه

الشريحة فى محموله الذى كان عديم الجدوى لوجود شريحة مصرية به لا تعمل من أجواء الصومال . وكان الأمل فى أن تكون هذه الشريحة وسيلة اتصال بينهم فى المركب وبين ذويهم فى مصر . وبداية أراد إيهاب أن يعرف حجم الرصيد الموجود بها ، وهنا أسقط فى يده .. لقد كان فى الشريحة رصيد خمسة سنتات فقط ، وهو رصيد زهيد للغاية يسمح بطلب مكالمة ولكنه لا يتيح استمرارها لبعض الوقت . إلا أن إيهاب رأى أنه يمكن استثمار هذا المبلغ فى طلب ما يريده من أرقام فى مصر ثم غلق المحمول ، وحالئذ لابد وأن من طلبهم سيفهمون مغزى هذه الرنات فيعاودون طلبه . وبذلك يتصل بمن يريد فى مصر دون أن يستنزف سنتاً واحداً من هذا الرصيد الضئيل الذى ربما يكون لهذا السبب ألقى أحد الصوماليين هذه الشريحة .

وبالفعل تحين إيهاب الفرصة وقام بطلب ابن عمه الحاج سمارة نصر صاحب مركبهم " أحمد سمارة " وبسرعة أغلق الخط . وعندما فوجئ الحاج سمارة نصر بذلك ، لم يتردد فى طلب نفس الرقم الذى طلبه وأغلق . وهنا فوجئ بأن إيهاب هو الذى يرد عليه . وأخبره بأن هذه الشريحة تخصهم وأنهم بهذه الوسيلة سيتحينون الفرص للاتصال به وتبادل الاطمئنان والأخبار . وبالفعل كانت هذه الطريقة هى وسيلة الاتصال التى جعلت الحاج سمارة نصر يكون على بينة بكل ما يحدث على ظهر المركبين ، وفى ذات الوقت يطمئن طاقم قيادة مركبه على أهاليهم وسائر مجريات الأمور فى مصر .

ولأنه كان هناك أحياناً تواصل بين طاقمى القيادة فى كلا المركبين فقد كانت هذه الشريحة هى أيضاً وسيلة الاتصال بين أحمد ومحمد حسن خليل وبين والدهما . كان أحدهما يتوجه سباحة إلى المركب " أحمد سمارة " ويطلب أباه خلسة ويغلق . فيطلبه والده ويتحادثان . وعندما كان يستفسر أحد من قراصنة المركب " أحمد سمارة " عن أسباب وجود كابتن المركب الآخر أو مساعده عندهم كان يقال له أنهم نادوه ليستشيروه فى إصلاح عطل بإحدى ماكينات المركب .

هذه إذن نقلة مستجدة فى عالم الاتصال ، تبدأ معها مرحلة مرحب بها فى وسائل الاطمئنان على أحوال البحارة على متن المركبين والوقوف على آخر المستجدات ، وتبادل كافة المعلومات بين طرفى المشكلة في بونت لاند الصومالية ومصر .

ومرة ثانية يعاود الحاج سمارة نصر الاتصال بالصديق اليمنى محمد النهدى ليستكشف منه ما فعله أو ما هو بصدد أن يفعله . ويرد عليه اليمنى قائلاً أنه إلى الآن لم يتوصل إلى شىء . ولم يعد أمامه إلا أن يقابل عبدالله يوسف الرئيس الصومالى السابق الذى يعيش الآن عندهم فى اليمن ، ويضيف اليمنى قائلاً أنه على قناعة بأن مقابلته ستكون مجدية لأنه يعرف كل القبائل البونت لاندية والقبائل تعرفه ، ولابد – رغم وجوده فى إقامته الاختيارية بعد تخليه بمحض إرادته عن السلطة – أن له كلمة مسموعة ومؤثرة عليهم . وعرض الصديق اليمنى على الحاج سمارة أن يجىء إلى اليمن لمقابلة عبدالله يوسف معه إن أراد ذلك . ووجد الحاج سمارة نصر أن هذه الخطوة ستكون مؤثرة للغاية

في حل الأزمة فأجابه على الفور بالموافقة على زيارته في اليمن ليكون في صحبته عند مقابلة الرئيس الصومالي السابق . وأنهى المكالمة على ذلك .

وكعادتهما في كل ما يطرأ من جديد . أحاط الحاج سمارة نصر .. الشيخ حسن خليل علماً بفحوى المكالمة . وما يراه من وجوب التوجه إلى اليمن . ووافقه الشيخ حسن خليل على أهمية هذه الزيارة بالفعل . ورأى أنها من الممكن أن تكون خطوة إيجابية في طريق الحل .

وبذكاء ابن البلد ، ولأن الموضوع أخذ منعطفاً جديداً في الاتصال بشخص كان رئيساً لقطر عربي ، رأى الحاج سمارة نصر أن يتصل بجهاز الأمن القومي " المخابرات المصرية " ويحكي لمسئوليه تطورات مشكلته ، وما انتهى إليه من ضرورة مقابلة الرئيس الصومالي السابق عبدالله يوسف في اليمن كمحاولة للوصول إلى حل لمشكلتهما .. والتي هي أيضاً مشكلة عشرات الأسر المصرية التي لها أبناء على متن مركبي الصيد المحتجزين في الصومال والتي هي أيضاً مشكلة مصر .

وبالفعل أجرى الحاج سمارة نصر هذا الاتصال . وكانت المفاجأة الكبرى : لقد وجد الحاج سمارة أن جهاز الأمن المصري على علم تام بتطورات المشكلة وعلى دراية بكل خطواتها . وأن جميع مكالمات الحاج سمارة نصر والشيخ حسن خليل مسموعة عندهم ومرصودة . وهم بذلك على علم تام بكل ما يحدث للبحارة في الصومال ، وأن هذه المشكلة مازالت تأخذ حيزاً كبيراً في اهتمام هذا الجهاز الأمني العظيم .

وأكثر من ذلك أن الحاج سمارة نصر استشعر أن جهاز الأمن المصرى يتحرك فى هذه المشكلة .. وله جهود . ولعله استشف أن جهاز الأمن المصرى قد يكون بصدد ترتيب شيء ما .. سيكون مفاجأة . ولكن السرية التى يتسم بها العمل فى هذا الجهاز تدع أفراده لا يفصحون عما يعملونه . بل ووصلت إلى حد عدم الاتصال بصاحبى المركب والاستفسار منهما عن أى شيء طوال المدة السابقة .

هكذا .. وفجأة وجد الحاج سمارة أن الدولة ليست بمنأى عن مشكلته ، وأنها تراها مشكلة أمن قومى .. ولها تحركاتها ومسعاها . وأنهم إذ يتركونه يدخل على شبكة المعلومات الدولية " الانترنت " ، ويقابل السفير الصومالى فى القاهرة ، ويذهب إلى مقهى مدينة نصر لمقابلة الصوماليين ، ويطلب صديقه اليمنى .. إنما من باب تفريغ الشحنات المكبوتة . فإن حدث وأجدت إحدى هذه المحاولات فلا بأس . وإن لم تجد فالدولة متكفلة بحماية رعاياها أينما كانوا . نضيف إلى سابق المعارف .. دراية جهاز الأمن القومى باتصال الشيخ حسن خليل بالسفير عبد الرعوف الريدى الذى حادث بدوره الوزير أحمد أبو الغيط لتكون هذه المشكلة ضمن نقاط مباحثات الرئيس حسنى مبارك مع نظيره الصومالى أثناء زيارته لمصر . وأيضاً كان الجهاز على علم بزيارات أهالى الصيادين لصاحبى المركبين فى عزبة البرج . ومدى القلق الذى ما انفك يغالبهم .

فماذا إذن أيها الجهاز الأمنى العظيم .. عن السفر إلى اليمن ومقابلة الرئيس الصومالى السابق عبدالله يوسف لإشراكه فى حل المشكلة ؟ لا

بأس . اذهب وقابل من تريد ، وافعل ما تراه صالحاً ، ونحن من ورائك .. على البعد .

وأيضاً وعلى ذات النهج المتبع ، أحاط الحاج سمارة نصر صديقه الشيخ حسن خليل علماً بحواره مع جهاز المخابرات العامة . وقد سعد الأخير سعادة لا حدود لها بتبنى الدولة لمشكلتهما ، وراحا يسترجعان من ذاكرتهما قول الدكتور محمد فتحى البرادعى محافظ دمياط لهما أثناء لقائهما به من أن هذه المشكلة تلقى اهتمام القيادة السياسية العليا . وأنها حالياً أهم شواغل وزارة الخارجية ووزارة الدفاع وجهاز الأمن القومى .

وفى يوم الأحد الرابع والعشرين من شهر مايو عام ٢٠٠٩ سافر الحاج سمارة نصر إلى اليمن مدعوماً بدعاء الشيخ حسن خليل ومؤازراً من جهاز الأمن القومى المصرى ، وكان فى استقباله لدى وصوله العاصمة اليمنية صنعاء صديقه اليمنى الحميم محمد النهدى الذى انشغل بمشكلة المركبين كما لو كانا ملكه . وجُعلت إقامة الحاج سمارة فى فندق " تاج سبأ " الذى يقيم به الزعيم الصومالى السابق عبدالله يوسف ليكون قريباً منه ومن حاشيته ، وبعد ذلك وحسبما هو مقرر سلفاً توجها إلى جناح الرئيس الصومالى السابق لمقابلته . وبداية قابلا واحداً من أهم أعوانه يدعى عبد الواحد وهو صومالى وتحديداً من أبناء بونت لاند ، وتلاحظ للحاج سمارة نصر وجود سابق معرفة وصداقة بين اليمنى محمد النهدى والصومالى عبد الواحد . وبنبرة هادئة يشوبها الحزن حكى الحاج سمارة نصر مشكلته ، وكيف أن القراصنة يحتجزون مركبى الصيد منذ نحو الشهر ونصف الشهر لقوا خلالها أسوأ معاملة

وعاشوا أجواء كئيبة من الإرهاب والتهديد بالقتل وحرق المركبين . كما نفد الطعام الذى كان معهم .. والماء . وأصبحوا فى حالة صحية ونفسية بالغة السوء . فى حين يطلب القراصنة فدية مقدارها خمسة ملايين دولار تم تخفيضها إلى أربعة . وهى أرقام مبالغ فيها وفوق طاقة الإمكانات .

وقد بدا الانفعال واضحاً فى حديث الحاج سمارة وظهر تأثره الشديد بهذه المشكلة ومعاناته من تعطل المراكب واحتجاز البحارة وعجزه عن دفع الإتاوة .. وما أن أنهى الحاج سمارة نصر حديثه حتى فوجئ بأن المسئول الصومالى انفعل معه بشدة ، واستنكر ما يفعله أبناء إقليمه ، وراح يشجب ويندد ويرفض ويعترض ويتعصب بشكل مبالغ فيه .. حتى أن الحاج سمارة نفسه اندهش من سلوكه وظن أنه يفعل ذلك لاستمالته .. عساه يستفيد منه شيئاً .. أو أنه يبالغ فى مشاعره ليرضيه .. شأنه فى ذلك شأن الساسة المحنكين . ولكن المسئول الصومالى عبد الواحد استمر فى انفعاله المفرط وأخرج تليفونه المحمول وراح يطلب عدداً من الشخصيات الصومالية الهامة بلغت نحو عشرة اتصالات كان من بينها اتصاله برئيس الثروة السمكية فى بونت لاند ، ورئيس الثروة السمكية فى الصومال لاند ، كما كان من بين هذه الاتصالات وزير الداخلية فى بونت لاند عبدالله أحمد جامع الذى رفض السفير الصومالى فى مصر أن يتصل به بدعوى أنه لا يعرف رقمه ! واتضح من اتصالاته .. أن كل المسئولين الذين اتصل بهم يعرفونه شخصياً ، وقد أعطى البونت لاندى عبد الواحد كل هذه الأرقام بما فيها رقم الوزير عبدالله أحمد جامع للحاج سمارة نصر لتكون تحت تصرفه متى شاء !

وفى غمرة هذا الانفعال ، وفى رد فعل إيجابى للتحرك فى المشكلة اقترح عبد الواحد أن يذهب هو شخصياً برفقة اليمنى محمد النهدى إلى بونت لاند لملاقاة القراصنة وحل هذه المشكلة !

وانشرح صدر الحاج سمارة نصر لهذه الخطوة التى وجدها بالغة الأهمية ، واستراح لإخلاص هذا المواطن البونت لاندى الذى يكاد يكون محا جزءاً من غضاضة النفس تجاه بونت لاند والحنق على أهلها الذين أصبحوا جميعاً فى نظر الحاج سمارة نصر ومعه الشيخ حسن خليل ومعهما مصر كلها والعالم أجمع مجموعة من عتاة المجرمين والقراصنة أصحاب السوابق العديدة فى السطو على المراكب واحتجازها وفرض الإتاوات على أصحابها . وباتوا يهددون أمن المجتمع الدولى .

ويبقى العرض المقبول جملة وتفصيلاً بسفر عبد الواحد ابن بونت لاند وأحد شخصياتها المعروفة وواحد من أهم أعوان الرئيس السابق عبدالله يوسف ، مع اليمنى محمد النهدى ابن إحدى أهم قبائل اليمن ومدير واحدة من أهم الشركات المتعلقة بشئون البحار ، والمعروف – لهذا السبب – فى دول حوض البحر الأحمر وخليج عدن . هذا ما توصل إليه واستراح له الحاج سمارة نصر بعد عدة لقاءات له مع هذا المسئول البونت لاندى .

ولا شك أن نفقات هذه الرحلة وكل ما يتعلق بها من إقامة ومصاريف ستكون على حساب المضارين .. صاحبى المشكلة . فليس من اللائق أبداً أن يتحمل الشخصان المتطوعان للسفر شيئاً فى تلك

المهمة التى سيستقطعان لها الكثير من وقتهما . وسيبذلان الكثير من الجهد والفكر وسيكون فيها أيضاً بعض المخاطرة . بل ومن الواجب أن يجزل لهما العطاء .. لدواعى الإقامة اللائقة التى قد تمتد لأيام . ولتغطية كل ما يتعلق بشئون هذه المشكلة بما فى ذلك مبالغ قد تدفع بل ستدفع لترضية القراصنة أو لمن سيتولون حل المشكلة من قبائلهم . فإن واحداً من الشخصين المسافرين لا يملك عصا سحرية لحل المشكلة ، أو ستكون كلمته نافذة وأوامره مطاعة عند هؤلاء المنشقين عن القيم والمبادئ والأصول .

غادر الحاج سمارة نصر اليمن على وعد بالعودة إليهما بعد تدبير المال اللازم لهذه الرحلة . وفى مصر ، وحيث عاد إلى عزبة البرج .. كان لقاؤه بالشيخ حسن خليل ليطلعه على تفاصيل رحلته وما انتهى إليه مع الصديق اليمنى والمسئول الصومالى البونت لاندى . وراحا معاً يفكران ويضعان تصوراً لما عساه يحدث ، واحتمالات النجاح والفشل . وقد وجدا فيما ذهبا إليه أنه من الممكن أن يتقاضى المسافران المبلغ المطلوب ويتجها إلى الصومال أو بونت لاند تحديداً ، ويجابها ببعض العراقيل فيعودا سريعاً إلى اليمن بعد أن يكونا قد أنفقا ما معهما من نقود ، ويكتفيان بشرح الظروف الصعبة التى لقياها ، وكيف أن المهمة كانت بالغة المشقة . والموضوع مهما قيل فيه وتحمس البعض له ، لا يعنى فى الهام الأول إلا صاحباه : سمارة نصر وحسن خليل . فلماذا لا يصطحب أحدهما .. المسافرين فى هذه الرحلة ، فيكون على بينة مما يحدث ويشارك فى مجريات الأمور . لا شك أن سفر الحاج سمارة

نصر أو الشيخ حسن خليل إلى معاقل القراصنة وبحث المشكلة على أرض الواقع .. هو الرأى الأصوب . والفكر الأجدى .

ولأن الحاج سمارة نصر كان يعانى ظروفاً صحية صعبة نتيجة إجرائه لعملية جراحية فى القلب قد لا تمكنه من تحمل مشاق رحلة بونت لاند ، فقد اقترح الشيخ حسن خليل أن يسافر بنفسه إلى هذا البلد بصحبة اليمنى والصومالى ، ولعله من باب التوافق القول أن فكرة السفر إلى بونت لاند قد راودت الحاج سمارة نصر وهو معهما فى اليمن . وكان يرى أهمية مشاركته لهما فى هذه الرحلة . ولكن نظراً للظروف الصحية الصعبة التى كان يعانيها لم يشأ أن يعرض عليهما السفر معهما إلى بونت لاند . كما كان من باب الأدب والذوق أن لا يطلب من الشيخ حسن السفر معهما .. لمشقة الرحلة وصعوبتها وأيضاً مخاطرها . ولكن ها هو الشيخ حسن خليل وبمحض إرادته يعرض فكرة سفره معهما إلى بونت لاند ويرى أهمية تواجده فى هذه الرحلة . فليسافر تحميه عناية السماء .

الشيخ الدبلوماسى

أغرب رحلة صيد

كانت جميع تحركات وسفريات ولقاءات ومقابلات واتصالات كل من الحاج سمارة نصر والشيخ حسن خليل تتم فيما يشبه السرية ، وبعيداً عن الأنظار ، وكانا لا يعلنان عن شىء ولا حتى للمقربين لهما . على هذا اتفقا ، وقد وجدا فى السرية والكتمان تيسيراً لأجواء هادئة تسمح لهما بالتركيز فيما يتخذانه من قرارات بعيداً عن متابعة الناس وفضولهم واستفساراتهم ومقترحاتهم وتعليقاتهم وقد أشاع ذلك مفهوماً عند الناس بأنهما بعيدان عن بعضهما . وأنهما غير جادين فى حل المشكلة . ووصل البعض إلى ادعاء أنهما متخاصمان . ولكن لا شىء من هذا يهم ، فالأهم أنهما على قناعة بمسعاهما وجدية تحركهما .

وكالعادة .. أحيط جهاز المخابرات العامة علماً بتفاصيل رحلة الحاج سمارة نصر إلى اليمن ، وعن النية فى معاودة سفر الشيخ حسن خليل إلى اليمن ليصطحب الصديق اليمنى والمسئول الصومالى البونت لاندى من هناك إلى بونت لاند ، وقال المسئولون فى جهاز المخابرات العامة أن هذه الرحلة صعبة ولها مخاطرها ، فرد عليهم الشيخ حسن بقوله أنه يريد أن يرى أولاده وسائر البحارة ، لقد طالت المدة ، ونفد الطعام والماء ، وأصبحت حياتهم صعبة للغاية .. فوافقوه على السفر ، وطمأنوه بأنهم سيتابعونه وسيكونون إلى جواره !

مضت أيام قليلة .. تم فيها تجهيز بعض المال اللازم والاستعداد للرحلة ، وفى صباح يوم الثلاثاء الموافق ٧ يوليو عام ٢٠٠٩ استيقظ

الشيخ حسن من نومه مبكراً كعادته ، وتناول طعام الإفطار مع أفراد أسرته . ثم طلب من زوجته أن تعد له شنطة السفر لتوجهه إلى اليمن في أمور تتعلق بمشكلة المركبين ، ونبه على أفراد أسرته بأن لا يبوحوا بأمر سفره لأحد . وأن لا يحاولوا الاتصال به . وقال أنه هو الذى سيتصل بهم من آن لآخر لطمأنتهم على نفسه . وفى أجواء هذه المفاجأة نزل الشيخ حسن خليل من منزله مسافراً إلى القاهرة ومنها بالطيران إلى اليمن .

كان وصول الشيخ حسن خليل إلى اليمن أمراً مستغرباً من الصديق اليمنى محمد النهدى والمسئول البونت لاندى عبد الواحد ، لأنهما كانا فى انتظار الحاج سمارة الذى سافر إلى مصر على أن يعود إليهما بنفقات الرحلة . ولكنهما فوجئا بأن الشيخ حسن خليل هو الذى يأتى إليهما بدلاً منه . فما الذى عساه تغير حتى يغيب عنهما الحاج سمارة نصر ويحضر الشيخ حسن خليل بدلاً منه !؟ هل طرأ بينهما خلاف على تفاصيل الرحلة أو نفقاتها ؟ وهل يعنى مجيء الشيخ حسن خليل التحرر من بعض بنود الاتفاق ووجوب إعادة الشرح والاتفاق مرة أخرى ؟ أم كان هناك شك فى مصداقية اليمنى والبونت لاندى فرأى الشيخ حسن أن يكون على المحك من الأحداث ويعيد الكلام معهما ويتأكد بنفسه ؟ ولا شك أن الشيخ حسن خليل لمح فى وجوههم بعض التساؤلات فراح يذكر لهما أن مجيئه .. إنما لاستكمال ما بدأه الحاج سمارة نصر معهما . غير أنه يريد أن يشاركهما هذه الرحلة ويذهب معهما إلى بونت لاند !!

كان الكلام جديداً على مسامعهما . ولكنه يحمل نبرة الجدية من شيخ

وقور لا شك أنه يعنى ما يقول . وتأكيداً للمعنى قالا له : السفر شاق ، وسوف يكون مرهقاً جداً .. فهل تستطيع أن تشاركنا فيه ؟

فأومأ بالإيجاب قائلاً " إن شاء الله " . فراحا يسألانه إن كان يعلم بتفاصيله ونفقاته فقال : أعلم . وعادا يسألانه : وهل أنت مستعد لهذه النفقات ؟ فقال لهم : تماماً . فأعقبوا : هل معك المال الذى يكفى لسفرنا جميعاً والإقامة لمدة قد تزيد عن الأسبوع ؟ فأجاب بثبات : بكل تأكيد . وأزادوا : وأن تدفع الفدية أو الترضية التى نتفق عليها معهم ؟ فأجاب : بالطبع . ثم أردف وكأنه أراد أن يريحهما : لقد جئت لأنهى المشكلة ونحضر البحارة والمركبين . فقالوا له : سنحتاج إلى استئجار مجموعة من المسلحين الصوماليين لحمايتنا فى معاقل القراصنة . وسيتقاضون أموالاً مقابل تلك الحماية ، وستتحمل كافة نفقات معيشتهم .. وقبل أن يسترسلوا قطع عليهم الشيخ حسن الشك باليقين وقال : لا تقلقوا من أى شىء . لقد جئت مستعداً لكافة الأمور .. ولنتوكل على الله ونذهب إلى بونت لاند . فأنهيا الحوار معه بقولهما : إذن .. فلتذهب إلى سفارة جيبوتى لأخذ تأشيرة للسفر إلى جيبوتى التى سنسافر إليها ، ومنها إلى بونت لاند . وكانت هذه هى الطريقة المتبعة للسفر إلى بونت لاند حيث لا يوجد طيران مباشر إليها من اليمن .

وفى اليوم التالى توجه الشيخ حسن خليل إلى السفارة الجيبوتية فى العاصمة اليمنية صنعاء للحصول منها على تأشيرة دخول جيبوتى . وفيها فوجئ بأول عقبة . لقد رفضت السفارة إعطاءه هذه التأشيرة من اليمن لأنه مصرى الجنسية وليس يمنياً ! ولكى تمنحه سفارة جيبوتى فى

اليمن تأشيرة دخول بلدهم .. لابد من موافقة السفارة المصرية فى صنعاء .

ومضطراً توجه الشيخ حسن خليل إلى السفارة المصرية فى صنعاء وهو لا يدرى إن كانت ستوافق على سفر مصرى موجود فى اليمن إلى جيبوتى أم لا . فلابد أنه ستكون هناك استفسارات عن أسباب ودواعى هذا السفر . فماذا يقول لهم ؟ هل يعقل أن يقول لهم أنه ذاهب إلى جيبوتى ليتوجه منها إلى بونت لاند ليلتقى قراصنة الصومال ويتفاوض معهم على إطلاق سراح مركبين مصريين ؟ هذا منطق بالطبع غير مقبول . هل يكذب عليهم ويقول أنه ذاهب إلى جيبوتى للسياحة كما هو معتاد عند السفر إلى العديد من بلدان العالم ؟ ولكن أى سياحة فى هذه الدولة البائسة .. وبماذا يجيب إذا ما سألوه عن الأماكن السياحية التى سيذهب إليها فى جيبوتى ؟

كل هذه الخواطر جالت بخاطر الشيخ حسن خليل وهو فى طريقه مستعجلاً الوصول إلى السفارة المصرية فى صنعاء لأخذ موافقتها لسفارة جيبوتى حتى تمنحه تأشيرة دخول بلادها . وأياً كان رد السفارة المصرية فى صنعاء على هذا الطلب الغريب .. فلا مفر من التوجه إليها والمحاولة بشتى الطرق للحصول على هذه الموافقة .

كان الشيخ حسن خليل يسير متوجساً إلى السفارة المصرية فى صنعاء وهولا يدرى أن هناك مفاجأة فى انتظاره . فقد دخل السفارة وما أن أعلن عن اسمه وطلبه حتى فوجئ باستقبال حافل ورائع . وأدخلوه إلى السفير الذى منحه على الفور موافقة السفارة . ليس ذلك فحسب ،

ولكنه اتصل بسفير جيبوتى فى اليمن وطلب منه أن لا يغادر مكتبه قبل أن يعود إليه الشيخ حسن . وأوصاه بسرعة تلبية طلبه ومنحه تأشيرة السفر إلى جيبوتى !

وخرج الشيخ حسن من السفارة المصرية مودعاً بالتمنيات الطيبة من السفير وتوجه مسرعاً إلى سفارة جيبوتى . وبسرعة عجيبة تلقى تأشيرة دخول الدولة الجيبوتية !

ما هذا الذى يحدث ؟ لا شك أن الشيخ حسن سأل نفسه هذا السؤال . ولكنه لم يكن فى حاجة إلى ذكاء ليعرف أن جهاز المخابرات المصرى كان وراء كل هذه التسهيلات . لقد أخبرهم الشيخ حسن فى مصر أنه متوجه إلى اليمن للسفر منها إلى بونت لاند ، فوافقوه وتمنوا له السلامة وطمأنوه أنهم وراءه ، وربما ظن فى حينها أنها مجاملة طيبة من أناس يحسون بمشكلته ، ولكنه أدرك الآن أنهم لا شك يعرفون أن السفر من اليمن إلى بونت لاند إنما يكون عن طريق جيبوتى . وأنه لذلك سيحتاج تأشيرة من السفارة الجيبوتية فى اليمن . وأنها لن تمنحه هذه التأشيرة إلا بموافقة سفارة مصر فى اليمن فكانت اتصالاتهم بالسفير لتذيل هذه العقبة . أو اتصالاتهم بوزارة الخارجية لتخاطب سفارتنا فى اليمن .

حصل الشيخ حسن خليل على تأشيرة دخول جيبوتى . أما الصديق اليمنى والمسئول الصومالى فمعهما مثل هذه التأشيرات الميسرة بالنسبة لهما ، وعليه تم حجز تذاكر الطيران . وفى يوم الأحد الموافق ١٢ يوليو استقل ثلاثتهم الطائرة إلى جيبوتى ومنها ركبوا طائرة أخرى إلى بونت لاند . تلك الدولة أو بالأصح المقاطعة أو الإقليم أو المنطقة التى

اشتهرت بأعمال القرصنة . وفى بوصاصو العاصمة – عاصمة المكان المسمى بونت لاند – هبطت الطائرة التى ما أن فُتحت أبوابها ونزل ركابها حتى فوجئ الشيخ حسن خليل بأن المطار ما هو إلا قطعة أرض فضاء تستقبل الطائرات القليلة التى تصلهم . ومنها أيضاً تغادر الطائرات بونت لاند !

وينظر الشيخ حسن خليل إلى هذا المكان شديد التواضع فى تلك المنطقة سيئة السمعة ويتذكر شيئا قديماً طرأ على ذهنه .. ففى أعقاب نكسة ١٩٦٧ . تغيرت الظروف الاقتصادية فى مصر إلى الأسوأ ، وتم وضع عراقيل وضوابط صارمة أمام حركة الصيد الذى تقلصت أوقاته بحيث لم تعد تكفى رحلات صيد المراكب التى اعتادت الغياب فى البحر لأيام طوال . ولا شك أن الدولة كانت على حق فى هذه المحاذير بسبب استمرار الحرب مع إسرائيل المجاورة لمصر والتى تطل على البحر الأبيض المتوسط الذى تصطاد منه مراكب عزبة البرج . وعلى أن هذه الضوابط وضعت لحماية أبناء مصر الصيادين إلا أنها تسببت فى رحيل عدد كبير من أبناء عزبة البرج للعمل على مراكب اليونان وإيطاليا وفرنسا وغيرها من دول العالم . والشيخ حسن خليل كان من ضمن هؤلاء البحارة الذين هاجروا للخارج حيث عمل على مركب تجارى إيطالى طاف به العديد من دول العالم فى مختلف القارات . وقد شاهد الكثير من بلدان العالم بموانئها ومطاراتها .. إنه لا يذكر أن شاهد مطاراً على هذه الشاكلة ولا مكاناً أكثر حقارة من هذا المكان الذى يراه الآن . إنها مناظر ورؤى ومشاعر لا تنبئ عن خير . أو هى تنبئ أنك

فى بلاد القراصنة والفوضى والتسيب والانفلات والانحطاط والبؤس والشقاء .

خرج الشيخ حسن خليل وصديقه اليمنى محمد النهدى والصومالى البونت لاندى عبد الواحد من المطار والصواب أنهم غادروا المنطقة الفضاء التى يعتبرونها مطاراً . وفصل القول أنهم الآن فى بونت لاند وتحديداً فى عاصمتها بوصاصو وقد عرف الشيخ حسن من مرافقيه أنها تبعد عن لاس كورى مسافة ست ساعات ، ولاس كورى هذه هى المنطقة التى يحتجز القراصنة على سواحلها المركبين المصريين .

ومن الطريف أنهم يميلون فى بونت لاند إلى تحديد المسافات بالزمن الذى يستغرقه السفر ، وليس بوحدات القياس الطولية . ربما لأنهم لو ذكروا المسافات بوحدات القياس المعتادة كالكيلومتر أو الميل فسيعطى ذلك انطباعاً عن الوقت الذى يستهلكه السفر .. وهو ما يخالف الواقع ، فصعوبة الطرق والتواءاتها وضيقها ووعورتها .. تضاعف الأوقات المقدرة لمثل هذه الأسفار . ولذلك فهم يفضلون أن يوضحوا لك الزمن الذى سيستغرقه أى سفر . فى صياغة أدق تكون الطرق هى التى تحدد سرعة السيارات وزمن الوصول ، وليست المسافات أو السرعات التى تسير عليها السيارات هى التى تحدد أزمان الوصول .

والشيخ حسن خليل الذى يسير الآن مع مرافقيه اليمنى والصومالى ويجول بنظره إلى كل شىء .. يستغرب ما يراه : الوجوه سمراء والأجسام نحيلة والملابس غريبة والطباع حادة والحركة خاطفة والجو

حار جداً . والمباني والشوارع والنمط الحياتي والسيارات والمرافق .. كلها تنم عن فقر مدقع ، وتفضح بلد يغلب عليه البؤس وعلى أهله الشقاء . فإذا كان هذا حال عاصمة بونت لاند والمفروض أنها أهم مدنها ، فماذا عن باقي مدن هذا الإقليم المنشق برغبته والمنعزل بأمره ، والذي قاد نفر منه حركة تمرد انفصالية عن الصومال لم يكن لها ما يبررها على الإطلاق .. فلا الإقليم به ثروات متاحة يراد الاستقلال بها ولا موارد دخل يراد احتكارها ولا يضم أقليات تريد حكماً ذاتياً . إنها فقط النعرة القبلية والنزعة الانفصالية والزعامة التي تسيطر على تفكير بعض الأشخاص الذين ينصبون أنفسهم قادة ويبحثون عن أدوار بغض النظر عن عواقب الأمور وما سوف تؤول إليه الأحوال .

وبونت لاند هذه انفصلت عن الصومال عام ١٩٩٨ ويعيش مواطنوها أحوالاً غاية في السوء والانحطاط والتدني ، ويكفيها خسة أنها اتخذت شهرتها من أعمال القرصنة والإجرام والسرقة وفرض الإتاوات . ولو أن أهلها اتجهوا لاستثمار مواردها الطبيعية المتمثلة في البترول والثروة السمكية والغابات المكتظة بأشجار البخور واللبان الذي يعد المادة الخام في صناعة العطور لكان أفضل لهم وأجدى وأكثر أماناً وربحية من تلك العمليات المشوبة بالمخاطر والتي أحياناً ما يلقون فيها حتفهم .

والغريب أن أهل هذا الإقليم اعتادوا منذ أزمان بعيدة على ترك مدنهم وقراهم وتجمعاتهم والنزوح إلى الجنوب سعياً وراء الأعمال المتاحة في الزراعة والتجارة والوظائف الحكومية والقوات المسلحة

والشرطة ، ولم يعرف عنهم مثلاً التعصب لموطنهم أو النعرة القبلية لمناطقهم .. كانوا دائماً يرونه صومالاً واحداً يمثل الوطن الأم . وأينما وجد عيشهم يسعون إليه . ولكن شتان ما بين الأمس واليوم . ما بين سعى الآباء وكفاحهم ، وسفه الأبناء وجُرمهم .

فى أحد فنادق المدينة حط الثلاثة رحالهم . ولا شك أن الشيخ حسن خليل كان أكثرهم لهفة واستعجالاً للأمور ، مما جعل البونت لاندى عبد الواحد ينشط ويجد فى الاتصال بالقبائل التى لها أبناء تشترك فى عمليات القرصنة ، وطفق يدعو زعماء هذه القبائل وكبار رجالها إلى الولائم التى راح يقيمها الشيخ حسن خليل وينحر لها الذبائح ويقدم فيها الأطعمة . فإذا ما انفضوا من الطعام تجاذبوا أطراف الأحاديث التى أخذت مناح شتى . فإذا ما فُتحت سيرة القراصنة وتحدث الشيخ حسن خليل وصاحباه فى شأن الرهائن والمركبين .. امتعض الصوماليون ، وأبدوا عدم رضاهم عن ذلك . وينعتون أبناءهم بالمعصية .. وفقط . وتنفض الجلسة أو العزومة على ذلك . وتكرر هذا كثيراً .. فلم يأل عبد الواحد جهداً فى البحث والتحرى عن القبائل والعشائر التى لها أبناء يمتهنون القرصنة فيدعو كبراءهم إلى الولائم التى يقيمها الشيخ حسن خليل .. وفى كل وليمة تذبح الخراف وتقدم الأطعمة ، ويأكلون معاً ، وتجهز الشيشة فيدخنون جميعهم ، ويخزنون القات ذلك النبات الذى يمضغونه فيدغدغ أعصابهم ويهدئهم .. ويتسامرون ويتحاكون ويضحكون ويكون جواً من الود والانسجام ، فإذا ما فُتحت سيرة القراصنة .. وعُرضت المشكلة عليهم .. تنصل الصوماليون من أى

وعود بدعوى عدم الرضا ، وأن الأبناء عصاة خرجوا عن طوعهم . وتمتعض وجوههم ويغادرون المكان !

استمرت هذه المحاولات .. ونصبت الولائم على مدى أسبوعين والنتيجة : لا شيء !

والذى كان يدهش الشيخ حسن إن لم يكن يغيظه أنه على أى أساس قبل هؤلاء الصوماليون الحضور إلى ولائمه . وبم فسروا هذا الكرم . وإن لم يكن فى نيتهم أن يساهموا فى حل مشكلة هذا الوافد لهذا الغرض .. فلم الحضور إليه والمشاركة فى العزومة ؟ هل كان الشيخ حسن مفتوناً بجمالهم أو مغرماً بكنههم حتى يأتى إليهم من مصر ويقدم لهم الطعام والشراب والدخان ؟ هل ظنوا أن صداقتهم ذات قيمة حتى يسعى إليهم مصرى ويحاول التقرب إليهم وإقامة علاقات ود معهم !؟ إنهم لا شك عالمون أنه أحد ضحاياهم جاء يسعى لحل مشكلته . وأنه حتماً يدعوهم لولائمه لغرض التباحث معهم والوصول إلى حل . فمن لا يملك خيطاً فى الحل لا يحضر . هكذا من المفروض أن تسير الأمور . ولكن يبدو أنهم هنا لهم حسابات أخرى . أو أنهم لا يفهمون . والمهم أن ينتهزوا أى فرصة للطعام والشراب والتدخين والتخزين .

كان وصول الشيخ حسن خليل إلى بونت لاند حدثاً مهماً تناقله الناس فى سائر بلدان هذا الإقليم ، وعلم به القراصنة وقالوا للبحارة أن الشيخ حسن خليل صاحب المركب " ممتاز ١ " قد وصل إلى بونت لاند لحل المشكلة ودفع الفدية وقد أسعد هذا الخبر الجميع . فالبحارة ضاقوا بالصبر ويأملون الفكاك من أسرهم والعودة إلى أهاليهم بعد أسابيع طوال

من الذل والمهانة . والقراصنة يريدون أن يتسلموا قيمة الفدية وينعموا بالملايين ويتفرغوا لعملية جديدة .

وبالطبع لم يكن هذا الخبر غريباً على الكابتن أحمد حسن خليل وشقيقه محمد حسن خليل اللذين كانا يعلمان بمجيء والدهما ويحادثانه خلسة بين آن وآخر ، ولا غريباً على الأشقاء الثلاثة أحمد وإيهاب ومحمد المسئولين عن المركب " أحمد سمارة " . وكانوا أيضاً يحادثونه خلسة بين فينة وأخرى . بينما كان الشيخ حسن خليل يواظب على شحن شريحتهم من مكان مخصص لهذه الخدمة فى الفندق الذى يقيم فيه ، ليضمن دائماً أن يكون معهم رصيد كاف لإجراء هذه المكالمات . وكان أحياناً يغلق عليهم الخط ويعاود هو الاتصال بهم إذا ما أراد أن يوفر لهم رصيد الشريحة . أو إذا كان الجو عنده لا يسمح بالرد عليهم وأراد أن يبتعد ليحدثهم بحرية ودون تنصت من أحد .

وكانت هذه المكالمات وسيلة الاطمئنان المتبادلة بين الشيخ حسن خليل وسائر والبحارة .. كان الشيخ حسن على دراية تامة بأحوال البحارة ومجريات الأمور على متن المركبين . وكان أسرى المركبين على علم بما يتم فى بوصاصو . وكان ابناه على وجه الخصوص ومعهما الأشقاء الثلاثة أحمد وإيهاب ومحمد المسئولون عن المركب " أحمد سمارة " يتابعون اجتماعاته مع أهالى القراصنة ، ونتيجة لقاءاته بهم . وكان الشيخ حسن خليل صريحاً فى إخبارهم بتعثر الوصول إلى حل مع أحد ، وأن أى من هذه اللقاءات والاجتماعات والعزائم والولائم لم يسفر عن شيء . وقال لهم أن البقاء فى بوصاصو لأكثر من ذلك يعد

مضيعة للوقت . وأنه ينوى التوجه إلى لاس كورى ليكون على مقربة من القراصنة أنفسهم ويفاوضهم وجهاً لوجه .

وبالفعل أفضى الشيخ حسن خليل إلى مرافقيه : الصديق اليمنى محمد النهدى والمسئول الصومالى عبد الواحد برغبته فى التوجه إلى لاس كورى ليكون على المحك من الأحداث ويقابل القراصنة . ووافق صاحباه لما ارتآه من أهمية السفر إلى لاس كورى بعد أسبوعين من العدم في بوصاصو .. أنفق فيهما الشيخ حسن الكثير على الولائم التى كان يقيمها تكريماً أو احتفاء بزعماء وكبار رجال القبائل التى لها أبناء تشترك فى عمليات القرصنة ولم يجن من وراء ذلك شيئاً ، وكأنه ينفق فى سفه . ولكن الصومالى عبد الواحد أخبره بخطورة السفر إلى لاس كورى ، وأن هذه الرحلة تستلزم استئجار بعض المسلحين الصوماليين ليكونوا حماة لهم . وإلا اتخذه القراصنة كرهينة عندهم على خلفية مماطلته فى دفع الفدية وما يعتلى نفوسهم من حنق لتأخره عن تلبية مطالبهم وهو فى مصر .

وبالفعل تم استئجار ستة عشر مسلحاً صومالياً لمرافقتهم فى الرحلة إلى لاس كورى .. وليكونوا إلى جوارهم بصفة دائمة . وهم بذلك يظهرون بمظهر الأقوياء أصحاب الحمايات المسلحة الذين لا يمكن النيل منهم . وفى ذات صباح شدوا رحالهم إلى لاس كورى فى رحلة محفوفة بالمخاطر عنوانها " البحث عن حل " .

فى طرق طويلة وضيقة وملتوية ووعرة سار الركب المسلح إلى لاس كورى التى وصلها بعد نحو ست ساعات . وقد فوجئ الشيخ حسن

خليل بأنها بلدة قوامها أعشش حقيرة تفتقر إلى كافة الخدمات .. فليس بها شبكة كهرباء ولا مياه ولا صرف صحى . يستيقظ أهلها على نور الصباح وينامون مع غياب الشمس . وهم يشربون من مياه الآبار ويستخدمونها فى كافة شئون حياتهم . ويوجد فى هذه البلدة فندق واحد يعد نموذجاً فى الحقارة والقذارة . وقد ذهبوا جميعاً للإقامة به على اضطرار . وجو هذه المدينة حار خانق . والفندق ليس به أجهزة تكييف ولا حتى مراوح . وربما كان وجود مثل هذا الفندق فى هذه البلدة أمراً ليس له ما يبرره . فمن ذا الغريب الذى يستهويه هذا المكان فيأتى إليه .. أو ما هى المصالح التى تستلزم المجىء إلى هذه البلدة الآية فى التخلف والتردى ؟ وقد وجد الشيخ حسن أن إقامته فى هذا الفندق تعد مخاطرة بصحته .. ففضل المبيت فى ساحة خلاء بجوار الفندق فلا يدخله إلا لقضاء حاجة . وكان ينام تسعى الزواحف إلى جواره وتنتشر العقارب من حوله . وتسير العناكب على جسده . بينما تهل أفواج الناموس اللادغ على وجهه .. كان وضعاً لا ينبىء بخير ، ومردوده الطبيعى التعجيل بلقاء القراصنة والتفاوض معهم فى أسرع وقت ممكن .

كان المسئول الصومالى عبد الواحد ولكونه من أبناء بونت لاند يعرف كل القبائل .. والقبائل تعرفه . وقد راح يتصل بالقراصنة وبزعماء قبائلهم ورجالها ودعاهم إلى المجىء للشيخ حسن الذى راح بدوره – كما هى العادة – يذبح لهم الخراف ويقيم الولاءم فى محاولة لإظهار المحبة والنوايا الحسنة .. واستمالتهم . وتعددت الولائم وفى كل يوم تضاف وجوه جديدة إلى ولائمه والجميع يأكل ويشرب ويخزن

القات ، وكان الشيخ حسن يدخن الشيشة فعرض عليهم أن يشاركوه التدخين ووجدهم يدخنون بشراهة . فاشترى لهم التبغ بطعم التفاح وكانوا يدخنون معاً . وأحس الشيخ حسن أنهم كانوا منسجمين تماماً وسعداء بصحبته واستشعر محبتهم له . ربما ليس لأنهم يأكلون من طعامه ولكن لأنه يأمن لهم ويأكل مما تطبخ نساؤهم ، فقد كان الشيخ حسن يشترى الخراف والأرز ويرسله إلى بيوتهم فتطبخ النساء ، وتُنصب الولائم . ومن الطريف أن الشيخ حسن تحرر من ملابسه التى لا تناسب أجواءهم الحارة ولف فوطة حول وسطه مثلهم تماماً فأصبح وكأنه صومالى لا يخلفه عنهم إلا لون البشرة . فقد كان الشيخ حسن ذا بشرة بيضاء مشوبة باحمرار بينما كانوا سوداً فحماً .

وخطر على بال الشيخ حسن أن يستغنى عن الحماية المرافقة له وقوامها ستة عشر فرداً مدججين بالسلاح الآلى الحديث . فهم يشاركونهم فى الولائم ويقبضون أموالاً كثيرة مقابل ارتباطهم بوجوده وحمايته ، رغم أنه لم يجد داع لهذا التواجد الأمنى الملازم له والذى قد يضعف من ثقة الصوماليين فيه ، ويعطيهم انطباعاً بأنه يشك فيهم أو يخاف منهم .. رغم حالة الود السائدة ، إلا أنه تريث فى فكرة إبعادهم .. لربما تتقلب الأمور وتظهر مستجدات أخرى . فلا أحد يضمن مكر " آل قرصنة " ، وليكن مُؤمناً فى هذه البلاد الغريبة مهما ارتفعت التكاليف .. أفضل من أن يكون أعزلاً تحت رحمتهم .

ومضت عدة أيام على وجود الشيخ حسن خليل فى لاس كورى .. ولا شيء سوى إقامة الولائم وأكل الأرز ولحم الخراف وتدخين الشيشة

وتخزين القات ، إلى أن كانت أولى جلسات التفاوض وبحث الأزمة التى دعت هذا الغريب الأبيض إلى المجىء لتلك البرية الصومالية ومقابلة القبائل والعشائر ، وفيها فنجل الشيخ حسن عينيه وفتح أذنيه لما سيقال وعشمه أن يقدر هؤلاء الصوماليون مجيئه كرجل كبير يبحث عن أبنائه ، ويجبروا خاطره .. على أثر العلاقة الطيبة التى سرت بينه وبين القراصنة وذويهم والتى دعتهم لأن يأكلوا سوياً ويشربوا ويدخنوا ويخزنوا . وعلى حين غرة انتفض أحد القراصنة وكأن ثعباناً لدغه وقال بلهجة آمرة متبجحة محت كل ما كان من ود وألفة : نريد خمسة ملايين دولار فدية . قالها كمن يقطع على الشيخ حسن طريق التفاوض والمماطلة . ولا شك أن هذا القول وقع على الشيخ حسن وقوع الصاعقة . ويبدو أن أحدهم لاحظ دهشة الشيخ حسن الذى صدمه الكلام فأراد مجاملته وفتّح باب الحوار وقال للقراصنة بلهجة آمرة قاطعة وإن بدت مشوبة بالعشم : أربعة فقط ، يدفع أربعة ملايين وتتركوا له البحارة والمركبين . قالها وكأنه الحُكم العدل الذى يرتآه . قالها وكأنه يزن الأمور بدون مغالاة ، ويحق الحق ولو كان على حساب أهله وعشيرته . قالها وكأنه يوفق بين ما يطلبه القراصنة وما يريد الشيخ حسن أن يدفعه . قالها وكأنه وإن جار أو حاد عن الحق فمن أجل الواجب وإكرام الوافد إلى ربوعهم الشيخ حسن خليل الذى أكلوا معه " عيش وملح " . قالها بلهجة آمرة ملزمة قاطعة وإن بدت عاشمة ودودة .

ثم .. وكأنه استشعر أنه أبخس القراصنة حقهم ، فأراد تطييب خاطرهم وإفهامهم أنه وإن كان يحكم بذلك .. فمن أجل السمو بهم فوق

الجحود والمغالاة فى طلب المال ، فأتبع قولاً " لابد أن نعمل واجباً للشيخ حسن " . وكأن " ابن قرصنة " يريد أن يُذكِّر آله بالأصول والواجب ، والخواطر والذوق والمروءة والإنسانية .. وأن يردهم إلى حظيرة العقل بكل هذه المفردات التى لا مجال لها عندهم بطبيعة الحال ، ولا أثر لها فى نفوسهم .

وعندما أعلن هذا البادئ قوله ، تعالت الصيحات والاحتجاجات ما بين الموالين والمعارضين . فأرغى من أرغى وأزبد من أزبد ، واستمر الجدل والنقاش والوقوف والجلوس واحتقن الموقف واختنق ، واختلطت الأصوات . بينما كان الشيخ حسن مندهشاً صامتاً يؤدى دور المستمع والمتابع المشتت بين هذا وذاك ، وحيث استشعر أن هذا الجدل الدائر قد أنهى كل ما كان من ود وعشم فقد رأى أن يقطع قول كل خطيب بقول فصل وأعلن على الملأ أنه لن يدفع فدية إطلاقاً .. لا قليل ولا كثير ! قالها وكأنه يقطع عليهم أحلامهم ، ولكنه فى ملمح ذكى استدرك متابعاً كلامه بقوله " كل ما لكم عندى ثمن أكل البحارة خلال مدة الأسر " ، وبالطبع كان الشيخ حسن يعلم أن القراصنة هم الذين كانوا يأكلون مما مع البحارة من طعام وليس العكس . وعندما نفد الطعام أتوا لهم بأطعمة رديئة لم يعتدها البحارة ، وكان البحارة يطبخونها لهم بينما أنفسهم تعافها .. هو يعلم هذا ولكنه أراد أن يوجد مجالاً للحوار والجدل عساه يصل إلى شيء ، ولكن أى مجال للحوار سينشأ فى هذا الجو الذى تلبد بالغيوم . لقد بهت الجميع ونظروا إلى بعضهم فى ذهول .. إنهم جاءوا للتفاوض فى عدد الملايين التى سيدفعها الوافد المصرى فإذ به يعلن

على الملأ وبكل الوضوح أنه لم يأت لدفع فدية . وقال لهم تالياً أن المبدأ مرفوض من كل المصريين الذى هو واحد منهم ، وبدا وكأنه يلقنهم درساً فى مكانة مصر واسم مصر وعظمة مصر !

ولعلنا لا نخفى سراً إذا ما قلنا أنه كان فى طليعة الحانقين الذين فوجئوا بكلام الشيخ حسن كلاً من صاحبيه اليمنى والصومالى اللذين وصلا به إلى لاس كورى وحسبهما أنه سيدفع للقراصنة ويحل مشكلته ، فإذ به يعلن ما لم يخطر على قلب أحدهما .. وقالها صريحة وواضحة وعلى الملأ .. أنه لن يدفع شيئاً فداء أو إرضاء !!

وانفض السامر على هذه الحالة من عدم الرضا . وكان الشيخ حسن ومرافقاه قد أمضوا عدة أيام فى لاس كورى . وحيث انتهت إلى لا شيء .. فلا شيء الآن إلا الرحيل من تلك البلدة . وله أن يحمد الله أنه فى هذا الجو المعكر صفوه والملبد بالحنق لم يكن قد استغنى عن حرسه وإلا لحدث ما لا يتوقعه أحد .. والمفروض ذلك ، فقد ضربهم الشيخ حسن فى كبريائهم وجبروتهم وهزمهم فى معاقلهم وبين ربوعهم . وليرحل الآن آمناً والأصوب أن يلوذ بالفرار من بين براثنهم قبل أن يجهزوا عليه أو يتخذوه رهينة أو على الأقل ينله شطط مما يتكتمونه .

غادر الشيخ حسن وصاحباه الصديق اليمنى والمسئول الصومالى ، ومعهم الحراسة الخاصة المسلحة آلياً .. لاس كورى ، وقد فشل التفاوض مع القراصنة . بل لعله لم يبدأ أصلاً ، وعادوا مرة ثانية إلى بوصاصو . التى ما أن وصلها الشيخ حسن حتى تذكر ابنيه وكيف أنه

ابتعد عنهم ، وأخفق فى استمالة القراصنة ، فى الوقت الذى يعجز فيه عن تلبية مطالبهم ودفع فدية بالملايين . ولكن ما العمل الآن ؟ المفروض أنه أتى إلى بوصاصو ليرحل منها إلى جيبوتى فاليمن ثم مصر . فما الذى أسفرت عنه هذه الرحلة الخائبة إلا السفر والترحال لأيام طوال أقام فيها الولائم ودعا إليها كل من هب ودب وأنفق فيها ما أنفق .. دون أن يكون لذلك أى مردود إيجابى . وكيف تطاوعه نفسه وبكل هذه السهولة أن يرحل ويترك ابنيه ومعهما سائر البحارة فى الأسر عند القراصنة الذين ولابد أنه ستكون لهم بعد ذلك معاملة أكثر سوءاً وأكثر حنقاً وأكثر إرهاباً .. مع البحارة جميعهم ، وربما اختصوا ابنيه بالمزيد . وما الذى سيقوله فى مصر إبان الوصول إليها .. وما الذى سيسمعه من أهله وأهل بلدته وأهل البحارة . إنه لم يخبر أحداً بهذه الرحلة .. ولكن منذ متى كانت مثل هذه الأمور من تلك التى تخفى . لابد أن الكل عالم بسفره إلى تلك البرية الصومالية . عارف بهدف هذا السفر ، وربما نشرت إحدى الصحف أو أذاعت إحدى القنوات الفضائية خبراً عن هذا السفر . إن موضوع احتجاز مركبين مصريين عند القراصنة من الأمور التى شغلت الرأى العام المصرى ، وانشغلت فى أدق تفاصيلها كل وسائل الإعلام ولا يستبعد أبداً أن مصر كلها تعرف بوجوده فى بونت لاند . ولكن وبغض النظر عمن عرف أو لم يعرف . ما مصير هذه القضية التى كان على أعتابها ولم يخضها مع الخائضين وكأنه ترفع عليهم أو تعالىَ ، وراح يجاهر برأيه فى أمر الفدية ويعلن أنه لن يدفع .. رغم أنه لا يملك الحل البديل وليس معه من يسانده أو

يعضد رأيه ، لقد كان وحده الرأى المعارض والمخالف والمناوئ لكل الاتجاهات والرؤى والتوقعات لنحو عشرين عشيرة كان يتفاوض معها .

إنه لا شك يشعر بمرارة الظلم وقسوة الابتزاز وطمع النفوس . وربما أراد أن يصدمهم فى معتقداتهم وسلوكياتهم ونفوسهم .. ولكن ما النتيجة التى حققها ؟ لا شىء . لقد أذاقهم المرارة ووأد طمعهم . ولكنه أيضاً وفى المقابل عاد خالى الوفاض ولم يحقق شيئاً من مهمته . لقد كان ابناه أحمد ومحمد ومعهما أحمد وإيهاب ومحمد نصر فى المركب أحمد سمارة ، وعن طريق المكالمات المختلسة ومتى تسمح الظروف يسألونه عن الأخبار فكان يطمئنهم أنه فى طريق الحل . لم يكن يكذب عليهم ولكنه نقل إليهم تفاؤله بالصوماليين فى لاس كورى بعد الصداقة والمعرفة والعزومات والولائم والود والعشم وكل الدلائل التى بدت إليه أنها ستكون فى صالحه عند الحديث معهم حول إطلاق سراح المركبين والبحارة . ولكنه للأسف ضُرب فى مقتل وطُعن فى أفكاره وأُحبط فى آماله وصُدم فى معتقداته بعد بجاحة أحدهم ولعله أهمهم حين قام يعلن على الملأ أن المبلغ المطلوب هو خمسة ملايين دولار . والأسوأ من ذلك الشخص .. ذلك الشخص الذى نصب نفسه حكماً عدلاً ، وراح يفرض عليهم قبول أربعة فقط . لقد أحس الشيخ حسن ساعتها أنه فى سيرك يلعب أفراده لعبة الثلاث ورقات ، وكأنهم يقومون بدور الحواة والأراجوزات . لقد ود ساعتها أن يصرخ فيهم ملقناً إياهم درساً فى الدين الإسلامى الذى يدعون اعتناقه ويسألهم بأى حق يستبيحون هذه الأموال منه ومن غيره ممن يأسرون مراكبهم . ولكنه تريث فى أقواله

وكتم غيظه ، وفقط أعلن لهم أنه لن يدفع شيئاً على سبيل الفدية . فإن كان ولابد فثمن الطعام الذى أكله البحارة أثناء احتجازهم . وقد قالها وهو يعلم أن الحساب سيجعلهم مدينين لأنهم هم الذين أكلوا طعام البحارة . ولكنه قالها على سبيل ذر الرماد فى العيون ومحاولة استرضائهم بأى شىء .. فهو يعلم أنهم آل طمع .

ولكن ما العمل الآن . وكيف سيرد على استفسارات ابنيه ؟ إنه لا شك صادمهم . بل قاتلهم بإجابته إذا ما صرح بأنه فشل وسيعود أدراجه إلى مصر . وكيف يستطيع أب أن يقول ذلك لابنيه المأسورين مع زملائهما بين قبضة القراصنة يلقون الذل والقسوة ويعانون الشراسة والإرهاب ويذوقون الشذر والهوان ، وكان كل أملهم أن تنفرج أزمتهم على يد الوالد الذى سعى إليهم جاهداً معرضاً نفسه لكل المخاطر من أجل أن ينقذهم .

ويعيد الشيخ حسن حساباته ويرتب أفكاره .. ويستعيد إلى ذهنه أحداث الأيام الطوال التى قضاها فى بونت لاند . أولها فى بوصاصو وآخرها فى لاس كورى . فما الذى فعله منذ مجيئه إلا أنه نحر الذبائح وأقام الولائم لتناول الطعام والشراب وتدخين الشيشة وتخزين القات فأنفق فى ذلك ما أنفق ، فضلاً عن أجر الستة عشر صومالياً الذين استأجرهم لحمايته عند توجهه إلى لاس كورى وتكفل بكافة نفقاتهم ، أضف إلى ذلك مصاريف سفر الثلاثة من اليمن إلى بونت لاند وما تقاضاه الصومالى نظير أتعابه وتسهيل اتصاله بالقراصنة . لقد أنفق الكثير فضلاً عن حياة متدنية عاشها فى تلك البيئة المتخلفة ، وغداء

يومى لا يتغير من الأرز ولحم الخراف قلب معدته . فقد كان يأنف هذا الطعام وطريقة تناوله وتمتعض نفسه وتمغص بطنه كلما أتى موعد الغداء . بينما كان يتظاهر بالسعادة ويخلق أجواء من الألفة والسرور والبهجة والمحبة . وقد باءت كل هذه النفقات والمساعى والجهود والضغوط والاحتمالات والصبر والتريث بالفشل وانتهت إلى لا شىء .

ومن وراء ذلك الحنين الجارف تجاه أولاده " ابناه والبحارة جميعهم " .. هناك هزيمة شخصية له يراها هزيمة للمصريين كلهم وليس لنفسه فقط .. لقد سافر كما البطل المغوار ، أو الفارس الشجاع . سافر ليحل المشكلة ويعود بالأسرى وكله يقين أنه فاعل لا محال . وربما راودته نفسه أن يترك اليمنى والصومالى يعودان إلى اليمن وحدهما ويعود هو على ظهر أحد المركبين وسط البحارة وقد أنهى حصارهم وفك أسرهم وأعادهم لأهلهم . وربما سرح عقله لأن يتنقل فى أثناء عودته البحرية فيما بين المركبين ليشارك جميع البحارة مشاعر البهجة . وربما توقع احتفالاً شعبياً ورسمياً وفرحة عارمة من كل المصريين عند عودتهم سالمين . فبأى شكل يعود الآن وهو لم يحرك ساكناً أو يأت بجديد . بل لعله بسلوكه مع القراصنة قد رفع جذوة الاحتقان لديهم ، وأزاد حنقهم على البحارة . ياله من موقف صعب ويالها من أزمة محكمة ويالهم من قراصنة أشداء من الصعب استمالتهم ومن المستحيل استرضاؤهم .. اللهم إلا إذا أتت الأموال ودُفعت لهم عداً ونقداً وبالدولارات التى هى العملة الوحيدة التى يقبلونها .. وبالقيمة التى يحددونها .

وهناك شىء آخر يتذكره الآن الشيخ حسن خليل :

لقد كان جهاز المخابرات العامة فى مصر على اتصال دائم به لا ينقطع البتة .. يتابعون الموقف معه ويسدونه الرأى . وقد أخبرهم أن الأمور تسير على ما يرام ، وأنه يعيش فى أجواء ودية لابد أنها ستذلل له صعاب المفاوضات التى قد يلقاها غيره إذا ما أتى إليهم . فما الذى يقوله لهم الآن . وهو وضع يوحى بأنه لم يكن يزن الأمور جيداً . ولم يقدرها حق قدرها . وماذا سيكون رد الجهاز عليه .. وهو الجهاز المعنى بسمعة مصر وأمان المصريين وقد عولوا عليه آمالاً فى عودة البحارة . إنه يذكر أن كان مرة مع الحاج سمارة نصر يحادثان بعض المسئولين فى هذا الجهاز ، وطلبا منهم أن تقوم الدولة بدورها فى حماية أبنائها . وقد رد المسئولون فى هذا الجهاز بقولهم أننا لسنا عاجزين عن إعادة البحارة من الصومال بعملية عسكرية مباغتة . ولكننا فقط حريصون على ألا يصاب أحد وهو مالا نستطيع أن نؤكده . ولهذا نفضل الطرق السلمية الآمنة والمساعى الهادئة . فإذا لم تأت بنتيجة .. فسيبدأ دورنا .

والشيخ حسن كأب . يخشى من هذا الدور الذى قد يودى بحياة بعض البحارة أو يصيبهم بضر . فلا أحد يضمن العواقب . وكان لا شك يتمنى أن تؤتى مساعيه ثمارها وينجح فى مهمته التى بذل فيها الوقت والجهد والمال . ولكن ليس كل ما يتمناه المرء يدركه .

ويسرح الذهن فى أمور شتى ، وتغلبه العواطف .. ويرى أن يعود ثانية إلى لاس كورى حيث القراصنة الشداد العتاة فعسى الله أن يجد له مخرجاً ، وأفضى الشيخ حسن خليل برغبته إلى صديقه اليمنى

والمسئول الصومالى فقالا له وقد استغربا كلامه واستعجباه : لقد كنا هناك ولم تقدم شيئاً للحل . فما عساك أن تقدمه لهم إذا ما ذهبنا ثانية .. وقد شاهدت المطالب ؟ وطلب الشيخ حسن منهما أن يدعاه يرجئ الرد لحين عودته إلى لاس كورى ، ورجاهما أن يوافقاه على العودة جميعهم إلى لاس كورى . فعادا يُسمعانه : لقد طلبوا خمسة ملايين دولار ، وكان من الممكن أن يقبلوا بأربعة . وقلت لهم أنك لن تدفع شيئاً . فماذا لو تم تخفيضها إلى مليونين أو مليون .. هل ستدفع ؟ فقال لهم : بالطبع لا . فعادا يسألانه : إذن ما فائدة الرجوع ؟ ماذا ستفعل ؟ ويجيب الشيخ حسن بسؤال . وماذا سأفعل لو عدت إلى مصر !؟ أرجو أن توافقانى على تكرار المهمة والعودة إلى لاس كورى فعسى الله أن يقضى أمراً كان مفعولاً .

وافق الرفيقان على العودة مع الشيخ حسن خليل إلى لاس كورى وهما لا يريان سبباً وجيهاً لذلك أكثر من أنهما احترما رغبته ، رغم ما كان يعتلى نفوسهما من غيظ منه ، فقد أوهمهما قبل المجيء أنه على استعداد لأن يدفع للقراصنة .. ويحل مشكلة البحارة . ثم أعلن على مرأى ومسمع من الجميع ، وفى حضرة القراصنة .. أن المبدأ مرفوض وأنه لن يدفع شيئاً ، وقد كان هذا الإعلان كفيلاً بأن يعرض حياتهم للخطر ، وها هو يعلن أمامهما الآن أن عودته لن تكون للدفع ، فما الذى يريده لهما بالضبط ؟ ولكن .. ومع سابق كل هذه الاعتبارات ، فهما يقدران مشاعره كأب يفتقد ابنيه مع سائر البحارة والمركبين . ويقدران حالته المعنوية المنهارة ، وارتباكه فكرياً فى مصير ابنيه ورفاقهما بعد

فشل مباحثات التفاوض ، فلعل ذهنه شرد وانتابته حالة خوف من أن يقدم القراصنة على قتل ابنيه وسائر البحارة .. وقد فقدوا الأمل فى الحصول على قيمة الفدية . خاصة أنه سبق أن سمع بأذنيه هذا التهديد .

عاد الثلاثة إلى لاس كورى .. ويذاع ويشاع فى البلدة أن الشيخ حسن عاد ثانية مع رفاقه . واعتبر القراصنة عودته نصراً لهم فلا شك أنه راجع نفسه وأعاد حساباته وجاء بطرح جديد .. إلى هذا ذهب فكرهم .

وراح الشيخ حسن خليل مرة ثانية ينحر الذبائح ويقيم الولائم ويدعو القراصنة وذويهم إليها ، ويقدم الشيشة والقات . وتتكرر العزائم والاجتماعات وتكثر الأحاديث والشيخ حسن يأكل مالا يحب ويشرب ما يكره ويقدم لهم القات ، ولكنه فى غمرة هذا الحراك يمعن التفكير فى كيفية الوصول إلى حل للمشكلة التى عاود المجىء من أجلها ، والمعضلة هنا أنه لا يملك المبلغ الضخم الذى يطمع فيه القراصنة ويشترطونه للإفراج عن الرهائن فضلاً عن كونه يرفض المبدأ أصلاً ويجد غضاضة شديدة فى التحاور حوله .

فى خضم هذه الأحداث المتلاطمة ما بين نعرة القراصنة وشدتهم ، وبين ولائم الشيخ حسن واجتماعاته التى لم تسفر عن شىء ، وفى منحى آخر لاحظ البحارة حراكاً لافتاً بين القراصنة وبالأخص الموجودين فى اللنش الإيطالى " بيلوط " وبين أفراد القاعدة البحرية المتمركزة عن قرب والتى تتبعها الطائرة الهليكوبتر التى تحلق يومياً فى المنطقة ، وكان هناك اتصال بين الطرفين ، ففى كل يوم يتوجه فريق

من كل جانب بلنش بحرى ليقابل الطرف الآخر فى منتصف المسافة بينهما . ثم ما يلبث أن يعود كل منهما أدراجه .

وحارت عقول البحارة المصريين فى هذا التقارب ما بين جهة تمثل القرصنة والإجرام وأخرى تمثل الشرعية الدولية .. حسب مظنة البحارة ، خاصة أن هذا التقارب يجىء بعد أربعة أشهر من تواجد القاعدة العسكرية .. كان القراصنة خلالها يطلقون نيرانهم على الطائرة الهليكوبتر التابعة للقاعدة .. لإرهابها أو إسقاطها ، بما يعنى أنه لم يكن هناك ود على الإطلاق بين القراصنة وبين تلك القاعدة . فما الذى غير الأحوال وما الذى عساه يتم فى هذا التقارب ، وتلك اللقاءات ، وما هى إذن حقيقة هذه القاعدة وظروف تواجدها ؟ وما الذى خلق هذا الود أو ذاك التقارب بين الموجودين بالقاعدة وبين القراصنة ؟ أم ترى أن هناك شيئاً ما يتم بشأن هؤلاء الأسارى فى قبضة قراصنة أشداء منزوعى الرحمة ؟ أم أنه تُجرى ترتيبات معينة بشأن الأوضاع فى تلك المنطقة قد تكون فى صالح القراصنة وقد تكون مناهضة لأنشطتهم . إنها حيرة فوق حير البحارة الذين أصبحت نفوسهم ملأى بكل ألوان الحير والعذاب واليأس والقنوط والذل والخنوع والخوف والفزع والقلق والأرق والهواجس والتشاؤم والانهيار والسخط على الماضى والضيق من الحاضر والجهل بالمستقبل والإحساس بالدونية من قبل القراصنة وبالتهميش من قِبل ذويهم وعدم الإحساس بالساعات والأيام والشهور والزمن الذى يمر عليهم بطيئاً ثقيلاً قميئاً .

وفى مساء يوم الجمعة الموافق للسابع من أغسطس جرت بعض الأحداث اللافتة :

كان القمر بدراً ساطعاً فى السماء ينير المنطقة ، وكان الصمت المطبق يحط على المكان وما حوله . وبينما كان الجو حاراً طارداً للنوم وكان الجميع على يقظة من أمرهم ، فوجئ البحارة على المركبين بماكينات اللنش الإيطالى " بيلوط " تدار .. كان القراصنة يسمحون لأطقم القيادة فى المراكب الثلاثة بإدارة ماكينات المراكب بين الحين والآخر حتى لا يصيبها عطب يمنع تشغيلها عند إطلاق سراحها ، ولهذا لم تكن إدارة ماكينة أى مركب من المراكب الثلاثة أمراً غريباً ولكن الغريب هنا أن تدار ماكينة مركب فى هذا الوقت المتأخر من الليل ، والأغرب من ذلك أن ظلت هذه الماكينة دائرة طوال الليل ، لا تتوقف واللنش الإيطالى بيلوط به ماكينتان قوة الواحدة ٦٠٠ حصان تعطيانه قوة للسير بسرعة ٣٠ ميلاً بحرياً فى الساعة .

كما لاحظ البحارة أن اللنش الإيطالى يشهد فى تلك الليلة تجمعاً كبيراً للقراصنة على غير العادة ، وقد بدوا فيه وكأنهم يتشاورون أو يتفاوضون . وثمة شيء آخر لفت انتباه البحارة أكثر .. لقد راح اللنش يتحرك ويلف ويدور فى المنطقة وعلى متنه القراصنة ومعهم الأسرى الطليان .. ولكن البحارة بما عليهم من ضغوط وما يعيشونه من شد عصبى قد غلبهم النعاس فناموا جميعاً لا يلقون بالاً إلى مالا يعنيهم .

وعندما استيقظ البحارة صباح السبت كانت هناك مفاجأة من العيار الثقيل فى انتظارهم . لقد كان البحر من حولهم خالياً تماماً من أى إشغالات . فاللنش الإيطالى غير موجود . والقاعدة البحرية لا أثر لها . والطائرة اختفت .. كما اختفى كل القراصنة الذين كانوا على اللنش

الإيطالى وأيضاً الذين كانوا على الساحل .. وفى خطوة تالية تم إنزال جميع القراصنة الموجودين على مركبى الصيد المصريين ليحل محلهم قراصنة جدد ، وبسرعة اختفى القراصنة القدامى .. فما تفسير هذه الليلة الغريبة التى أحدثت هذه النقلة الحياتية . وما أسباب هذا التغيير الطارئ !؟

علم البحارة أن القاعدة البحرية التى كانت مرابطة بالقرب منهم ، كانت قاعدة إيطالية جاءت على أثر احتجاز اللنش الإيطالى لتكون إلى القرب منه ، وتطمئن على التواجد الآمن للبحارة . كما أن اللقاءات التى كانت تتم مؤخراً بين أفرادها وبين القراصنة لم تكن إلا مفاوضات دفع الفدية . كما علم البحارة أن الطليان دفعوا فدية مقدارها أربعة ملايين دولار مقابل الإفراج عن اللنش وبحارته ، وأن ذلك تم بعد مفاوضات عسيرة ولقاءات تأجلت المرة تلو الأخرى .. كانت إحدى هذه المؤجلات بسبب إحضار المبلغ باليورو وليس بالدولار حيث رفض القراصنة تقاضى عملة يجهلون قيمتها مما اضطر الطليان إلى استبداله من دولة قريبة والإتيان به دولارات ! أيضاً علم البحارة أن اجتماع القراصنة فى اللنش الإيطالى ليلة رحيله ، كان بقصد تقسيم المبلغ فيما بينهم . وأن الجميع قد أخذ حقه بالتراضى نقداً وعداً فيما عدا القرصان عمر عبد اللاه الذى اقترح فى هذا الاجتماع أن لا يتقاضى أى مبلغ مادى ، على أن يكون مركبا الصيد المصريين نصيباً له منفرداً . يأخذ وحده حصيلة التفاوض بشأنهما . فوافق جميع القراصنة . وبذلك آلت ملكية هذه العملية إلى المدعو عمر عبد اللاه . وبناء عليه غادر القراصنة القدامى

المركبين ، وجاء هو بقراصنة جدد تابعين له .. هم هؤلاء الذين اعتلوا المركب لتوهم .. وعلى وجوههم نفس شراسة أسلافهم وسلوكهم الفظ وزيادة .

واتضح أن القراصنة كانوا يبدون اهتماماً بالغاً باللنش الإيطالى نظراً لأهميته ، ولذلك كانوا يتواجدون بوفرة على متنه . كما كان هناك أنفار منهم على الساحل للحماية من أى محاولة هجومية مضادة خاصة فى ظل وجود قاعدة عسكرية مرابطة إلى القرب منهم ، وطائرة تحوم فوقهم . والغريب أن الطليان رغم كل هذا التواجد المسلح استسلموا للقراصنة ودفعوا الفدية ، وما أن انفض هذا السامر إلا وغادر جميع القراصنة المكان ، وخلا البحر أوكاد من المراقبة .. وحط السكون على المنطقة .

إذن لقد نجحت واحدة من عمليات الخطف ، وآتت أُكلها . وتراضى الجميع فى القسمة . وليس هكذا تمر الأمور دائماً . فعملية القرصنة فى حد ذاتها ، والنجاح فى السيطرة على مركب والعودة به إلى سواحل بونت لاند ، لم تعد فى ظل التواجد الأمنى المسلح المكثف لقوات حلف شمال الأطلنطى الذى يضم ٢٨ دولة فضلاً عن مشاركة العديد من دول العالم من مختلف القارات ومنها روسيا والهند وجنوب أفريقيا .. عملاً سهلاً مضمون العواقب ، فهذا التواجد الأمنى يلاحق القراصنة ، ويراقب السفن المارة ويؤمن خطوط سيرها . كما تسلحت الكثير من السفن التجارية التى تمر فى المنطقة للتصدى لأى اعتداء من القراصنة الذين يفاجأون فى كثير من الأحيان بتلك السفن تبادلهم النيران بكثافة

وشراسة فتقتل بعضهم وتأسر الباقين وتأخذهم معها . وقد تم حتى الآن قتل الكثير من القراصنة والتحفظ على العشرات الذين يتم أسرهم ثم تسليمهم بعد ذلك إلى المسئولين فى بونت لاند " رغم عدم الاعتراف بها " أو إلى كينيا إحدى دول الجوار للصومال لمحاكمتهم .

وعندما ينجح القراصنة فى الاستيلاء على مركب فإنه أحياناً ما تنشط الدولة التابع لها هذا المركب وتنفذ عملية عسكرية لتحرير المركب ، وإن كانت هذه العمليات غير آمنة .. لأنه بالطبع تحدث مواجهات شرسه مع القراصنة وربما تحدث خسائر بين الطرفين . يُذكر فى هذا السياق قيام البحرية الأمريكية بتحرير قبطان أمريكى كان محتجزاً من قِبل القراصنة فى عملية قُتل فيها ثلاثة من القراصنة ، وكذلك تحرير فرنسا لخمس رهائن من رعاياها فى مواجهة قُتل فيها رهينة وقرصانان ، ومواجهة أخرى نجحت فيها أسبانيا وخطفت قرصانين إلا أن القراصنة في وقت لاحق لذلك خطفوا ٣٦ صياداً أسبانياً واعتبروهم رهائن حتى يعيدوا القرصانين من مدريد . وكلها دلائل على خطورة عمليات القرصنة .

وحتى عند توزيع مبلغ الفدية كثيراً ما تحدث مشاحنات بين القراصنة وبعضهم البعض ، فبالرغم من أن هناك أسساً يتم التوزيع بموجبها ، ولهم محاسبون يختصون بتلك القسمة ، فإنه كثيراً ما تحدث خلافات بينهم . ومن أشهر خلافاتهم فى هذا الصدد يوم قاموا بتوزيع فدية مقدارها أربعة ملايين دولار تقاضوها للإفراج عن سفينة الصيد

الأسبانية .. فقد حدثت بينهم اشتباكات عنيفة سقط فيها عدد من القتلى والجرحى !

فعندما إذن ينجح القراصنة أولاً فى الاستيلاء على اللنش الإيطالى " بيلوط " واحتجازه على سواحلهم ، وعندما ينجحون ثانياً فى التفاوض مع الطليان ويحصلون على أربعة ملايين دولار للإفراج عن اللنش وبحارته ، وعندما يتم توزيعها فى هدوء وبالتراضى . فهذه عملية ناجحة على كافة المستويات ، وصفقة مكللة بالتوفيق .

ولكن وبعيداً عن حسابات القراصنة وصمود البحارة ، فلم يعد فى تلك البرية الموحشة وهذا الساحل الخالى إلا البحارة المصريون الذين اكتشفوا أنه رغم أن المكان كان يموج بالقراصنة بحراً وبراً ، وينوء بالإرهاب نهاراً وليلاً إلا أن وجود اللنش الإيطالى كان يعطيهم ونساً وألفة واطمئناناً ورضاء بحالهم .. كانوا يرون شركاء نهم من أوروبا فى هذه المحنة ، وربما ظنوا أن موضوعهم لهذا السبب يلقى اهتماماً عالمياً ، وربما توقعوا أن يتم الإفراج عن المراكب الثلاثة فى يوم واحد . ولكن ها هو الدهر يدير لهم ظهر المجن ، ويتقاعس الزمان عن إنصافهم وكأنهم مواطنون من درجة أدنى . إنهم يوقنون أن أهلهم فى مصر لا شك ساعون وجادون فى أمر إطلاق سراحهم . فمن بينهم شقيقان ابنا صاحب المركب الموجود حالياً فى بونت لاند لهذا السبب ، وثلاثة أشقاء أبناء عم صاحب المركب الآخر .. وهى قربى من شأنها حث صاحبى المركبين على التحرك والسعى فى أمر الإفراج عنهم . ثم إن البحارة جميعهم تربطهم معرفة وطيدة بصاحبى المركبين ، وهى

أمور باعثة على الاطمئنان بأن موضوعهم يؤخذ بمأخذ الجد . ولكنهم لا يلمسون شيئاً مستجداً فى أمر الإفراج عنهم ، وكلما سألوا القراصنة عن الأخبار يقولون لا جديد . يقولونها بلهجة من نفد صبره .. وأحياناً يضيقون الخناق على كابتن المركب ومساعده فى كلا المركبين ولا يدعوهم يقابلون بعضهم أو يتحدثون معاً وقد كانوا يلتقون دائماً ، يسبح بعضهم إلى البعض ويتبادلون الأخبار والرأى . كما كان أمراً معتاداً أن يقفوا على أطراف المركبين ويتجاذبوا الحديث .

الموقف كئيب . وليس على البحارة إلا الصبر طوعاً أو كرهاً حتى يقضى الله فى أمرهم .

وفى عودة إلى الأحوال المستجدة الآن نرى البحارة وقد أصبحوا فى زمرة قراصنة جدد جاءوا بشرهم ورهبتهم وحماسهم وعنفوانهم وشدتهم لينثروا الرعب على المركبين ويجددوا أجواء الإرهاب فى بدايات صارمة صادمة .

وعلى هذه الخلفية استجد مفاوض جديد أمام صاحبى المركبين هو القرصان الطامح إلى طمع عمر عبد اللاه مما سيزيد من صعوبة مهمة الشيخ حسن خليل فى لاس كورى ، وربما لنصل بعد كل ما سبق إلى نقطة البداية فى المفاوضات . فقد أصبح الموضوع خاصاً بفرد واحد بعد أن كان شيوعاً مع الكافة ، يوضع فى الاعتبار أن القرصان الجديد يريد وعلى وجه السرعة أن يقبض مثلما قبض أقرانه ويستريح ، ولا شك أنه فى قرارة نفسه يريد أن يتقاضى من هذه العملية أضعاف أضعاف ما تقاضاه زملاؤه فى عملية اللنش الإيطالى " بيلوط " ليثبت

لهم أنه أحسن منهم وأفضل وأذكى . وأنه فاقهم فى الربحية . وبالفعل بدأ يفاوض من جديد ضارباً عرض الحائط بكل الأرقام التى تم النزول إليها وراح يغالى فى مطالبه ويتشدد .. فقد كان قد مضى نحو أربعة أشهر دون أن يستجد حلاً . أما الآن وقد آلت إليه هذه العملية وحده فهو يريد أن يجد لها حلاً وعلى وجه السرعة . وبالطبع أن يرضى هذا الحل غروره ويشبع مطامعه ويمنحه نصراً على أقرانه وإحساساً بالتفوق .

سر المكاملة

أغرب رحلة صيد

إذن دخل الشيخ حسن خليل أجواء جديدة من المفاوضات التى عادت إلى نقطة البداية والصرامة والتعسف ، واللا اعتراف بأى تنازلات سابقة . وبدأت المطالبات التى تحمل المطامع فى مبلغ أكبر . وتتوتر الأجواء بشكل ملحوظ وتزداد العصبية والوقاحة والبجاحة وجميعها صفات تكسو سمات القراصنة دوماً . فهم لا يعرفون الذوق ولا الواجب ، ولا الأصول ولا الحقوق ، ولا يفرقون بين الحرام والحلال . ولكنهم أمام مفاوض هادئ يفهمهم جيداً .. فهو يمتص غضبتهم بسعة صدر ، ويحاورهم فى أدب ، ويتبسط معهم ويبتسم لهم ولا يبدى امتعاضاً لأى تصرف يأتونه . ثم إنه الضيف الحريص جداً على تقديم واجب الضيافة لهم ونصب الموائد يومياً .

وفى ملمح آخر نقول أنه إلى جانب هذه المحاولات العلنية والمكشوفة والتى تمثلت فى المآدب والولائم والاجتماعات والمناقشات ، كانت هناك اتصالات تتم بشكل سرى . فما أن سمعوا عن مواطن صومالى له ابن أو شقيق أو قريب أو حتى صديق ضمن مجموعات القراصنة ولا يحضر إليهم إلا وذهبوا إليه أو دعوه إليهم وتحدثوا معه على انفراد فى المشكلة ، وعرضوا عليه المبالغ المرضية مقابل مساهمته فى الحل . كما كان الشيخ حسن خليل بصفة خاصة يجرى كثيراً من هذه الاتصالات وحده وبدون علم صديقه اليمنى والمسئول

الصومالى . ربما تخفيفاً عنهم وقد استشعر أن كلاهما لم يأل جهداً فى سبيل البحث عن حل . وربما لأنه فى قرارة نفسه كان حريصاً جداً أن يخلق وداً خاصاً مع الصوماليين من مواطنى بونت لاند عل حلاً يأتيه من أحدهم .

وفى زخم هذا الحراك اليومى المتكرر حدث ما لم يكن فى الحسبان مطلقاً ، ولم يتوقعه الشيخ حسن بتاتاً . فما هو ذلك الشىء الذى اعترض وتيرة الأحداث وأذهل شيخنا الوافد إلى تفاوض ؟

لم يكن كل الذين يحضرون ولائم الشيخ حسن خليل من القراصنة أو ذويهم فقد كان هناك بعض الأفراد يندسون للظفر بوجبة غداء ، وينحشرون وسط المدخنين والمخزنين ، وكانوا أثناء المناقشات يقومون بدور المستمعين لا يتفوهون بكلمة . إنهم خارج اللعبة تماماً . ومع فرضية عدم الالتفات إليهم أو الاعتبار بهم ، كان الشيخ حسن على نقيض المفترض يهتم بهم ويبادرهم بالتحية والسلام كجبر خاطر . وقد عز عليه ضعفهم وبؤسهم وحاجتهم إلى هذا الطعام . والغريب أن هؤلاء المهمشين كانوا فى غاية النبل لا يدخرون جهداً فى تقديم أى أعمال خدمية للشيخ حسن . وقد جاءه أحدهم يوماً خلسة فى غير موعد غداء يحذره من أن بعض القراصنة المشتطين غضباً من مناوراته وتعنته فى دفع الفدية ، قابلوا المسئول الصومالى عبد الواحد وعرضوا عليه سيارة جديدة قيمتها ٣٥ ألف دولار كهدية مقابل تخليه عن الشيخ حسن ، ليتم التحفظ عليه والتفاوض بشأنه .. ويكون ورقة ضاغطة على المصريين للالتزام فى دفع الفدية كاملة !

وأكد الصومالى أنه شخصياً سمع هذا الحوار . وأن المسئول الصومالى عبد الواحد يأخذ وقته حالياً ليفكر فى الأمر . وقال الصومالى أنه عز عليه أن يُغدر بالشيخ حسن .. ذلك الرجل الطيب الكريم ، فجاء يفضى إليه بما سمعه ليأخذ حذره .

وعلى خطورة ما سمع الشيخ حسن ، فقد تظاهر أمام الصومالى بالثبات وربما بعدم الانشغال بالموضوع ، وشكره وأنقده بعض المال على سبيل المجاملة أو الترضية .

ورغم ثقة الشيخ حسن المفرطة فى صديقه اليمنى والمسئول الصومالى .. فقد أخذ هذا الحديث بمأخذ الجدية التى توجب الحذر . ومن أغرب ما حدث بعد ذلك وأكد صدق ما تنامى إلى مسامعه من الصومالى الواشى أن اختفى عبد الواحد تماماً عن ناظريه ليومين متتاليين . وهو الذى كان ملازماً له كظله !

ولم يجد الشيخ حسن خليل حرجاً من مكاشفة صديقه اليمنى بما سمعه ويظنه صدقاً . وقد حزن اليمنى لذلك حزناً لم يستطع إخفاءه . وجدَّ فى الاتصال بعبد الواحد ليكون معهما إلى الجوار .. متعايشاً مع كافة الأحداث . ولكن هيهات أن يطمئن الشيخ حسن له بعد ذلك ، وهو الذى أودعه سره وتوسم فيه الإخلاص .. وأعطاه مقابل انتقاله وتعبه . لقد كانت هذه الواقعة صادمة للشيخ حسن وطاعنة فى مقتل ، وقد راح يستعرض فى مخيلته كيف آمن لهذا الصومالى الذى رآه متحمساً للمشكلة مبدياً عدم رضاه عن سلوك أهل منطقته " بونت لاند " وكان سابقاً هو الذى عرض المجىء إليهم ومقابلتهم والتفاوض معهم حتى

ينهى المشكلة ، ولم يخطر على بال الشيخ حسن إطلاقاً أن يأتيه الغدر من حيث آمن ، وأن يراود هذا المسئول الصومالى نفسه حول التخلى عنه مقابل سيارة جديدة يأخذها رشوة على صورة هدية .

لم يندم الشيخ حسن خليل على شيء فعله . فهو لم يودع كامل سره فى هذا المسئول الصومالى ولا حتى فى الصديق اليمنى . لقد كان دائماً يفضل أن يحتفظ ببعض الأسرار لنفسه على عقيدة أنه إن لم يستطع كتمان سره . كيف يطالب غيره بكتمانه !؟

كم يتمنى الشيخ حسن أن ينفض هذا المولد وتنتهى هذه المشكلة على خير . لقد أصبح الخطر يحيق به شخصياً وقد حسب نفسه فى مأمن .. تحميه قوات خاصة قوامها ستة عشر فرداً مسلحين آلياً . ويتوه عقله فى أشتات من الخيال .. كيف سيكون موقف هذه القوات لو أن غدراً طاله أو شراً ناله . هل كانت ستقوم معركة بين الأفراد الموالين والأُخر المناوئين ؟ وهل ستسفر هذه المعركة عن قتلى ؟ أم أن تلك القوات التى استأجرها لتحميه من الممكن استقطابها هى الأخرى بالمال فتبيعه لهم وتلوذ بالفرار ، وهو بالنسبة للجميع غريب لا قيمة له ؟ وهل كان المسئول الصومالى المرافق له يأخذ وقته للتفكير فى هذه الجزئية تحديداً ؟ أم أنه تعدى هذا التفكير ويحاول حالياً استمالة هؤلاء الأفراد ؟ أسئلة عنقودية باعثة على الشك والحيرة .

ويحاول الشيخ حسن طرد هذه الهواجس من عقله وإزاحة هذا الموضوع برمته عن تفكيره ليتفرغ مجدداً للمشكلة التى أتى لحلها . ولكن غصباً عنه يأبى هذا الموضوع على الزوال من مخيلته . لقد

أحدث جرحا يجافى الاندمال ، وشرخاً فى الصدر يرفض الالتئام ، وغصه فى النفس تستعصى على الزوال . وليس أصعب من غدر الصديق إلا غدر الرفيق .

وأخيراً تعتريه نزعة إيمانية قوية . ويرى نفسه على مظنة عقائدية أنه لو اجتمع الناس على أن ينفعوه بشىء فلن ينفعوه إلا بشىء قد كتبه الله له . ولو اجتمعوا على أن يضروه بشىء فلن يضروه إلا بشىء قد كتبه الله عليه . وأنه لا داع أبداً للتوجس خيفة من سلوك إنسان مهما مكر وأضمر شراً .. فالله خير الماكرين . ويتذكر قوله تعالى " قُلْ لَن يُصِيبَنا إلا مَا كَتَبَ اللهُ لَنَا " .

ويعود الشيخ حسن خليل أدراجه مستمراً فى أداء رسالته .. وها هو لم يزل يقضى الأيام تلو الأيام على ذات الشاكلة من الولائم والعزائم والاجتماعات حول مواقد الدخان ولفائف القات ، ولم يسفر شىء من هذا الكرم والود عن أى تنازلات من القراصنة . فما أن تُفتح سيرة القراصنة إلا وتوصد الحلول !

وذات يوم ، وكان الشيخ حسن قد انفض لتوه من أحد هذه الاجتماعات .. تلقى مكالمة تليفونية من الحاج سمارة نصر ، فرد عليه وما هى إلا لحظات حتى مادت به الأرض وبهت بما سمع . فما الذى قاله الحاج سمارة نصر من عزبة البرج للشيخ حسن خليل فى لاس كورى وجعله على هذه الحالة من الذهول ؟ لقد ذكر الحاج سمارة نصر للشيخ حسن خليل تفاصيل ذلك الاجتماع الذى انفض منذ لحظات وأخبره بما قاله فيه وما قيل له !

من أين علم الحاج سمارة بذلك ؟ لقد كان الصديق اليمنى والمسئول الصومالى مع الشيخ حسن لم يتركانه حتى يظن أن أحدهما اتصل بالحاج سمارة وأبلغه بما حدث . ثم إنه لم يكن فى هذا الاجتماع خلاف ثلاثتهم إلا الصوماليون أبناء بونت لاند من القراصنة وذويهم . فمن ذا الذى نقل تفاصيل هذا الاجتماع إلى مصر . وتحديداً إلى الحاج سمارة نصر !؟

الإجابة عن هذه الاستفسارات تعيدنا إلى الوراء قليلاً .

كان الحاج سمارة نصر فى مسعاه من أجل حل المشكلة – وهو الذى اختص بالشق الخارجى لها حسبما الاتفاق مع الشيخ حسن خليل – قد التقى بكثير من المصريين والعرب.والأجانب .. كلُ يعرض خدماته بالمقابل المادى ، وقد استشعر أن كل الذين قابلهم لم يكن عندهم إلا النذر القليل مما عنده من معلومات عن القرصنة والقراصنة ، فكان يتملص منهم ويبتعد عنهم مستشعراً أنهم نصَابون ومحتالون . إلا أنه ورغم كل هذا الاحتياط فى التعامل معهم وتوخيه الحذر فى ألا يقع فريسة لأحدهم . مازال يتذكر أنه وقع فى شراك أحد الصوماليين وأعطاه مبلغاً مقابل تسهيل إنهاء الأسر عندما يصل الشيخ حسن إلى بونت لاند .. وقد ادعى هذا الرجل أن له صلة بالقراصنة . ولا يعرف الحاج سمارة نصر لماذا صدق هذا الرجل تحديداً ومنحه بعض المال ، ربما فى تبرير ضعيف نقول أنه كان مدفوعاً إلى تسهيل مهمة الشيخ حسن فى الصومال ، وتوسم خيراً فى هذا الشخص .

ورغم أن الحاج سمارة قد نسى سحنة هذا الشخص تماماً . وتناسى واقعة لقائه به إلا أنه فوجئ بمكالمة تليفونية من هذا الشخص نفسه أبلغه فيها أنه يواظب على حضور كل اجتماعات الشيخ حسن مع القراصنة وزعماء القبائل والعشائر . وأنه كثير الدفاع عن الشيخ حسن ويقف إلى جانبه . وحتى يصدقه أعطاه بعض ملامح اللقاء الأخير للشيخ حسن مع القراصنة وأهلهم ، وقد نقل الحاج سمارة نصر إلى الشيخ حسن ما سمعه لتوه من الصومالى .. ربما بقصد التأكد أو الاستفسار عما إذا كان ذلك قد حدث بالفعل أم لا . وقد أكد الشيخ حسن أن ما نقله الصومالى للحاج سمارة هو ما حدث بالضبط ، وأضاف له أنه كان بالفعل يحس منذ بدء المفاوضات فى المرة الأولى . ثم عند استئناف الجلسات فى المرة الثانية التى عاد فيها إلى لاس كورى أن هذا الشخص تحديداً موال له ويتحدث لمصلحته ، بل كان يصد عنه اندفاع القراصنة ويواجههم مرة بالعنف ومرة بالهدوء .. متظاهراً أنه يريد لهم الوصول إلى حل يقبله الطرفان ويكون فى مقدور الشيخ حسن . بل إنه لم يندفع وراءهم فى دائرة الملايين التى يطلبونها ولم يفرض على الشيخ حسن حتى تاريخه أى رقم يلتزم بدفعه . بل لعله كان يريدهم أن يتركوا له المركبين والبحارة !

كل ذلك لأنه قبض شيئاً يسيراً من المال أعطاه إياه الحاج سمارة نصر .

وبدأ الشيخ حسن يركز أكثر فى أمور القراصنة .

أنهم ليسوا على شاكلة واحدة . فمنهم المتعصب ومنهم المستكين ،

ومنهم الشرس ومنهم الهادئ ، ومنهم الطامع ومنهم القانع ، ثم إنهم ليسوا يداً واحدة كما يظن بل من الممكن اختراقهم والتعامل مع بعضهم ضد بعضهم ، والدليل ذلك الشخص الذى هو منهم بينما هو ضدهم فى آرائهم وأفكارهم ومطالبهم ، ويعمل لصالح الشيخ حسن ويخبر الحاج سمارة بما يدور فى تلك الجلسات المغلقة . ناهيك طبعاً عن الصومالى المندس وسطهم ونقل إليه شبهة التواطؤ المحتمل بين عبد الواحد ومعشر القراصنة .

وفى سياق متصل تلاحظ له شيء آخر مشابه . إنه فى كل اجتماع ينفض ، ينصرف القراصنة بينما يتأخر أحدهم ، ويتلكأ فى الانصراف ويكون آخر من يغادر المكان . كما أن هذا الشخص تحديداً لم يبد عصبية أو تشدداً ، ومن الممكن أن يستميله بالمال ويستفيد منه . ولكن ما الذى سوف يستفيده الشيخ حسن من هذا الشخص ؟ هذا هو السؤال الذى يطرح نفسه أو يفرض نفسه .

وكانت وليمة دعا إليها الشيخ حسن رجال القبائل والقراصنة ، وبعد الأكل والشرب والتدخين والتخزين ، وبينما راح الجميع ينصرف وجد الشيخ حسن ذات الشخص يتلكأ فى الانصراف فجذبه من يده برفق ليتأخر قليلاً حتى ينصرف القراصنة . ثم قال له الشيخ حسن بصوت خافت : أريد أن أرى أولادى ، وسأجزيك . قالها الشيخ حسن على سبيل المجازفة وقد بدا لنفسه أنه كمن ألقى بقنبلة وينتظر ما عساها تفعله . وكانت المفاجأة المذهلة أن وافق القرصان على الفور وقال له : آتى لك بأولادك الاثنين تراهم . فبادره الشيخ حسن بقوله " لا .. كل

البحارة الخمسة والثلاثين أبنائى . أريد أن أذهب إليهم لأراهم ، ولو من بعيد " .. وإيجاباً وبدون تفكير وافق القرصان وكان اسمه على ، ولتفعيل الإجابة بشكل عملى سريع مد الشيخ حسن يده فى جيبه وأخرج مبلغاً مجزياً وأعطاه للقرصان الذى تناوله بسعادة وأخفاه بسرعة فى ملابسه .. وعلى أثر ذلك تم الإعداد سريعاً لهذه الرحلة المفاجئة ، وتم استحضار عربة نقل ، وقد رأى الشيخ حسن أن يصطحب معه صديقه اليمنى ، وبالطبع الحراسة المسلحة وقوامها ستة عشر فرداً .. وبدأ الركب فى الرحيل إلى سواحل لاس كورى حيث ترسو المركبان وعلى متنهما البحارة وبينهم ابناه .

هى رحلة بين الأدغال وبين الأحراش وبين الرمال وبين الجبال وبين الوهاد راحت السيارة تجوبها فى مشقة .. فالطرق ضيقة ووعرة وملتوية والجو خانق .

كنا عصر يوم الأربعاء ١٢ أغسطس عام ٢٠٠٩ ولم ير الشيخ حسن خليل ابنيه منذ شهر مارس الذى رحلت فيه المركبان إلى تلك الرحلة المشئومة . وهى مدة طويلة مرت على البحارة بأطول من زمانها وعاشوا أردحاً منها فى جو إرهابى مرعب وحرمان من المأكل والمشرب . عاشوها خدماً لقراصنة الصومال الذين فرضوا عليهم أوامرهم بالسلاح وأسرفوا فى إطلاق النار لأتفه الأسباب ، ولم ير البحارة بارقة أمل خلال هذه الفترة التى امتدت إلى نحو أربعة أشهر إلا عند علمهم بمجيء الشيخ حسن إلى بونت لاند للتفاوض وإطلاق سراحهم . ولا شك أن كل بحار حلم برؤية أسرته وأهله ويستعجل يوم

الرحيل ، وكان ابناه على وجه الخصوص دائمى الاتصال به عبر جهاز المحمول ذى الشريحة الصومالية الموجود فى المركب " أحمد سمارة " لمتابعة الموقف والوقوف على آخر المستجدات . كما كان بدوره يتصل بهما إذا ما استجد جديداً أو أراد الاطمئنان عليهما وعلى سائر البحارة من خلالهما . ومن إحدى هذه المكالمات علم الابنان بخبر قدومه إليهما ، وأخبرا البحارة ، إلا أنهما طلبا منهم تكتم الخبر حتى لا يفطن القراصنة الذين يحرسونهم إلى أن هناك اتصالات تتم بينهم وبين الشيخ حسن .

ويبدو أن الشيخ حسن كان يفكر فيما كان يفكر فيه البحارة . وخشى من عاقبة انتشار خبر وصوله إلى المركبين وما قد يصحبه من مظاهر يحس بها القراصنة على مركبه فيستشعرون أن هناك اتصالات تتم بين البحارة وبين الشيخ حسن أو العوالم الخارجية . فقام بدوره بالاتصال بالقراصنة على مركبه عبر جهاز الثريا الذى يتحفظون عليه ، وأخبرهم بمجيئه . والطريف أن القراصنة أخبروا البحارة بذلك ووصل الخبر إلى المركب الآخر .. وساعتها انفجر البحارة على كلا المركبين معبرين عن فرحتهم وسعادتهم .

لقد أفرغوا شحنة كانوا يتكتمونها خوفاً من شك القراصنة فيهم . ولكن هاهم القراصنة بأنفسهم هم الذين يخبرونهم . وقد راحوا جميعاً يترقبون مجيئه .

لم تكن المسافة بين لاس كورى وساحلها الذى يتوجه الشيخ حسن إليه الآن مع ركبه ومرشده الصومالى الذى هو أصلاً قرصان منهم ..

بعيدة ، ولكنها لصعوبة الطريق .. كانت تستلزم نحو الساعتين . وعلى مدى هاتين الساعتين تعمد الشيخ حسن أن يرصد المنطقة جيداً ، وأن لا تكون مشاهداته عابرة ، واهتم بمراقبة الطريق وما يتواجد على جانبيه .. كان يريد أن يعرف مدى العمران والتواجد البشرى على بر لاس كورى بالقرب من الساحل الذى ترسو عليه المركبان .. ومدى سيطرة القراصنة على المنطقة ، وحجم تواجدهم .. أرادها رحلة عمل ورصد ومراقبة أكثر منها نزهة ورغبة فى رؤية الأبناء والبحارة ، فقد تجاوز هذه العاطفة وكان دائم التواصل تليفونياً معهم ويعرف كل شىء عن أحوالهم ، إنه يضمر الآن فكرة خلاصهم بالقوة من براثن هذا الأسر الصومالى المهين . ويعرف أن العقدة ليست فى وجود القراصنة المسلحين على المركبين ، فهو يثق فى قدرات البحارة على ابتلاعهم . العقدة تكمن فى الحراسة البرية التى ستنشط فى إعادتهم إذا ما فكوا أسرهم وهربوا بالمركبين . ولهذا السبب نشط فى مراقبة المنطقة جيداً واستطلاع خباياها على طول الطريق المؤدى إلى ساحل لاس كورى الذى وصلوه بعد عناء ومشقة .

كان الصمت الرهيب يلف المكان الخالى تماماً من كافة مظاهر الحياة . فليس إلا الساحل خالياً ، والبحر هادراً ، وطيور النورس تحوم فى السماء ، وصرير رياح تتواتر فى برودة . هى الطبيعة كما خلقها الله أول مرة .

وأبصر الشيخ حسن خليل المركبين ، وشاهد على البعد بعض البحارة ، وعندها انتفضت مشاعره وتدفقت الدماء فى وجهه . وتحجر الدمع فى المآقى .. فما أصعب الأسر والقهر والذل . ولكن الشيخ حسن

تمالك أعصابه .. فهو يود أن يظهر أمامهم قوياً وألا يبدى ضعفه أبداً . لقد كان يناور ويحاور ويفاوض ويهاجم ويشاكس ويُصدِم ويصمد ويستهلك قواهم الفكرية ويجعلهم يتضاربون فى مشاعرهم ويتخبطون فى أقوالهم .. بينما يبدو صلداً قوياً متيقظاً أمامهم ، ولعل صموده كان محل إعجابهم أو دهشتهم أو حيرتهم أو غيظتهم وهم لا يدرون أن ذلك هو الجزء الظاهر أو الذى أراد أن يبديه لهم .. أما هو فهو أولاً وأخيراً أب . جاء يبحث عن ابنيه ، ويريد فك أسرهما وعودتهما مع سائر البحارة إلى أهلهم وبلدهم بعد مشقة ومذلة ورعب وقلق طال أمده .. وقد جاء لحل المشكلة بأى طريقة . ولكن المشكلة استعصت على الحل لأنه لم يكن هناك إلا طريق واحد لحلها . وهو أن يدفع تلك الأرقام الجزافية التى يطمعون فيها كفدية ، أو كثمن لإجرامهم وهو يرى نفسه ضد هذه الفكرة تماماً . ولا يستطيع أن يسلك مثل هذه الطرق من الحلول التى تكبده ما لا يطيق مادياً ومعنوياً . وليس أصعب من الخسارة المادية إلا الهزيمة المعنوية .

ويشاهد بعض البحارة رَكب الشيخ حسن خليل يصل إلى الساحل . ويتّبينه نفر منهم من بين جماعة الوصول " اليمنى والصومالى الوسيط والسائق وقوات الحماية المرافقة وقوامها ستة عشر مسلحاً " .. ويتنادى البحارة على كلا المركبين ويتزاحموا على الجوانب والحواف ، وينادون الشيخ حسن الذى سمعهم وراح يلوح لهم .. وتنفجر عاصفة من التهليل والتكبير .. ويبدى البحارة سعادتهم بوصوله ، وترتفع الأيادى ملوحة ومرحبة وكل شخص يتهيأ له أن الشيخ حسن يراه تحديداً ويبادله التحية .. رغم زحامهم ، وقد كانت المسافة بينهم وبين الشيخ حسن نحو

أربعين متراً من مياه خليج عدن . وقد أحدث هذا الضجيج الطارئ انزعاجاً لجماعة القراصنة المكلفين بحراسة المركبين وظنوا أن السيطرة ستفلت منهم . وراحوا يراقبون الجمع المحتشد على كلا المركبين فى يقظة بالغة وحذر شديد .. خوفاً من أى مباغتة يفاجئهم بها البحارة ويأخذونهم على أثرها عنوة . لقد وجدوا أن روحاً جديدة انتابت البحارة وكأنهم استمدوا قوة من وجود الشيخ حسن عندهم . وقد جيء للشيخ حسن بلنش فركبه مع صديقه اليمنى محمد النهدى والقرصان على . وعندما تحرك اللنش بهم سأله قائده : أىْ المركبين تحب أن تذهب أولاً. ورد الشيخ حسن : المركب " أحمد سمارة " . ولم يكن الشيخ حسن هو صاحب المركب " أحمد سمارة " ، ولم يكن أبناؤه فيه .. ولكنه إيثاراً منه وتكرماً أراد أن يبدأ بالاطمئنان على البحارة فى مركب صديقه الحاج سمارة نصر أولاً ثم يتوجه إلى مركبه ثانياً فيطمئن على ابنيه وبحارته !

واتجه اللنش الذى يقلهم ناحية المركب " أحمد سمارة " وفجأة وبينما كان اللنش فى منتصف المسافة ولم يعد بينه وبين المركب " أحمد سمارة " سوى عشرين متراً .. حدث ما لم يكن فى الحسبان ، لقد هاج البحر وانقلب بغتة ، وارتفعت أمواجه وتلاحقت فى شدة وجبروت وعصفت الرياح واعتم الجو وانقلبت الأحوال الجوية فى لحظات رأساً على عقب ، وامتلأ اللنش بمياه الأمواج وتعطلت ماكينته .. وأوشك على الغرق . وفى ظل هذه الظروف المباغتة ارتبك قائد اللنش ولم يستطع أن يكمل وصوله إلى المركب بأى شكل ، وبدا تائها لا يدرى من أمره شيئاً فى هذا البحر الهائج .

جرت هذه الأحداث على مرأى من البحارة الذين راعهم ما رأوا .. واحتبست الأنفاس خوفاً على الحاج حسن ومن معه .. وملأ الحزن قلوبهم ، واتضح عدم خبرة قائد اللنش ، وإخفاقه فى محاولة الوصول لأحد المركبين .. فقد ظلت الأمواج تلاطمه فى عنف وهو عاجز عن عمل شىء .

لم يكن الشيخ حسن ولا البحارة على المركبين يتوقعان هذا الموقف الطارئ . لقد كان الخليج هادئاً ، ولم يعط أية دلائل لتلك الثورة المفاجئة .. ولكنه البحر لا يدرك أغواره أحد .

وفى وسط هذا الخضم الهائج استطاع قائد اللنش أن يدير ماكينة اللنش ثانية ، وقام بتغيير وجهته وعاد إلى البر .. ليتنفس الجميع الصعداء .. ويحمدون الله على السلامة .

ويقف الشيخ حسن مع صديقه اليمنى ومرافقهما الصومالى الذى سهل له المجىء إلى هذا المكان ومن خلفهم الحماية المسلحة لهم .. ينظرون إلى البحر الذى هو الخليج الذى فاجأهم بما لم يتوقعوه . وحرم لقاء الأب بولديه وبحارته ، وكان قاب قوسين أو أدنى من هذا اللقاء .. وهم فى دهشة من أمرهم .. ومما حدث لهم . وتظل الأمواج ثائرة تلاحق بعضها فى عنف وتضرب الساحل فى جبروت مصدرة أصواتاً صاخبة . وينتظر الجميع لفترة عساها تهدأ فجأة كما هاجت فجأة ، ولكن الرياح واصلت عصفها والأمواج ازدادت شدتها .. وتلبد الجو بالغيوم وازدادت عتامته .. وكانت حتمية العودة من الساحل إلى الداخل حيث لاس كورى .. تلك البلدة البعيدة عن ساحلها بنحو ساعتين من السفر

فى طرق عبارة عن مدقات بدائية .. ضيقة .. خانقة رغم رحابة المكان من حولها !

وبينما يسير الركب عائداً ، يسرح الشيخ حسن فيما حدث ويسائل نفسه مندهشاً . ما هذا الذى تخبئه الأقدار ؟ كيف يكون على بعد خطوات من أبنائه وبحارته ولا يستطيع الوصول إليهم . لقد خابت الرحلة كما تخيب المفاوضات مع القراصنة ، وبدت كل المحاولات وكأنها مسدودة أمام الشيخ حسن الذى يعود مقهوراً الآن مع ركبه إلى لاس كورى بينما ترك البحارة فى حالة من الذهول .. كيف يكون الشيخ حسن أمامهم يرونه ويراهم .. ويتهيأون لاستقباله وقد أصبح على بعد أمتار معدودة منهم ثم ينقلب البحر فجأة على هذه الشاكلة ، وتعلو أمواجه وتُعطل اللنش الذى يقله .. بل كادت تغرقه ، وترغمه على العودة دون أن يكون لقاء . وهم لا يوقنون إن كان آتيهم ثانية .. أم أن الظروف لن تسمح . لقد كانوا بلا شك يريدون أن يسمعوا منه كيف تسير الأمور مع القراصنة وإلى أين وصل على طريق المفاوضات وما النتيجة التى يرتآها . كانوا يريدون أن يطمئنوا على حالهم ومصيرهم وموعد عودتهم بعد أن نفد صبرهم تماماً فى هذا الجو المفعم بالرعب والمشحون بالإرهاب . وأصبحوا لا يطيقون المكوث لحظة بعدما طال البقاء وامتد . وأصبح الموت أهون عليهم من حياة بمثل هذا الشكل .

كان لابد أن يعود الشيخ حسن مع رفاقه إلى لاس كورى ولا مناص من ذلك ، فمنطقة الساحل محفوفة بالمخاطر ، ومن الصعب رغم الحماية المسلحة المرافقة له أن يستمر بها طويلاً . لقد جاء بمحاولة

فردية من قرصان قبض ثمن فعلته ، ولا ينبغي أن يورطه مع زملائه القراصنة الذين قد يوبخونه على ما فعل إذ هم علموا ، أو يوجهون له اتهاماً بالخيانة قد يقتلونه على أثره . ثم إن المنطقة ملأى بالمخاطر الطبيعية والحيوانات الضالة والمفترسة ، ويجب عليه الرحيل منها لائذاً بالأمان . كل هذه الأفكار وزيادة كانت تدور فى ذهن الشيخ حسن وتراوده فآثر الرحيل وقد اعتزم فيما بينه وبين نفسه أن يعاود المحاولة فى وقت لاحق ، فلا ينبغى أبداً أن يأتى مسافراً من مصر إلى اليمن إلى جيبوتى إلى بونت لاند ، ومن بوصاصو إلى لاس كورى إلى الساحل الذى يتراكى عليه المركبان وعلى متنهما البحارة فإذا ما كان بينه وبينهم أمتار يخفق فى الوصول ويعود . أسفار بالجو والبر والبحر ولا يصل إلى البحارة الذى ينفطر قلبه من أجلهم .. هذا لا ينبغى . وهو على العموم استمرأ الصبر والدأب فى هذه البرية القاحلة وأهلها السود وسلوكياتهم الهباب .

فى الطريق إلى لاس كورى سلك الركب العائد نفس الطريق الذى جاء منه ، وبينما هم سائرون فى هذا الطريق الضيق الوعر الملتوى لا شك تنتاب الوجوه مسحة من الحزن لفشل المهمة .. انتفضت إليهم فجأة مجموعة من القراصنة المسلحين .. واعترضت مسيرتهم ، فوقفوا لها.. بينما استعدت القوة المسلحة .المرافقة للشيخ حسن وتأهبت للتعامل معهم إذا ما كان هناك غدر . وسألوا الشيخ حسن – وهو الذى بدا لهم غريباً ، كما كان يركب فى كابينة العربة النقل على خلاف الصوماليين الذين كانوا متراصين فى الصندوق الخلفى – سألوه على هويته

ومهمته . ولأنه لم يفهم لغتهم فقد انبرى القرصان المرافق " على " يذكر لهم أنه أحد صاحبى المركبين المصريين المحتجزين . وقد جاء بونت لاند للتفاوض ودفع الفدية . وأنه كان يريد الاطمئنان على المركبين والبحارة .. وتفهم القراصنة مهمتهم وصفحوا عنهم ولكنهم رفضوا أن يستكملوا عودتهم من هذا الطريق لأنه خاص بهم – بالقراصنة – وفرضوا عليهم العودة ليسلكوا طريقاً آخر .. كان أكثر طولاً ووعورة والتواء . واستغرقت العودة منه أكثر من أربع ساعات .. وصلوا بعدها إلى لاس كورى التى ما أن وصلوها ونزلوا من العربة ، حتى انتحى الشيخ حسن بالقرصان على جانباً وأشار إليه بأصبعين قائلاً " دوبل " وأردف قائلاً : سأعطيك دوبل . الثمن مضاعف .. ونعود ثانية .

وللمرة الثانية يسيل لعاب القرصان من أجل المال . فهى مكاسب خاصة يتحصل عليها بعيداً عن مشاركة زملائه القراصنة . ووافق على الفور قائلاً وكأنه يشرح لهم معضلة .. أو كأنه أراد أن يسدى إليهم نصائح يحلل بها ما يتقاضاه من مال : كان البحر هائجاً اليوم ساعة العصر . ولكنه دائماً ما يكون هادئاً فى الصباح . فليكن موعدنا فى التاسعة . ووافقه الشيخ حسن على هذا المقترح واستراح لمعاودة المهمة الهامة من وجهة نظره والتى يراها تتعدى حدود العاطفة ورؤية الأبناء والبحارة . ويسرح فى بعض تصورات السيناريو المقبل .. ولم يخرجه من سرحته إلا رنين التليفون المحمول . وقبل أن يستجيب بالرد .. سكت المحمول . إذن هى " رنة " أو إشارة من أبنائه لأن يحادثهم . وعلى الفور طلب الشيخ حسن ابنيه اللذين كانا يريدان الاطمئنان على

وصوله ويسألانه عما ينتويه . وأخبرهما الوالد أنه سيعود إليهم فى الصباح حيث يكون البحر أكثر هدوءاً . وبسرعة شاع الخبر بين البحارة ، وشاعت الفرحة والبهجة والأمل فى سماع أخبار جديدة تفك حبسهم ونحسهم . وإن غداً لناظره قريب .

وقبل أن نطوى أحداث الرحلة الفاشلة ، نستعرض ملمحاً فى غاية الأهمية . لقد ذهب الشيخ حسن خليل من بلدة لاس كورى إلى منطقة الساحل من طريق وعاد من آخر . وقد هيأ له ذلك فرصة معرفة المنطقة واستكشاف أبعادها ومواقع تمركز القراصنة . ولعل رحلة الغد ستعطيه رؤية أكبر ، وكلها معلومات ستكون غاية فى الأهمية لمعرفة ماهية القراصنة ومدى سيطرتهم على المنطقة براً وبحراً . وستقدم رؤية لمعرفة مدى إمكانية تنفيذ البحارة لعملية انقضاض على القراصنة الموجودين معهم على المركبين دون أن يتحسبوا للبر ومخاطر مطاردة القراصنة المرابطين به . تلك العملية التى كثيراً ما راودت البحارة على كلا المركبين حتى أن طاقمى القيادة اتفقوا على " كلمة السر " التى بمقتضى إعلانها تبدأ عملية الانقضاض على القراصنة فى كلا المركبين لم يكن يقلقهما إلا البر .. هذا الساحل الذى كانوا أحيانا يرون عليه نحو خمسة عشر قرصاناً . ولا يعرفون إن كان لهم بقية بين وهاد المنطقة ونجادها أو مدداً .. أم لا . وهى قوة ستلاحقهم لا محالة إذا ما نفذوا عملية الهروب ، والشيخ حسن خليل أحيط علماً بأنه يوجد ستة قراصنة على كل مركب وهو يدرك تماماً أن البحارة أقوى من أن تأسرهم مجموعة من ستة أنفار مهما كان سلاحهم ، ولكن البر الذى يتخفى فيه

باقى القراصنة المسلحين الذين سينتفضون إزاء أى محاولة خلاص على المركبين .. هم الخطر المستطير الذى لابد أن يُعمل له ألف حساب .

فى الصباح التم الشمل : الشيخ حسن والقرصان الموالى " على " والصديق اليمنى محمد النهدى والقوة المسلحة المرافقة ، وبدأت الرحلة ثانية إلى لاس كورى متخذة نفس الطريق الذى ذهبوا منه بالأمس والذى تواجد فيه القراصنة عند عودتهم منه . كان الجو مكتوماً يشع بالحرارة بما يعطى انطباعاً بأن البحر سيكون هادئاً على خلاف الأمس . والبحر الذى نقصده بالطبع هو خليج .. خليج عدن الذى يمتد فيما بين البحر الأحمر شمالاً متصلاً به ومنفصلاً عنه بمضيق باب المندب ، والمحيط الهندى جنوباً . وفى بقاع الضفة الغربية لهذا الخليج يقع ساحل لاس كورى .. إحدى مناطق بونت لاند المنشقة عن الصومال .. وتتسع هذه الضفة لتشمل دولة أرتيريا وجيبوتى وأيضاً الصومال لاند وبونت لاند اللتين انفصلتا عن جمهورية الصومال مؤخراً .

ولأشد ما أدهش الشيخ حسن فى هذه الرحلة التى مازال يقطعها الآن مراقباً وملاحظاً ومنتبهاً أن المنطقة خالية تماماً من البشر .. لا يوجد بها أى أحد . وكان الصمت المطبق يلف المكان لا يبدده سوى صوت السيارة النقل التى يستقلها الجمع المتجه إلى الساحل . كانت السيارة تضرب أرضاً وعرة مثيرة غمامة من الأتربة التى تعبق الجو وراءها وتعدم الرؤية وتشق طريقاً كما لو كانت تكافح فى أدغال برية بكر لم تمتد لها يد الإصلاح والتهذيب . وعندما وصل الجمع إلى الساحل وجدوه أكثر هدوءاً من البر . فلا رياح ولا أمواج ولا بشر ولا خطر

ولا أى حراك .. اللهم إلا البحارة الذين كانوا واقفين على كلا المركبين فى مشهد مؤثر للغاية .. ينتظرونه ، وكأنه الملاذ أو الخلاص أو الحل لمشكلتهم التى حارت فيها الحيل وبالطبع كان معهم القراصنة المسلحين الذين يحرسونهم على متن المركبين .

كانت مشاعر الأبوة تجاه البحارة جميعهم وليس ابنيه فقط تحتدم فى صدر الشيخ حسن . ولكنه كان يعتزم الصمود والظهور بمظهر القوى حتى لا ينهار أمام البحارة ويؤثر سلباً عليهم . كان الاتفاق مع القرصان الوسيط على يقضى بأن يتجه الشيخ حسن خليل إلى المركبين ويشاهد البحارة ويطمئن عليهم . ولكن الشيخ حسن كان يضمر مخالفة هذا الاتفاق ، وأن يصعد إلى المركبين ويلتقى البحارة ويسلم عليهم فرداً فرداً ويطمئن عليهم جميعاً ويكون بينه وبينهم حوار ، وقد انتوى وحيث رأى البر خالياً من البشر ومطمئناً – أن يطلب منهم الفرار . لابد أن ينقضوا على هؤلاء المجرمين ويبطلوا مفعولهم إما بقتلهم أو بأسرهم ويلوذوا بالهرب من ذلك الغشم الذى يعيشونه . هذه هى الفرصة التى يجب اقتناصها .. هى الفرصة التى يجب ألا تترك لتضيع .. فلربما لا تأتى ثانية .

ومثلما الأمس طلب الشيخ حسن خليل أن يتوجه اللنش الذى يركبه الآن مع صديقه اليمنى والقرصان الموالى أو المأجور .. إلى المركب " أحمد سمارة " ليرى بحارة هذا المركب ويطمئن عليهم أولاً ، ثم يتوجه بعد ذلك إلى مركبه " ممتاز ١ " ليرى ولديه ورفاقهما البحارة .

وما أن وصل الشيخ حسن إلى المركب " أحمد سمارة " حتى اعتلاه بمساعدة البحارة الذين تزاحموا عليه يمدون إليه أياديهم . وها هو الشيخ حسن خليل أصبح وسط البحارة وقد ظهر بمظهر القوى الصلد العنيد رغم الطيبة التى اعتادوها تكسو ملامحه . بدا وكأن شيئاً لا يعنيه . أو أن ما حدث كان أمراً طبيعياً أو إحدى العقبات التى يقابلها الصيادون وسرعان ما يتجاوزونها . وراح يمد يده فى صمت ويسلم على البحارة فرداً فرداً دون أن يتفوه بكلمة واحدة .. لماذا ؟ لأنه أولاً لم يفضل أن يكون هناك حوار بينه وبين البحارة فيسألهم مثلاً عن أحوالهم ، فيشتكون وربما يبكون .. وتختلط المشاعر وتنقلب إلى مرثية بكائية لا يحب الشيخ حسن أن يكون أحد أطرافها ، وثانياً وهذا هو الأهم ، لم يحب الشيخ حسن أن تكون هناك أحاديث متبادلة بينه وبين البحارة أمام قراصنة المركب الذين نزلوا إليه وساروا معه ليكونوا على بينة مما يحدث ، وهم فى الأغلب لا يعرفون اللغة العربية ومن الممكن أن يتخوفوا من جراء أى أحاديث تتم ، ويظنون الظنون فى تلك الحوارات فيتحسبون لها ويصبحون أكثر يقظة بعد ذلك فى مراقبتهم للبحارة . وهو الشىء الذى لا يريده الشيخ حسن . لقد كان يفاوض ويناور . وتحت هذا المعنى يريد أن يعطى انطباعاً للجميع أن مجيئه إلى بلادهم إنما للتفاوض من أجل إعادة البحارة والمركبين . وأن وصوله إلى ساحل لاس كورى .. إنما للاطمئنان على من يفاوض من أجلهم . وسلوكه " الصامت " هذا يضفى سكينة واطمئناناً على القراصنة .

وما أن انتهى من السلام على البحارة جميعهم يداً بيد حتى انتحى جانباً بالأشقاء الثلاثة أحمد نصر كابتن المركب وإيهاب نصر مساعد

الكابتن ومحمد نصر مشغل البحارة وفى هدوء قال لهم بالنص " أنا حالياً أتفاوض مع القراصنة . ولكن هؤلاء الناس ليسوا جادين فى اتفاقاتهم . ودائماً ما يتراجعون فى كلامهم ، وأحياناً يتهربون من لقاءاتنا . وما نتوصل إليه مع أحدهم لا يوافق عليه الآخر .. وهكذا " وسأله أحمد نصر كابتن المركب : وأنت ما رأيك ؟

ورد عليه الشيخ حسن : " مازلت أتفاوض معهم . ولكن لو أتيحت لكم الفرصة اليوم للهرب افعلوا . وسيكون أفضل . وأنا سأخلى لكم البر " وهنا طلب منه إيهاب نصر أن يعطى شريحة تليفون محمول للمركب " ممتاز ١ " حتى يتسنى لهم التنسيق معاً . فوافقه على ذلك وطمأنه .

وسريعاً غادر الشيخ حسن المركب " أحمد سمارة " ونزل إلى اللنش الذى نقله إلى مركبه " ممتاز ١ " وما أن وصله حتى وجد ابنه " محمد " فى مقدمة مستقبليه يمد يده ليساعده على الصعود ، فأمسك بيده وصعد وما أن نظر الوالد الشيخ حسن إلى ابنه محمد حتى انتابته حسرة شديدة . لقد بدا الابن شاحباً تبدو عليه ملامح الذل والانكسار ، وكان هزيلاً من أثر الحرمان والجوع . وبينما تمالك الشيخ حسن – رغماً عنه – أعصابه ، انخرط الابن فى بكاء مرير . فانصرف الشيخ حسن من أمامه دون أن ينبس ببنت شفه ، واتجه للسلام على البحارة الذين كان فى مقدمتهم ابنه الآخر أحمد . ولأن الشيخ حسن يعرف بحارته فقد كان الموقف هنا أكثر تأثيراً ليس بحكم العاطفة أو وجود الأبناء بينهم . ولكن لأنه وجد الهزال يعترى الجميع . والبؤس والذل والشقاء يلقى

بآثاره على الشخوص . ولكنه بعيداً عن العاطفة أراد أن يكون قوياً أمام قراصنة المركب الذين بدورهم نزلوا إليه ليكونوا معه فى لقائه مع سائر الأفراد .. بالضبط تماماً كما فعل قراصنة المركب الآخر " أحمد سمارة " وفى غمرة هذا الحراك انتحى بابنيه جانباً باعتبارهما القبطان ومساعد القبطان ، ودار حوار خافت لم يسمع به أحد ، تحدث فى ثناياه عن مفاوضاته الفاشلة مع القراصنة . وأن القرصان الذى أصبحوا تابعين له واسمه عمر عبد اللاه متشدد للغاية ولا طريق للحل معه . وطلب منهما صراحة أن يخلصوا أنفسهم بأنفسهم وأن يكونوا على مستوى المسئولية . فسأله الابنان عن البر ، فقال لهما سيكون خال تماماً وليس به صريخ ابن يومين ، وإذا تمكنتم من الفرار لن يتبعكم أحد ، فأبديا مخاوفهما عليه إذا ما هم نفذوا فكرة الخلاص وهربوا بالمركبين . فقال لهما الوالد " أنا فى أمان .. لا تحملوا همى . وبمجرد نزولى لو استطعتم أن تخلصوا أنفسكم ابدأوا " ولكنه استدرك قائلاً : لا تبدأوا قبل ساعتين حتى نكون قد ابتعدنا عن الساحل .

كان الشيخ حسن خليل قد استحضر معه من مصر شريحة " ثريا " مشحونة برصيد يكفى لإجراء مكالمات ، وأراد أن يسلمها لابنيه لتوضع فى المحمول الثريا الذى كان معهما وأخفياه عن القراصنة . وهذا الجهاز كان قد أعطاهما إياه فى مصر ولم يكن به شريحة تمكنهما من استخدامه . ولم يكن الابنان يريدان أخذ هذا الجهاز معهما لانعدام جدوى ذلك . ولكن الأب أصر أن يأخذاه معهما فأخذاه ! وفيما يشبه الهمس طلب الشيخ حسن من ابنه محمد أن يأخذ الشريحة من جيبه . ولكن

محمد قال لوالده أن القراصنة الموجودين معهم عرفوا منذ خمس دقائق فقط أنه وأحمد شقيقه .. ابنا الشيخ حسن ، وأنه يستشعر الآن أنهم يمعنون النظر إليه وإلى شقيقه . وأردف محمد قائلاً أنه لهذا السبب سيأتى له ببحار يسلم عليه ويأخذها من جيبه . وانصرف محمد ليرسل له بحاراً اسمه الحسين " من أبناء المطرية – دقهلية " والذى جاء يسلم على الحاج حسن بحرارة وكأنه لم يسبق له السلام عليه منذ لحظات . وفى غمرة هذا السلام قال له الشيخ حسن " مد يدك فى جيبى وخذ الشريحة واعطها لمحمد " وبالفعل التقطها الحسين من جيبه . ولكن ابنه أحمد وهو قبطان المركب تنبه إلى شىء خطير مفاده أن هذه الشريحة الثريا لن تفى بالمطلوب ولن يمكنهم عن طريقها الاتصال مع المركب " أحمد سمارة " والتنسيق معهم . لأن مثل هذه الشرائح تعمل عن طريق القمر الصناعى وغالباً ما يتطلب الاتصال عن طريقها الصعود إلى سطح المركب وإجراء المكالمات . وهو ما لا يجب فعله فى ظل وجود الحراسة القرصانية المسلحة أعلى المركب . وعليه بادر والده بالقول أنهم سيكونون فى احتياج إلى شريحة صومالية . ولم يكن مع الشيخ حسن شريحة صومالية سوى شريحته الخاصة الموجودة فى جهازه الشخصى . وفى سرعة بديهة قال له الوالد سأترك لكم جهازى ويكون الاتصال بى بعد ذلك عن طريق الصديق اليمنى .. وكان رقم اليمنى بالطبع مسجلاً على ذاكرة هذا المحمول . وفى خفة رمى الشيخ حسن محموله على عتبة حجرة القيادة التى كان يحادثهما إلى جوارها . فالتقطه ابنه محمد دون أن يلحظه أحد . وتأهب الشيخ حسن لمغادرة المركب .

بهذه الزيارة التى لم تستمر أكثر من بضع دقائق على كلا المركبين ، وبتلك الكلمات الهادئة المتزنة طمأنهم الشيخ حسن بأنه لن يكون هناك خطر على الإطلاق من البر ، فستكون مهمته إخلاءه من أى بشر . وهو الشىء الذى كان يتخوف منه البحارة كلما واتتهم الفرصة لتخليص أنفسهم . كما وفر لهم وسيلة اتصال على المركب " ممتاز ١ " للتنسيق مع المركب " أحمد سمارة " وترتيب الهجوم معاً وبدء عملية الخلاص على متن المركبين فى وقت واحد .

وبالطبع أدرك القبطان ومساعده أن ما قاله لهما الشيخ حسن قاله فى المركب الآخر ، وأن الكل مهيأ الآن لتلك العملية الفدائية المباغتة التى يحررون بها أنفسهم ويفكون أسرهم .

وقد ودعهم الشيخ حسن هادئاً متمنياً لهم التوفيق .. ولم يلحظ القراصنة فى المركبين أى شىء غير عادى يرتابون من أجله . ولعله استقر فى وجدانهم الآن أن المشكلة فى طريقها السريع للحل فلم يعد عليه وقد اطمأن إلى بحارته إلا أن يدفع الفدية ويفك أسرهم .

بقيت إذن على الشيخ حسن خليل مهمة إخلاء البر من عُماره ، ولم يكن هؤلاء العُمار سوى شخص واحد ضعيف البنية يقف بائساً على هذا الساحل المهجور ، وهو بالطبع موفد من قِبل القراصنة لمراقبة الساحل. ولا يستطيع أحد أن يهمل وجود هذا الشخص الهزيل الذى لابد أنه يحمل تليفوناً محمولاً للاتصال بالقراصنة إذا ما حدث شىء . وقد كان فى نية الشيخ حسن أن يخلصهم من هذا الشخص وأن يبتعد به عن الشاطىء بأى طريقة حتى يضمن نجاح أى عملية يقوم بها البحارة .

وبالفعل .. ما أن نزل الشيخ حسن من المركب وعاد باللنش إلى الساحل حتى صافح هذا الحارس البائس وظل ممسكاً بيده وسحبه ليركب معهم بحجة أن يقدم له " واجب " وفرح القرصان بالدعوة واستجاب للشيخ حسن وركب معهم وهو يُمنى نفسه بالظفر بوجبة دسمة . وربما ارتأى أنه سيدخن الشيشة ويخزن القات ، بدلاً من وجوده فى هذا المكان المقفر وحيث لا أكل ولا شرب ولا تدخين ، بينما كان ينظر القراصنة على المركبين ويعلم أنهم يأكلون ويشربون ويدخنون ولا ينقصهم شيئاً . وربما منَّ الحارس نفسه بتقاضى مبلغاً على سبيل الترضية من الشيخ حسن الثرى المصرى صاحب المراكب ، والذى جاء ليدفع فدية بالملايين .

ركب الحارس مع الشيخ حسن ورفاقه ، ودلفت السيارة مرة ثانية فى تلك الطرق الوعرة الملتوية متوجهة إلى لاس كورى . ولأشد ما سرَّ الشيخ حسن أن المنطقة لم تزل خالية تماماً من أى تواجد بشرى .

وفى لاس كورى أقام الشيخ حسن وليمة حضرها جميع القراصنة وذويهم وأكل الجميع وشرب ودخن وخزن وبعدها أعلن الشيخ حسن أنه وقد أطمأن على جميع البحارة والمركبين لم يعد أمامه إلا الرحيل إلى مصر ليعود ثانية بالفدية المطلوبة .

وبعد عصر ذلك اليوم .. الخميس الموافق ١٣ أغسطس عام ٢٠٠٩ غادر الشيخ حسن ومعه صديقه اليمنى محمد النهدى والمسئول الصومالى عبد الواحد لاس كورى متوجهين إلى بوصاصو العاصمة

التى وصلوها عند العشاء . وخلال هذه الفترة لم يتلق اتصالاً من ابنيه عن طريق محمول صديقه اليمنى محمد النهدى . ولم يُفد بشىء ولا يعرف إن كانت الظروف قد سمحت لهم بعمل شىء أم لا . من المؤكد أنه كان يعيش لحظات من القلق والخوف من أن لا يوفق البحارة فى الانقضاض على القراصنة وتخليص أنفسهم من الأسر إذ هم أقدموا على هذه العملية . ولا شك أنه وحده سيتحمل وزر فشل المحاولة وسيؤنبه ضميره طوال عمره على ما قد يكون من خسائر لأنه هو الذى طلب منهم أن يخلصوا أنفسهم بأنفسهم ، وهو الذى طمأنهم إلى خلو البر من أى إنسان . ولكنه الآن يعى أنها مواجهة بين بحارة عُزل لا يملكون سلاحاً وقراصنة مدججين بالسلاح ولا يتورعون فى استعماله ، فهى إذن مواجهة غير متكافئة ، لايعرف كيف شجع ابنيه وطاقم المركب الآخر على خوض غمارها . ولكن لم كل هذا التأنيب للضمير ؟ وماذا كان البديل أمامه فى ظل مغالاة القراصنة فى مطالبهم المادية .. إلا مثل هذه العملية التى يعرف أن ابنيه وبحارته أهل لها . وقد فاض بهم الكيل بعد أن تحملوا طيلة أربعة شهور وزيادة مالا يتحمله بشر من معاناة وضغوط .

ولكن .. ومع سابق كل هذه الاعتبارات كانت طبيعة الشيخ حسن الهادئة لا تدعه يستعجل الأمور . فقد كان يرى دائماً أن الأمور مرهونة بأوقاتها .

ولكن .. ما الذى عساه تم خلال هذه الفترة على متن المركبين ؟

تركت زيارة الشيخ حسن خليل مشاعر متضاربة على كلا المركبين

فها هما ابناه أحمد حسن خليل ومحمد حسن خليل ينشغلان الآن بخطة الخلاص من ربقة الاستلاب ويتحينان الوقت المناسب لها . وها هم الأشقاء الثلاثة أحمد نصر ومحمد نصر وإيهاب نصر على المركب " أحمد سمارة " يعيشون نفس المشاعر ، ولا يعنى ملاءمة الظروف لأى طرف .. أن يبدأ هجومه على القراصنة ، فلابد من موافقة الطرف الآخر .. لتبدأ العمليتان فى وقت واحد ، ولا شك أن مراقبة القراصنة أصبحت الشغل الشاغل لكلا الفريقين لينسق مع الآخر .

يتزامن هذا القلق الذى يعتلى نفوس قادة المركبين مع هدوء أعصاب غير مسبوق للقراصنة ، فقد تركت زيارة الشيخ حسن خليل انطباعاً لديهم أنه إنما جاء للاطمئنان على البحارة والمركبين وقبل دفع الفدية التى لابد دافعها . وقد أضفى عليهم ذلك هدوءاً واسترخاء فليس إلا انتظارهم ما سوف تسفر عنه الساعات التالية من حل للمشكلة .

وكان من الصعب بل من المستحيل أن يظن القراصنة أن هذا الشيخ الوقور الذى يطلق لحيته وتكسو وجهه مسحة من الهدوء والطيبة والمصداقية .. إنما جاء ليستكشف المنطقة للبحارة ويحفزهم على الهرب ، بل ويزودهم بأدوات الاتصال اللازمة للتنسيق معاً " جهازه المحمول وأيضاً شريحة الثريا " تأتى هذه المفاهيم على خلفية أن الشيخ حسن موجود عندهم فى لاس كورى .. أى أنه تحت السيطرة . الشىء الذى حتماً مانع البحارة من أى عنف يقدمون عليه ، أو من أى جرم يقترفونه .. حسب فهم القراصنة الذين آن لهم الآن بعد زيارة الشيخ حسن أن ينعموا بأقساط من الراحة والاسترخاء والانسجام التام الذى

يغلب مشاعرهم عند انتهاء مشكلة ." مركب " وإقدام أصحابها على دفع الفدية . فإن كانت هذه مشاعرهم – والحال كذلك – فهم أحرار فيما يتوقعون وبما يحسون أما أرباب المشكلة فلا شك لهم رأى آخر .. وفكر آخر .

كانت كلمة السر المتفق عليها سابقاً للركض على القراصنة واقتناصهم بأسلحتهم فى عملية الخلاص هى " ربط التلفيعة " ولأن التلفيعة هى قطعة قماش أشبه بالفوطة يغطى بها الشخص رأسه ويلفها حول رقبته اتقاء للبرد ، وكثيراً ما يستخدمها البحارة فى أجواء البحار الباردة ، فإنها ستكون كلمة عادية إذا ما سمعها القراصنة ولن تلفت انتباههم أو تثير شكوكهم . وكان الاتفاق أنه لو كان الوقت مناسباً لأحدهما أن يبدأ بمهاجمة القراصنة فليسأل الآخر : تربط التلفيعة ؟ أو جاهز تربط التلفيعة ؟ أو ممكن تربط التلفيعة ؟ أو ما شابه ذلك . فإذا ما كان الجو مناسباً عند الآخر أفاده بالإيجاب قائلاً أيوه جاهز أو ماشى أو مفردات من هذا المعنى .. وتبدأ عملية مهاجمة القراصنة على كلا المركبين فى التو . فلابد أن تكون العملية مباغتة وفى ذات التوقيت حتى لا يكون بحارة أحد المركبين ضحايا للمركب الذى ينفذ عملية الهرب أولاً ، كما أنه سينشط قراصنة المركب الذى تخلف فى الهجوم فى ملاحقة المركب الهارب وإبلاغ زملائهم فى معاقلهم للإتيان سريعاً وملاحقة المركب الهارب . ويأتى الحرص على أن تكون كلمة سر مبهمة ومتفق عليها ، من احتمال أن يفهم القراصنة قصد البحارة إذا هم تحدثوا صراحة . فمعظم الصوماليين حتى وإن كانوا لا يتحدثون العربية

فإنهم يفهمونها . فهى لغة رسمية للبلاد إلى جانب اللغة الصومالية . بل إن لغتهم الصومالية بها نسبة لا تقل عن ٣٠% من مفردات اللغة العربية .

وربما كان الشيخ حسن خليل – من اتصاله بابنيه فى مركبه ممتاز ١- يعلم بشفرة هذا الاتفاق . ولكنه وفر لهم وسيلة أكثر سرية وفعالية للتفاهم معاً فى بدء الهجوم .. وهى جهاز المحمول الذى يمكنهم الاتصال عن طريقه والتفاهم معاً دون التفوه علانية بأى ألفاظ قد تسترعى انتباه القراصنة .

وإجمالاً نقول أن هناك طريقتين الآن لاتفاقهما مع بعضهما على موعد بدء الهجوم ، إحداهما غاية فى السرية وتعطى مساحة أكبر للحوار وهى الاتصال عبر المحمول ذى الشريحة الصومالية ، وهى الطريقة التى سيلجأ إليها بالطبع طاقما المركبين فى الاتصال . والأخرى طريقة بدائية عن طريق " كلمة السر " .

بطولة فائقة

أغرب رحلة صيد

انشغل الشقيقان أحمد حسن خليل ومحمد حسن خليل بمراقبة القراصنة على المركب " ممتاز ١ " ، فيما انشغل الأشقاء أحمد نصر وإيهاب نصر ومحمد نصر بمراقبة القراصنة على المركب " أحمد سمارة " ، ولا شك أن كلا الفريقين يتيقن أن رسالة الشيخ حسن وصلت الآخر . ولابد أن يخلصا أنفسهما اليوم لخلو البر من أى مراقبة مسلحة ، ولو انتظروا للغد فلابد من عملية استخباراتية ثانية تستكشف وجود القراصنة من عدمه وهو ما لن يتوفر ، فالفرصة اليوم .. وفقط .

كان على كلا المركبين ستة قراصنة ، وجد الأشقاء أحمد نصر ومحمد نصر وإيهاب نصر أنهم أكفاء لهم ، ويستطيعون الهجوم عليهم واستخلاص السلاح منهم والتحفظ عليهم دون مساعدة من أحد ، ولهذا لم يخبروا البحارة الذين معهم بما ينتوون عمله ، وقد وجدوا أن ذلك أجدى لتوخى السرية وعدم افتضاح أمرهم .. لأنه من الممكن أن يرتبك بعض البحارة حال إخبارهم أو تفضحهم تصرفاتهم قبل بدء العملية ، فيستشعر القراصنة شيئاً يستعدون له ، وقد يكون ذلك سبباً فى فشل العملية .

على المركب " ممتاز ١ " كان الأمر مختلفاً بعض الشىء . لقد كان الشقيقان أحمد حسن خليل ومحمد حسن خليل فى حاجة إلى مساعدة أحد من البحارة أو بعضهم لتنفيذ عملية الانقضاض ، لأن انفراد اثنين فقط

بالهجوم على ستة قراصنة مسلحين نوع من المجازفة التى لا تؤمن عقباها .. وقد تبوء بالفشل . ولهذا استخلص أحمد نصر بعض البحارة الذين توسم فيهم الشجاعة وأخبرهم بأنهم سيقومون بعملية هروب ، وأنهم سيهجمون على هؤلاء القراصنة ، وينتزعون أسلحتهم منهم ويحتجزونهم ويهربون بهم ، وإذ بالبحارة يفغرون أفواههم أندهاشاً وقد استغربوا هذا الحديث فى الوقت الذى كانوا يظنون فيه أن الشيخ حسن إنما جاء إلى بونت لاند للتفاوض مع القراصنة .. ودفع الفدية . وكانت هذه الأنباء تتواتر إليهم طيلة الأيام الماضية . وقطع أحمد حسن خليل عليهم الشك باليقين ، وحتى لايرتابوا فيما سمعوه منه قال لهم أن والده أخبره أن القراصنة يطلبون مبالغ كبيرة لا يمكن تدبيرها ، وأنهم متشددون فى مطالبهم ولا يتنازلون أبداً ، وقد أكد له أن البر أمان وليس به قراصنة . بمعنى أن الجو مهيأ لهم اليوم تماماً لأن يخلصوا أنفسهم ، وعليهم فقط أن ينتظروا الوقت المناسب لإجراء هذه العملية ، وذلك بالتنسيق مع المركب الآخر . وخص أحمد حسن خليل اثنين من البحارة هما الحسين عبد الجليل موسى والعربى محمد العربى بمهمة التواجد بالقرب من القراصنة ، وعندما يشاهدانه صاعداً يبادر أحدهما بالركض فوق سلاح القراصنة الموجود إلى جوارهم فلا يستطيعون الحصول عليه واستعماله ، وبذلك تنعدم فاعليتهم ؛ بينما يقوم زميله الآخر فى نفس اللحظة بالهجوم المباغت على القراصنة ليربكهم . وقال لهم أنه فى التو سيلاحقهم هو وشقيقه محمد بعزل القراصنة بعيداً عن السلاح أو إبعاد السلاح عنهم .. فيصبحون معدومى القوة لا حيلة لهم .

وبالفعل وقف البحاران الحسين والعربى أعلى المركب بالقرب من القراصنة بينما انشغل أحمد وشقيقه محمد بالمركب الآخر لتحديد ساعة البدء . بيد أنه تجدر الإشارة إلى أنه لا توجد أى مظاهر لهذا الترتيب والاستعداد . ويمر الوقت هادئاً دون أن تبدو أى مقدمات لعملية الانقضاض .. ويطبخ البحارة كعادتهم ، ويأكل القراصنة كعادتهم ، وتُحمل بقايا الطعام إلى البحارة يقتاتون منها ، ويمر الوقت هادئاً .. ودون أن تكون هناك أى ملامح لعملية محتملة .

ومثلما يحدث فى المركب " ممتاز ١ " يحدث فى المركب " أحمد سمارة " كان هناك جو من الهدوء ، ولكنه بالطبع الهدوء الذى يسبق العاصفة أو نحسبه هكذا ، وقد مضت الساعتان اللتان اشترطهما الشيخ حسن خليل انتظاراً قبل بدء عملية الهجوم على القراصنة .

كانت الساعة قد تعدت الثالثة عصراً عندما صعد الكابتن أحمد حسن خليل أعلى المركب " ممتاز ١ " ليرقب القراصنة الستة . وقد ارتاح عندما وجد اثنين منهم نائمين فى البرتش . والبرتش فى المركب هو مقر القيادة ويتكون من جزءين منفصلين . كان فى كل جزء قرصان نائم . أما الأربعة المستيقظون فكان ثلاثة منهم يجلسون معاً فى جانب من المركب يمضغون القات وبجوارهم أسلحتهم بينما كان الثالث بعيداً عنهم يتحدث عبر تليفونه المحمول وليس معه سلاح . وكلها شواهد مطمئنة وتدل على أن الجو مناسب تماماً للهجوم عليهم وتنفيذ عملية الهروب . وبسرعة نزل الكابتن أحمد حسن خليل لأسفل المركب وتناول جهاز المحمول الذى تركه لهم والده الشيخ حسن وبه شريحة صومالية ،

وراح يطلب محمول المركب الآخر والذى به أيضاً شريحة صومالية ليخبرهم أن الظروف عنده مواتية لبدء عملية هجوم ويسألهم إن كانت مناسبة عندهم ، ولكنه لم يفلح فى الاتصال بهم . وراح يعاود الاتصال أكثر من مرة .. ولكن دون جدوى ، وأخيراً اكتشف أنه لا توجد تغطية لشبكة المحمول فى هذا الوقت . وكانت هذه أول صدمة يتلقاها فى طريق تنفيذ الخطة التى لابد أن تتم اليوم وليس غداً .. بل الآن وليس بعد ذلك ، شريطة أن يكون الجو مهيأ فى المركب الآخر ، ولكن أحمد حسن خليل لم يعدم الوسيلة واتجه مسرعاً إلى مؤخرة المركب ليكون فى مواجهة المركب " أحمد سمارة " ونادى " إيهاب " الذى ظهر له فى مقدمة المركب .. وسأله : هل عندك صمولة ١٠ وتقدر تربط التلفيعة الآن ؟ وكان يشير بيده حول رقبته حتى يفهم إذا كان لا يسمعه جيداً . وكان ذكر الصمولة ١٠ نوع من الإمعان فى التمويه . وراح إيهاب الذى فهم قصده يستفسر منه : هل الجو عندك مناسب . ورد الكابتن أحمد حسن خليل : نعم . فقال له إيهاب : إذن انتظر قليلاً لأرد عليك . ثم اختفى إيهاب داخل المركب حيث توجه إلى شقيقه أحمد نصر قبطان المركب ليخبره بما يقوله الكابتن أحمد حسن خليل من المركب الآخر والذى يحتاج رداً منهم حالاً للقيام معاً وفى نفس التوقيت بمباغتة القراصنة والهجوم عليهم . وسأله الكابتن أحمد نصر : وماذا عن الوضع عندنا الآن ؟ فقال له إيهاب : أصعد لأرى وأخبرك . وبسرعة صعد إيهاب إلى القراصنة ليستطلع أحوالهم ، فوجد قرصاناً واحداً نائماً بينما الخمسة فى كامل يقظتهم ، وسلاحهم فى متناول أياديهم . ونزل ليخبر شقيقه أحمد بالوضع الكائن فوجده قلقاً ممسكاً بتليفونه المحمول

ويحاول الاتصال بالشيخ حسن خليل عبر محمول صديقه اليمنى محمد النهدى ليخبره بأنهم سيقومون بالهجوم الآن . ولكن تغطية شبكة الاتصالات كانت لا تزال مختفية ، وأفضى الكابتن أحمد نصر إلى شقيقه إيهاب بقلقه على الشيخ حسن إذا تمت محاولة الهجوم دون إخباره ليأخذ حذره ويغادر أماكن القراصنة ، ثم سأله عن الوضع عند القراصنة أعلى المركب فحكى له إيهاب ما رآه .. وأن خمسة من القراصنة فى كامل يقظتهم يحملون أسلحتهم . فرأيا سوياً أنه من الأفضل إرجاء التنفيذ إلى الغد عند موعد الغداء ، حيث يكون القراصنة جميعهم مشغولين بتناول طعامهم .. وأيضاً يكونون قد استطاعوا إخبار الشيخ حسن بموعد الهجوم .

وذهب إيهاب إلى مقدمة المركب فوجد الكابتن أحمد حسن خليل ينتظره فى مؤخرة المركب الآخر " ممتاز ١ " ودلف يستشيره : ألا يمكن أن نؤجلها للغد وقت الغداء ؟ وهنا فهم الكابتن أحمد حسن خليل أن الظروف فى المركب " أحمد سمارة " غير مناسبة للهجوم فوافقه مضطراً وهو فى ريبة من أمر الساحل وما قد يتواجد عليه من حراس فى الغد . وهنا وقعت مفاجأة لم تكن فى الحسبان . فما أن انتهى إيهاب من حواره مع الكابتن أحمد حسن خليل إلا وفوجئ بقرصان إلى جواره يسترق السمع إليه وينظر إليه شذراً ، وفى صرامة سأله القرصان بشكل يوحى بأنه فهم قصده : ماذا تقول ؟ وبسرعة ولباقة وثقة وهدوء أجابه إيهاب بأن ماكينة الجينروتر " ماكينة الكهرباء " عاطلة . وأن الكابتن يستشيره فى إصلاحها . والمفاجأة الأكبر أن القرصان اطمأن لذلك وهز رأسه وانصرف !

وفى ملمح مهم نقول أنه كان لإيهاب تحديداً وضع مميز عند القراصنة ليس لكونه فقط ضمن طاقم قيادة المركب . ولكن لأنه خلق وداً معهم وكان يخزن معهم القات . ويُذكر أيضاً أنه تمتع بقسط وفير من المصداقية لدى القراصنة شقيقاه أحمد نصر ومحمد نصر باعتبارهم المسئولين عن المركب ، وفى المركب الآخر انسحب هذا التقدير على الشقيقين أحمد حسن خليل ومحمد حسن خليل ولهذا كان القراصنة يتركونهم يتحادثون معاً على كلا المركبين .. باعتبارهم القادة .

إذن . لقد تم الاتفاق مبدئياً على القيام بعملية الهجوم فى الغد وقت تناول القراصنة لطعام الغداء ، وإن كان ذلك سيكون مرهوناً بالوضع المستجد فى الغد .

وعندما توجه إيهاب إلى داخل المركب " أحمد سمارة " فوجئ بأن قرصاناً – وكان أشدهم بأساً وشراسة – قد ترك سلاحه وتوجه إلى الحمام ، وهو ما يعد فرصة يجب اغتنامها . فأسرع إيهاب إلى مقدمة المركب ووجد أحمد حسن خليل مازال واقفاً مكانه فى المركب " ممتاز ١ " وكأنه يتوقع رجوع إيهاب إليه . وسأله فى لهفة : هل أنت جاهز الآن ؟ فطلب منه الكابتن أحمد حسن خليل الانتظار لمدة عشر دقائق لبدء الهجوم ، فرفض إيهاب قائلاً له : لا .. يبقى نلغى . قالها وفى ذهنه أن العشر دقائق تعد مدة كافية لخروج القرصان الشرس من دورة المياه ، وانضمامه إلى زملائه .. لتزيد قوتهم به ربما إلى الضعف . إلا أن الكابتن أحمد حسن خليل بادر إيهاب قائلاً : تعنى أنك جاهز الآن .. فوراً ؟ فقال إيهاب : نعم . فرد الكابتن أحمد حسن خليل قائلاً : إذن نبدأ

على بركة الله . ولكن بعد خمس دقائق . ورد إيهاب سريعاً : توكلنا على الله .

كان الكابتن أحمد حسن خليل يتمهله لخمس دقائق حتى يستطيع أن يدير ماكينة الكهرباء التى تحدث صوتاً عالياً ، فإذا ما حدث إطلاق نار أو ضجيج أو صراخ أو استغاثة فى المركب الذى يبدأ أولاً ولو ببضع ثوان ، لا يسمعه القراصنة على المركب الآخر فينتبهوا وتصعب مهمة الهجوم عليهم أو حتى تفشل .

بعد هذا الحوار الخاطف والحاسم بين إيهاب المركب " أحمد سمارة " وأحمد حسن خليل المركب " ممتاز ١ " اختفى إيهاب داخل مركبه بينما توجه أحمد حسن خليل إلى ماكينة الكهرباء لإداراتها . وهنا وقع خطأ جسيم كان من الممكن أن يتسبب فى فشل عملية الهجوم فى المركب " ممتاز ١ " ويكبد بحارة هذا المركب خسائر فاحة قد تصل إلى حد قتلهم جميعاً بنيران القراصنة . فما ذلك الذى حدث وكان من الممكن أن يجر وراءه هذا الخطر الداهم ؟ يبدو أن إيهاب كان متعجلاً عملية الانقضاض على القراصنة ويريد بدءها قبل أن يخرج القرصان الشرس من دورة المياه . وربما لم ينتبه إلى طلب الكابتن أحمد حسن خليل بالتمهل لخمس دقائق . والذى حدث أنه عندما كان الكابتن أحمد حسن خليل فى طريقه لتشغيل ماكينة الكهرباء ، سمع صوت ضرب نار وصراخ فى المركب " أحمد سمارة " بما يفيد أن إيهاب ورفاقه قد بدأوا تنفيذ عملية الهجوم. إذن لا وقت ولا جدوى من تشغيل ماكينة الكهرباء ولابد أن يبدأ فوراً بتنفيذ العملية فى مركبه وقبل أن يتنبه القراصنة لتلك

الأصوات . فعاد مسرعاً ملهوفاً ليصعد إلى أعلى المركب . وكان من المفروض أن يبادر البحاران اللذان ألزمهما مكانهما واختص أحدهما بالركض فوق السلاح والآخر فوق القراصنة .. بتنفيذ مهامهما متى يرانه يصعد . وهنا كانت المفاجأة المذهلة . فعندما صعد أحمد حسن خليل إلى أعلى المركب لم يجد البحارين ! وكانت صدمة قاتلة بالنسبة له ، بينما كانت أصوات القلق تتهادى من المركب " أحمد سمارة " وقد انتبه القراصنة فى المركب " ممتاز ١ " إليها ، ولكن من محاسن الصدف أن كانت طاولات السمك الفارغة متراصة أعلى المركب " ممتاز ١ " وحجبت رؤية قراصنة هذا المركب لما يحدث فى المركب الآخر .. وانشغلوا فى تخزين القات . وهنا ظهر أمامهم أحمد حسن خليل الذى كان يغنى ليهدئ نفسه ويعطى انطباعاً للقراصنة بأن الأمور عادية . ولكنه تواً أشار لشقيقه ولبعض البحارة بأن يلحقوا به . وقبل أن يصعدوا إليه قفز فى خفة وسرعة خاطفة إلى قرصان كان يقف بالقرب من زملائه وليس معه سلاح وأخذه عنوة وارتمى به فوق القراصنة الثلاثة الذين كانوا يمضغون القات وكان أحمد حسن خليل يرى أهمية أن يأخذ القرصان المنفرد قبل أن يهجم على الثلاثة . لأنه لو هجم على الثلاثة فقط فمن الممكن أن يستل هذا القرصان السلاح ويستخدمه ، ولذلك رأى أن يربك الأربعة بعيداً عن استخدام السلاح . وأصبح الكابتن أحمد حسن خليل والأربعة قراصنة متشابكون معاً فى موقف مباغت أذهل القراصنة الذين فوجئوا بما يحدث .. فارتبكوا ، ولم تمتد أياديهم ناحية السلاح ، ولو امتدت ما استطاعوا الحصول عليه

وسط هذا التلاطم بين خمسة أفراد بينهم أسد اسمه أحمد حسن خليل كان وحده يجاهد فى الاشتباك معهم بعنف . ولم يدع أحدهم يخلص نفسه من هذا الاشتباك الذى استخدم فيه يداه وأرجله وجسمه وذهنه الذى يرى أن الإخفاق فى هذا الاشتباك إنما يعنى الفتك به وقتل جميع زملائه البحارة .

وبسرعة صعد إليه شقيقه محمد مستجيباً لإشارته ، وتبعه سريعاً بعض البحارة الذين كانوا قد أُخبروا سابقاً بالنية فى عملية الهجوم هذه ، وقفزاً من الشباك دخل محمد حجرة القيادة حيث كان ينام أحد القراصنة وبجواره سلاحه ، فضربه بقطعة خشب أحدثت به إصابة بينما لاحقه أحد البحارة من الشباك أيضاً وخطف سلاح القرصان قبل أن يفيق من الضربة ، ثم تركاه ينزف وهو فى ذهول من المفاجأة .. أعزلاً مذعوراً لا حيلة له .

وفى الجزء الآخر من حجرة القيادة كان ينام القرصان الآخر ، ولكنه استيقظ على الحركة الطارئة فى المركب وحمل سلاحه سريعاً وقام بتجهيزه تمهيداً لاستخدامه وفى سرعة خاطفة باغته بحار يدعى إبراهيم محمد إبراهيم وهو من عزبة البرج ، وهجم عليه محاولاً استخلاص السلاح منه . ولكن القرصان تشبث بسلاحه بشكل غريب وكان مصراً على استخدامه . وحاول قتل البحار إبراهيم وأطلق عليه رصاصة ولكنها لعدم دقة التصويب بسبب الاشتباك الدائر بينهما اتجهت ناحية سقف حجرة القيادة . وقد تنبه البحارة على ظهر المركب إلى صوت العيار النارى داخل حجرة القيادة . فأسرع بحار يدعى حسن مورو من عزبة البرج إلى داخل الحجرة ليجد زميله إبراهيم يجاهد فى السيطرة

على القرصان الشرس ويحاول نزع السلاح منه . وقد لاحظ حسن مورو أن القرصان استطاع أن يسحب رصاصة " أخرى " من سلاحه ويستعد لإطلاقها فأمسك بماسورة السلاح ووجهها إلى أسفل ، وعندما أطلقها القرصان اتجهت إلى أرضية الحجرة . وبينما تمكن إبراهيم من تقييد حركة القرصان استطاع حسن استخلاص السلاح منه ، وبذلك أصبح هذا القرصان أعزلاً بدون سلاح وانعدمت خطورته .

وهكذا تم إبطال مفعول القرصانين اللذين كانا نائمين والحصول على سلاحهما ، وتزامن ذلك مع اشتباك الكابتن أحمد حسن خليل على سطح المركب مع الأربعة قراصنة ، وقد لاحقه بعض البحارة واشتبكوا مع القراصنة فى محاولة للسيطرة عليهم . ولم يكن الأمر سهلاً .. فقد كان القراصنة يعافرون بعناد ، ويقاومون بشراسة ، واستعملوا كل ألوان العنف . وعندما رأوا تكاتف البحارة عليهم بقوة ، وأنهم وقد تجردوا من سلاحهم مهزومون لا جدال ، ألقى قرصان منهم بنفسه فى البحر هروباً من ساحة الوغى ، ورغم ذلك استطاع أحد القراصنة الثلاثة الباقين أن يلتقط سلاحاً وحاول استعماله فلمحه أحد البحارة وراح ينتزعه منه ويأمره بأن يتركه . إلا أن القرصان كان شديد الشراسة ورفض أن يترك سلاحه . بل وحاول استعماله ولكنه لم يستطع التغلب على البحار والإفلات منه ، وأيضاً لم يستطع البحار أن يستخلص منه السلاح ، فلاحقه بحار آخر وضرب القرصان فى إحدى رجليه ليجبره على الاستسلام .. ومع ذلك لم يستسلم القرصان واستطاع أن يطلق عياراً نارياً إلا أن العيار أصابه هو وجرحت إحدى قدميه وارتمى إلى جوار

زميليه جريحاً منهكاً من تلاحم غير متكافىء مع أناس أفرغوا صبر الشهور فى لحظات ، وانفجرت كل قوتهم مركزة فى إبطال مفعول القراصنة .. والتحفظ عليهم .

كان البحارة قد تكاثر وجودهم على ظهر المركب ، وراحوا يلتقطون القراصنة ويناولونهم لبعضهم وينزلون بهم إلى ثلاجة المركب لاحتجازهم بها . وعلى الفور تم قطع الواير " الرباط " الذى يثبت المركب . وبدأ تشغيل ماكينة المركب ، وفى لحظات كانت المركب تتحرك بعيداً عن الشاطئ . بينما لاحقتها المركب " أحمد سمارة " وانطلقت خلفها ، وقد اطمأن البحارة فى كلا المركبين على نجاح الطرف الآخر فى مهمته .

إذن الهجوم على القراصنة بدأ أولاً فى المركب " أحمد سمارة " ثم فى المركب " ممتاز ١ " ومع ذلك تحركت المركب " ممتاز ١ " سابقة المركب " أحمد سمارة " فما الذى عساه حدث على متن المركب " أحمد سمارة " وجعل البحارة يتأخرون فى إنهاء الهجوم ؟

فى الوقت الذى كان فيه إيهاب نصر مساعد كابتن المركب " أحمد سمارة " يتحدث ويتفق مع أحمد حسن خليل كابتن المركب " ممتاز ١ " كان شقيقه محمد نصر قد صعد إلى أعلى المركب وراح يتجاذب أطراف الحديث مع القراصنة الأربعة المستيقظين ليشغلهم عن الالتفات إلى حوار شقيقه مع كابتن المركب الآخر ، وفى نفس الوقت يرصد أحوالهم ومواقع أسلحتهم ، وكان القرصان الشرس مازال فى الحمام

بينما يغط القرصان السادس فى نوم عميق داخل حجرة القيادة . وما أن أنهى إيهاب حديثه مع أحمد حسن نصر كابتن المركب " ممتاز ١ " أو اتفاقه على بدء الهجوم حتى أسرع بالصعود إلى القراصنة وقد أشار إلى بحارين ليتبعاه هما أحمد طرابية " من كفر حميدو المتاخمة لعزبة البرج" وهو مساعد الميكانيكى ، ومحمود الغنام " من عزبة البرج " وهو شقيق زوجة أحمد نصر كابتن المركب – وما أن ظهر إيهاب أمام القراصنة يتبعه البحاران إلا واستفسروا منه فى ريبة وصرامة عن سبب صعوده إليهم ، فأجابهم إيهاب بكل ثبات وهدوء قائلاً " نسوى نظافة " أى أنه صعد مع رفيقيه لإجراء عملية نظافة للمكان الذى يجلس فيه القراصنة . وكانوا قبلها بيوم واحد قد طالبوه بذلك . ولهذا اطمأنوا إلى صعوده مع صاحبيه . وهنا نظر إيهاب إلى شقيقه محمد الذى كان يتجاذب أطراف الحديث مع القراصنة .. وتحاورت العيون فى صمت بما يعنى الاستعداد للهجوم ، وكان محمد نصر قد تعمد أن يكون وقوفه مع القراصنة قريباً من قطعتى سلاح كانتا إلى جوارهما ، وفجأة سأل إيهاب شقيقه محمد : جاهز نعمل نظافة ؟ وكان المعنى المقصود أن يسأله عما إذا كان جاهزاً للهجوم على القراصنة ، ورد محمد قائلاً " توكل على الله " فدخل إيهاب حجرة القيادة ، والتقط سلاح القرصان الذى نزل إلى الحمام . أما القرصان النائم فكان تحت رأسه قطعة سلاح وتحت رجليه سلاح آخر ، فالتقط إيهاب السلاح الذى كان تحت رجليه وسلمه للبحار محمود الغنام الذى كان قد تبعه إلى حجرة القيادة . وهنا استيقظ القرصان النائم مذعوراً والتقط السلاح الذى كان تحت رأسه .. وحدث بعض الضجيج

الذى انتبه إليه القراصنة الأربعة المستيقظون والموجودون خارج حجرة القيادة يحادثهم محمد نصر ، وعندما نهضوا يستطلعون الأمر باغتهم محمد نصر بإلقاء نفسه على قطعتى السلاح وتمسك بهما . وعندما فوجىء القراصنة بما فعل ارتموا فوقه فى محاولة شرسة لاستخلاص السلاح منه ، ولكن محمد نصر وقطعتى السلاح أصبحوا جزءاً لا يتجزأ . وأخذت محاولات القراصنة طابع الشراسة مع محمد نصر من أجل نزع السلاح منه ، ولكنه استمات فى جدية مفرطة فى التمسك بقطعتى السلاح لم يتركهما أبداً . وكان أحمد نصر كابتن المركب فى هذه الأثناء يحاول الاتصال بالشيخ حسن عبر التليفون المحمول على رقم صديقه اليمنى ليخبره بأنهم سيبدأون الهجوم ، ولكن لم تكن هناك تغطية من شبكة الاتصالات ولم يستطع إجراء الاتصال . وما أن سمع الضجيج أعلى المركب حتى بادر بالصعود ، ووجد أربعة قراصنة يتحاملون على شقيقه محمد الذى يحتضن قطعتى السلاح ، فقام بنزع قرصانين من فوق شقيقه . ومع هذا الحراك الدائر على ظهر المركب خرج إيهاب نصر من حجرة القيادة بالسلاح الذى يحمله ليتعامل مع القراصنة الأربعة الموجودين مع شقيقيه ، بينما ترك فى حجرة القيادة زميليه محمود الغنام ، وأحمد طرابية الذى كان قد انضم إليهما .. مع القرصان المستيقظ ذعراً يحاولان انتزاع السلاح المتبقى لديه والذى كان تحت رأسه أثناء نومه . وقد وجد إيهاب اثنين من البحارة مازالا فوق شقيقه محمد يحاولان انتزاع السلاح منه فاتجه إليهما .. وما أن رآه القرصانان يحمل السلاح ويتجه نحوهما حتى تركا محمد وتوجها ناحيته

فبادرهما إيهاب بإطلاق عيار نارى لأعلى .. حتى يرهبهما دون أن يصيبهما . وحاول القرصانان الآخران اللذان انتزعهما الكابتن أحمد نصر من فوق شقيقه محمد أن يهجما على إيهاب الذى وجداه مصدر خطورة بما يحمله من سلاح . ولكن إيهاب استمر فى إطلاق النيران لإرهابهما . وقد أصاب أحدهما فى رجله فصرخ صرخة مدوية . ولم يجد القراصنة الأربعة مناصاً من الاستسلام أو الهرب ، فاستسلم واحد منهم بينما ألقى ثلاثة بأنفسهم فى البحر ليفروا إلى البر كان منهم القرصان الذى أصيب فى إحدى رجليه .. ولم يجد إيهاب سبباً لأن يلاحقهم فى المياه بإطلاق النار عليهم وقتلهم .. فلم تكن هناك نية على الإطلاق فى تصفيتهم .. بل كانوا يريدون العودة بهم جميعاً إلى مصر .

وفى حجرة القيادة تمكن محمود الغنام وأحمد طرابية من السيطرة على القرصان الشقى وانتزعا منه السلاح الذى كان يضعه تحت رأسه وهو نائم وتمسك به عندما استيقظ .. بعد محاولات مضنية . وأصبح هذا القرصان معدم الخطر .

ويبقى القرصان السادس الذى كان فى الحمام ، والذى خرج مذعوراً على صوت إطلاق النيران .. يستطلع الأمر ، ولم يكن معه سلاح . وقد تبعه البحار الشحات مرزة من الخلف ، وبادره بضربة قوية على رأسه جعلته يفقد توازنه ، ولكنه لم يستسلم .. فبادره بضربة ثانية قوية على إحدى رجليه فوقع على الأرض منهكاً .. وبسرعة تم السيطرة عليه رغم الشراسة التى كانوا قد عهدوها فى هذا القرصان تحديداً . والطريف أن الشحات مرزة كان البحار الوحيد من خارج محافظة

دمياط الذى اشترك فى الهجوم على القراصنة . فهو من برج البرلس .. وكان أصغر البحارة سناً ! ويُذكر أن دخول هذا القرصان الحمام كان سبباً فى بدء عملية الهجوم على كلا المركبين فقد وجدها إيهاب فرصة من المفترض انتهازها وخاطب أحمد حسن خليل كابتن المركب " ممتاز ١ " فى أمر الهجوم فى هذا الوقت لذاك السبب .. وهو ما تم . كما كان غياب هذا القرصان السبب فى نجاح الهجوم على القراصنة فى المركب " أحمد سمارة " تحديداً ، لأن إيهاب استل سلاح هذا القرصان وهاجم به القراصنة مما اضطر ثلاثة منهم لأن يتركوا المركب ويلقون بأنفسهم فى البحر . ولهذا ورغم بشاعة الأحداث وضراوتها لم يغب عن ذهن إيهاب أنه يتبقى التعامل مع هذا القرصان الغائب فى الحمام فنزل إليه حيث وجد البحارة يحتجزونه أعزلاً مستسلماً يئن من الألم . فطلب منهم تقييده من يديه ورجليه وتركه مكانه . فيما كان شقيقه محمد نصر أعلى المركب وقد صعد إليه بعض البحارة ، وراحوا يقيدون القرصانين المتبقيين من أرجلهم وأياديهم .. وأيضاً تركوهم فى أماكنهم وقد نادى إيهاب على شقيقه أحمد نصر وزميله أحمد طرابية فنزلا إليه بسلاحهما فتناوله إيهاب منهما ليتفرغا لفك رباط المركب وإدارة ماكينتها للتحرك . وعلى بركة الله تحركت المركب " أحمد سمارة " لتلحق بالمركب " ممتاز ١ " ويبتعدان عن سواحل الأسر فى لاس كورى وعن مناطق نفوذ القراصنة .. المركب " ممتاز ١ " فى المقدمة وبها طاقم قيادتها وبحارتها وعددهم ثمانية عشر فرداً ومعهم خمسة قراصنة ، تليها المركب " أحمد سمارة " وعلى متنها طاقم قيادتها وبحارتها وعددهم سبعة عشر فرداً ومعهم ثلاثة قراصنة . وقد تغيرت الصورة الآن

تماماً . لقد أصبح البحارة أحراراً والقراصنة عبيداً أذلاء مهيضى الجناح لا حول لهم ولا قوة . يعيشون لحظات ذل وانكسار وهم على متن مركبين فى طريقهما إلى دولة غريبة عليهم لا يعرفون فيها مصيرهم .. ذلك المصير الذى من الممكن أن يحدده البحارة الآن . ولا شك أن القراصنة يعيشون الآن رعباً لا حدود له . وأوقاتاً من الخوف والفزع والذعر المتناهى .. من جراء ما قد يفعله معهم المصريون . فعقولهم المرتجفة لا تستوعب فهم ماهية المصريين وأخلاقهم والتزامهم . لقد أدار المصريون معهم معركة كان بمقدورهم وقد استولوا على سلاحهم أن يقتلوهم . ولكنهم أرادوها معركة سلمية وحتى الذين ألقوا بأنفسهم فى البحر وكان هروبهم يمثل خطراً على البحارة من جراء ذيوع خبر الفرار وإمكانية ملاحقة المركبين .. لم يشأ البحارة أن يطلقوا عليهم الرصاص ويردوهم قتلى . ولو شاءوا الآن تصفيتهم فرداً فرداً لفعلوا ولو أرادوا قتلهم أمام بعضهم والتنكيل بهم لفعلوا . ولو أرادوا إذلالهم بشتى الطرق لفعلوا . ولكن البحارة لم يجنحوا إلى العنف إطلاقاً وانحصر هدفهم فى تخليص أنفسهم من هذا الأسر والعودة إلى مصر بالقراصنة . إنها حكمة أبناء البحر وطبيعة المصريين وميزة الدمايطة الذين ينشغلون بالهدف وبالعمل والجدية عن أى أعمال انتقامية أو روح عدائية أو مظاهر دعائية ، لقد سطروا الآن بطولة لم يسبقهم إليها أحد . وأعملوا ذكاء لم يفقهم فيه أحد . ونفذوا عملاً لم يستطعه قبلهم أحد .

كان المركبان يسيران بأقصى سرعة ممكنة ، ولكنها لم تصل إلى الثمانية أميال كما هو مفترض . بل لم تزد السرعة فى كلا المركبين

عن الستة أميال ، وذلك بسبب الخشونة التى تكونت على جسم المركبين نتيجة تكون الحشف وتراكم الأملاح والطحالب البحرية على مدى شهور ناهزت الخمسة وقف فيها المركبان دون أن تجرى لهما عمليات تنظيف وصيانة ، فكانت تلك الطبقات المتراكمة تزيد من مقاومة المركبين وتحد من سرعتهما فى الوقت الذى كان البحارة يستعجلون الإبحار والابتعاد عن سواحل بونت لاند والخروج من مناطق نفوذ القراصنة حتى يلوذوا بالأمان .

ورغم طمأنة الشيخ حسن للبحارة بأن البر خال تماماً من أى تواجد بشرى وأن الجو مهيأ للقيام بعملية بطولية للفرار .. إلا أنهم كانوا فى غاية الاضطراب . لقد أقدموا على عملية فدائية انتحارية يخافون من عواقبها فى تلك المناطق الملبدة بالإرهاب . خاصة أنه عالق فى الحسبان هؤلاء الأفراد القراصنة الذين أفلتوا من أيديهم وارتموا فى البحر ولم يشأ البحارة أن يتعقبوهم بإطلاق النار عليهم . فلم يكن القتل فى نية البحارة على الإطلاق . وكانوا يرون أن قمة النصر لهم فى عودتهم سالمين غانمين ومعهم القراصنة أنفسهم .. ليكونوا أضحوكة العالم . وحديث العالمين .

ويظل المركبان يسيران بسرعة ٦ ميل بحرى فى الساعة لا تزيد . ولو كان بمقدور البحارة لنزلوا يدفعون المركبين دفعاً ليجتازوا المياه الإقليمية لبونت لاند .. فمازال يكتنفهم قهر القراصنة وسطوتهم ، ومازال يخيم فى الفكر تهديداتهم وغطرستهم ، ومازالت فى الذاكرة شراستهم وعبوسهم ، ومازال يسيطر على الوجدان عنفوانهم

وجبروتهم . هذه الأفكار والمشاعر والأحاسيس كانت نتاج تراكمات شهور ناهزت الخمسة .. أفعمت المواجد بكل ألوان الذل والمهانة ، وفرضت عليهم حياة محفوفة بكل أشكال الخوف والرعب ، ولم يشفع لتلك الهواجس أن تفلت .. وجود القراصنة مكبلى الحرية ، فإن أشد ما يرعب البحارة أن يتعرضوا لعملية مطاردة مسلحة من جحافل القراصنة الذين قد يلاحقونهم فور علمهم بما حدث من الذين فروا فى عملية التلاحم . لم يشفع لتلك الهواجس أن تفلت أن طمأنهم الشيخ حسن أن البر خال تماماً . فالذين هربوا سيسعون إلى القراصنة وإن بعدوا ، وستكون لهم محاولاتهم فى مطاردة المركبين وإعادتهما ، فإن فشلوا فإغراقهما .. إننا الآن فى ظروف لا يستطيع أحد أن يُقدّر عواقبها . ومشكلة عنوانها العريض " هروب بعض القراصنة " .. وما عساهم أن يفعلوه .

فى خضم هذه النوازع التى تكتنف النفوس لابد أن تحدث بعض المواقف الغريبة . وتظهر بعض المشاهد التى لا تمر عبثاً . وهذا موقف لا يمكن تجاهله .. تابعه بحارة المركب " أحمد سمارة " وهم مشدودين إليه :

فما أن انتهت تلك المعركة الشرسة بين البحارة والقراصنة ، وتم إبطال مفعول القراصنة وتقييدهم عُزلاً ، وفور قطع البحارة لرباط المركب وإدارة ماكينتها وتحركها ، حدثت مفارقة فى منتهى الغرابة . كان لها وقع طيب للغاية فى نفوس البحارة ، وأحسوا أنها إشارة ربانية وبشرى باكتمال النصر وعودتهم سالمين إلى ديارهم . فما الذى حدث

وجعل البحارة وهم كُثر يعيشون هذا الجو الروحانى المفعم بالإيمان وتكتنفهم هذه الحالة من الرضا والطمأنينة ؟

لقد حطت يمامة أعلى مقدمة المركب ، واستكانت هادئة لا تعبأ بالحراك الدائر على سطح المركب ، ولا بالضجيج الناجم عن تشغيل الماكينة ، وحتى بعد تحرك المركب ظلت اليمامة مستكينة لا تبرح مكانها !

والذى أذهل البحارة أنهم طوال الخمسة أشهر التى قضوها على سواحل لاس كورى لم يروا يمامة واحدة ، ولا أى طائر .. اللهم سوى طيور النورس التى كانت تحوم فى المكان وتستلقط أقواتها من أسماك البحر . فمن أين أتت هذه اليمامة ؟ وما الذى جعلها تستكين هادئة غير عابئة بما حولها من قلق وترقد فى هذا المكان العلى من المركب ؟

وتسير المركب ويشخص البحارة أبصارهم بين الفينة والأخرى ، فيبصرون اليمامة راقدة فى وداعة أعلى مقدمة المركب . وينظرون إلى بعضهم فى غرابة ويتحاكون فى هذه الدلالة الربانية ، وأن الله ناصرهم ومؤيدهم ، ولا يملكون إلا أن يبتهلوا إلى الله ويدعوه من قلوبهم بأن تتم نجاتهم . ولو كان القراصنة فى حالة تسمح .. لأشار لهم البحارة إلى اليمامة ليوقنوا أنهم كانوا على خطأ وقد امتهنوا الإجرام والسرقة بالإكراه ، واستمرأوا المكاسب الحرام ، وانتهوا إلى هذه النهاية المخجلة . وقد ظلت اليمامة رابضة مستكينة فى مكانها الآثر لم تتركه إلا عندما انقضى النهار وبدأت بشائر الظلام .. وكأنها قد اطمأنت على البحارة واستقر فى وجدانها سلامتهم !

بحسبة البحر يجد البحارة على كلا المركبين أنهم لكى يأمنوا تماماً من احتمال متابعة القراصنة لهم ، يجب أن يبتعدوا مسافة ١٣٠ ميلاً بحرياً . وحيث أن المركبين يسيران بسرعة ٦ أميال بحرية ، فلم تزل أمامهم ساعات طويلة حتى يأمنوا على أنفسهم ، ولهذا يقف نفر من البحارة علىَ كلا المركبين شاهرين السلاح من كل اتجاه خشية مداهمة القراصنة لهم . فلم يعد من الممكن أبداً أن يستسلموا لقراصنة يلحقون بهم ويعيدونهم ، ويعرضون أنفسهم فى هذه المرة لمصير مجهول قد ينتهى بالفتك بهم جراء ما فعلوه مع زملائهم القراصنة .

والبحارة يتسلحون بالإيمان ، وبعدالة موقفهم فى الدفاع عن أنفسهم ، وهم رجال أكفاء قادرون على مواجهة المواقف ، ويستطيعون التلاحم المسلح مع أى عدو يظهر لهم الآن . فمعهم السلاح والذخيرة والقنابل ، ولكن هناك " فرق " يجب الالتفات إليه .. فلو تتبعهم القراصنة ، سيكون مجيئهم فى لنش سريع أو أكثر من لنش . واللنش حجمه صغير وسرعته كبيرة قياساً بحجم وسرعة مراكب الصيد ، وبذلك يكون تصويب القراصنة السلاح على المركب أسهل من تصويب البحارة على اللنش .. حيث يحتاج ذلك إلى دقة ومهارة فائقة وحساب مسافات . فالمركب هدف شبه ثابت وحجمه كبير وواضح أما اللنش فهدف متحرك وسريع ولا يكاد يظهر فى خضم البحر . هذه بديهيات قد تكون حاضرة فى عقول البحارة الذين يراقبون البحر بعيون راصدة لكل حركة من الممكن أن تطرأ أو مشهد من الممكن أن يظهر .. وكل شيء متوقع ، ومردود ذلك إلى نجاة ولو قرصان واحد ممن ألقوا بأنفسهم فى البحر

يلاطمون أمواج الخليج .. وفوق ذلك سيحتفظون بالشيخ حسن خليل كرهينة . وربما قتلوه .

ما أن ابتعد المركبان عن سواحل لاس كورى .. حتى اتصل إيهاب نصر بالحاج سمارة نصر صاحب المركب " أحمد سمارة " وأخبره بالمحاولة الناجحة التى وفقهم فيها الله وقاموا بتخليص أنفسهم من ربقة الأسر . وحكى له سريعاً بعض التفاصيل وأبدى مخاوفه أو مخاوفهم من مطاردة القراصنة لهم . ورد عليه الحاج سمارة الذى فوجئ وانبهر بما حدث وقال له فى هدوء ونبرة العالم ببواطن الأمور ليبثه الطمأنينة والثقة : يا إيهاب . لم يعد فى مقدور القراصنة مطاردتكم ، فاطمئن تماماً . فعاد إيهاب وأبدى قلقه على الشيخ حسن خليل الذى مازال موجوداً فى لاس كورى أو على أحسن الفروض فى بوصاصو عاصمة إقليم بونت لاند . أى أنه فى حيازتهم وهذه فرصة القراصنة الذين سيعلمون حالاً بواقعة الهروب .. لأن أربعة فلتوا منهم وألقوا بأنفسهم فى البحر ولا شك أنهم سبحوا صوب الساحل . فطلب منه الحاج سمارة أن يطمئن ويُطمئن زملاءه بأن الشيخ حسن فى أمان .

قال الحاج سمارة ما قاله ، ولم يكن بطبيعة الحال يعلم شيئاً فى هذا الوقت عن الشيخ حسن . ولكنه الكذب المباح أثناء المعارك . وكان لابد أن يُطمئن البحارة وقد استشعر ارتجافهم وتحسبهم للمخاطر . وفى ذات الوقت كان ينتوى السعى من أجل تأمين المركبين فى عودتهما ، والشيخ حسن فى غربته .

كانت هذه المكالمة بالطبع مرصودة من رجال المخابرات العامة فى مصر ، شأنها شأن أى مكالمة تتم على محمول الحاج سمارة نصر إرسالاً أو استقبالاً ، ومع ذلك وإمعاناً فى التحقق من علم رجال المخابرات بما حدث اتصل بهم الحاج سمارة . وفى لهفة وسرعة رد عليه رجل المخابرات قائلاً " كله تمام " وأغلق الخط ! قالها بشكل يوحى أنه مشغول فى شىء آخر . بعدها أسرع الحاج سمارة نصر بالاتصال بالشيخ حسن خليل ليخبره بما فعله البحارة حتى يأخذ حذره . ولكنه لم يفلح إطلاقاً فى إجراء المكالمة عبر تليفون صديقهما اليمنى محمد النهدى فلم تكن هناك تغطية من شبكة المحمول . فى نفس الوقت كان أحمد حسن خليل ومحمد حسن خليل على متن المركب " ممتاز ١ " يحاولان الاتصال بأبيهم عبر هذا الصديق اليمنى .. وأيضاً لم يمكنهما الاتصال به لنفس السبب .. عدم تغطية شبكة الاتصالات . فظلا فى منتهى القلق على والدهما . وكان فى ظنهما ولم يغب عن بالهما أن القراصنة الذين هربوا من المركبين وألقوا بأنفسهم فى مياه الخليج حتما سيبلغون الجميع بما حدث . فإذا ما وضع فى الاعتبار السلوك الشرس والعقلية المنغلقة لهؤلاء القراصنة ولذويهم أيضاً . فلنا أن نتخيل مصير الشيخ حسن الموجود تحت إمرتهم وملء قبضتهم والذين سينظرون إليه بأنه كان العقل المدبر فى تنفيذ هذه العملية التى أسفرت ليس عن هروب البحارة فحسب . بل وأخذ بعض القراصنة معهم .

وبين محاولات الاتصال الفاشلة التى كان يحاولها الكابتن أحمد حسن خليل ومحمد حسن خليل مساعد الكابتن بأبيهم .. رن جهازهم

المحمول ، وظهر رقم الحاج سمارة نصر الذى طلبهم من عزبة البرج ليطمئن عليهما وعلى سائر البحارة الذين معهم ، فأخبراه بأنهم وجميع البحارة على ما يرام . وأفضيا إليه بقلقهما على أبيهما ، فطمأنهم الحاج سمارة بأنه بخير . وطلب منهما أن لا يقلقا عليه .، ولكن الحاج سمارة استشعر أنه لا قيمة لكلامه إزاء قلقهم البالغ على الوالد ورغبتهما فى أن يتحدثا إليه ليطمئنا عليه بنفسهما ، فأمهلهما حتى يطلبه ويجعلهما يحدثانه ، ولكن عبثاً استطاع الحاج سمارة أن يتصل بالشيخ حسن حيث لم تكن هناك تغطية لشبكة المحمول . وظل الحاج سمارة يداوم على محاولات الاتصال لا ييأس لأنه شخصياً كان قلقاً على الشيخ حسن الذى لا يعلم حتى الآن بما فعله البحارة ، وكان لابد أن يخبره الحاج سمارة بذلك ليأخذ حذره ويختفى عن أنظار القراصنة وذويهم أو يعود سريعاً إذا تيسر له ذلك . وأيضاً ليبثه بعض الطمأنينة بأن جهاز المخابرات علم بالواقعة ، ولا شك أنه بصدد اتخاذ تدابير الحماية له شخصياً وللبحارة على متن المركبين .

ولكن .. لا حياة لمن تنادى لقد كان الحاج سمارة يداوم على الاتصال بالصديق اليمنى المرافق للشيخ حسن الذى لا يوجد معه محمول بعد أن تركه لابنيه على المركب . ولكن الصمت المطبق كان الرد على كل محاولاته . وفجأة وفى إحدى المحاولات نجح الاتصال بالصديق اليمنى . ورد على الحاج سمارة الذى أخبره سريعاً بالعملية التى قام بها البحارة على متن المركبين ، وسأله عن الشيخ حسن فأفاد أنه بجواره وناوله التليفون ليتحدث مع الحاج سمارة الذى أخبره

بالمحاولة الناجحة للبحارة . وأفاده بأن ابنيه يريدان التحدث معه للاطمئنان عليه ولكنهما لم يفلحا فى الاتصال به . وباستخدام إحدى خاصيات التليفون المحمول طلب الحاج سمارة ابنى الشيخ حسن خليل على مركبهما وأوصلهما تليفونياً بأبيهم . وكانت أجمل محادثات العمر . كانت محادثة الاطمئنان .. اطمأن الوالد على ابنيه وسائر البحارة على المركبين ، واطمأن الابنان ومعهما البحارة على الشيخ حسن . واطمأن الحاج سمارة على البحارة وعلى الشيخ حسن . كما طمأن الشيخ حسن بأن جهاز المخابرات على علم بالحادث وحتماً سيقوم بعمله . وقد سعد الشيخ حسن خليل سعادة بالغة بما حققه البحارة على كلا المركبين .. ولكنه أسرّها فى نفسه . فهو الآن فى بوصاصو عاصمة إقليم القراصنة بونت لاند . ولابد أن يتعجل الرحيل للإفلات هو الآخر من براثن الغدر . ويالها من مفارقة غريبة . الشيخ حسن خليل المفترض أنه حر طليق أصبح يحس بالأسر وعليه أن يسعى جاهداً لتخليص نفسه والعودة سريعاً . والبحارة الذين كانوا أسرى تحت وطأة الذل والمهانة والقهر والإرهاب أصبحوا الآن أحراراً طلقاء ، يمتطون مركبيهم اللذين يمخران الآن عباب خليج عدن فى طريق العودة إلى مصر شمالاً بعد فترة أسر استمرت ١٢٦ يوماً انحصرت فيما بين ٢١ أبريل ، ١٣ أغسطس من العام ٢٠٠٩ لقوا فيها أسوأ معاملة وعاشوا أجواء مشحونة بالتوتر والرعب والخوف من المصير المجهول ، وأكلوا وجبة واحدة فى اليوم كانت الفائض من وجبة غداء القراصنة . وعندما نفد الطعام والماء جيء بطعام قليل وردىء ومياه قذرة ، واضطر البحارة إلى أكل

النتف على قلته وشرب الماء على علته للإبقاء على حيواتهم . وهاهم وقد فعلوا ما فعلوا على قلب رجل واحد .. يتمكنون بفضل الله وتوفيقه أن يفلتوا بأنفسهم من براثن هذا الذل وأن يعودوا بالقراصنة محتجزيهم ، وبسلاحهم وذخيرتهم وقنابلهم فى انتصار عالمى لم يسبقهم إليه أحد . انتصار الحق على الباطل . انتصار الخير على الشر . انتصار العقل الرشيد على القوة الغاشمة . انتصار الشجاعة المفرطة على الجبن المسلح . انتصار البحارة المصريين على القراصنة الصوماليين . ولكن لا يمكن الآن تجاهل قلق البحارة وتخوفهم من محاولة القراصنة اللحاق بهم . لقد أفرغ الشيخ حسن البر من عُماره . أو أخلى الساحل من مراقبة ذلك البائس الوحيد التائه في بيداء الجدب والحرمان . فترك ما ترك لينعم بوجبة غداء تسد رمقه . أو يدخن ويخزن مثل غيره . بينما أصبح البحارة أحراراً يفعلون ما يرونه فى غيبة من الحراسة والرصد والمتابعة والإبلاغ بما يستجد . فإذا بأربعة قراصنة يلقون بأنفسهم . يغرق من يغرق ، وينجو من ينجو .. ويعود إلى البرية التى لا شك بالغها . فيخبر بما حدث . وليست العملية عملية فرار من أسر ، ولكنها عملية أسر جديدة أصبح الآسر فيها مأسوراً والعزيز ذليلاً والطاغى منكسراً والحر عبداً والمسلح أعزلاً والقوى ضعيفاً .. والمتكبر منكسراً ، وهذا بدوره يوجد قلقاً أكبر لدى قراصنة بونت لاند على زملائهم الذين أُخذوا عنوة أسرى لدى المصريين . ولا أحد من هؤلاء البونت لانديين يعرف أنه من حسن حظ هؤلاء القراصنة المختطفين أنهم وقعوا فى أيدى بحارة مصريين لا ينشغلون بصغائر الأمور ، ولا يعنيهم التنكيل

بالقراصنة أو إذلالهم ، ولن يفكروا أبداً فى رد معاملتهم إليهم مع أنهم يستطيعون ذلك وبمنتهى السهولة والحرية . فهناك هدف أسمى وأمنية أهم ورغبة أشد فى العودة إلى ديار الأهل بعدما اشتدت الأبابة وطال أمد الفراق . يعودون ومعهم حنينهم العارم إلى الأهلين فى بلد الأمن والأمان ، مصر المحروسة .

الخوف رغم الأمان

أغرب رحلة صيد

لم يزل البحارة على قلق . فهم يحسبون حسبتهم ويجدون أن أمامهم ساعات طوال ليخرجوا من نطاق سيطرة القراصنة وإمكانية الوصول إليهم بالزوارق السريعة ، ولهذا يقف بعض البحارة شاهرين السلاح ويستكشفون الفضاء على اتساعه والبحر على تراميه ، فلربما وجدوا متابعاً شرساً يتعقبهم فيرشقونه بالرصاص ليمنعوا وصوله إليهم . هذا خطر قد يضاف إليه خطر آخر إذا ما تعرضوا لمحاولة قرصنة جديدة . لم لا !؟

لكن ومع كل هذه الاعتبارات الواردة والأفكار المحتملة ، لم يطق البحارة أن يروا القراصنة مكبلى القيد من أياديهم وأرجلهم وهم منزوعى السلاح لا حول لهم ولا قوة ، فيفكون قيدهم ويتركونهم على المركبين طلقاء يتنسمون الحرية رغم التحفظ عليهم والعودة بهم لتقديمهم إلى السلطات المصرية . شفع لهم حالهم البائس لأن يحسن البحارة معاملتهم ، ولا تكون مثلما كان القراصنة يعاملونهم .

وتدق أجهزة المحمول فى كلا المركبين . وها هو أعظم جهاز استخباراتى فى العالم . جهاز الأمن القومى . رجال المخابرات العامة فى مصر يطمئنون البحارة على أنفسهم وعلى الشيخ حسن .. ويبثونهم الثقة ، ويسألونهم عن احتياجاتهم . ويرد البحارة شاكرين بأنه لا ينقصهم أى شيء . وأن معهم كل ما يحتاجونه . وتصدر تعليمات رجال

الأمن القومى بأن لا يردوا على أى نداءات أو اتصالات قبل إخبارهم بها . وأن يعلقوا رايات بيضاء على المركبين . وما أن ينتهى اتصالهم حتى يتصلوا مرة أخرى . لقد كان رجال المخابرات يتابعونهم على الدوام . ولم يكن دورهم متقلصاً فى مجرد المتابعة والاتصال والاطمئنان . لقد كان لهم دورهم الأهم فى الاتصالات المتعددة بأكثر من جهة لتأمين عودة الصيادين . فقد اتصل رجال المخابرات بالاتحاد الأوروبى الذى تتمركز قواعده العسكرية فى المنطقة لحماية السفن من سطو القراصنة ، وتم إخبارهم ببطولة الصيادين ونجاحهم فى السيطرة على القراصنة والفرار من سواحلهم حتى يكونوا على بينة من الأحداث المستجدة فى المنطقة ويقوموا بدورهم فى حماية المركبين إذا ما عاود القراصنة ملاحقتهم . وقد قام الاتحاد بدوره بإبلاغ السفن الماخرة فى خليج عدن لمتابعة المركبين وتقديم أى خدمات مفتقرة أو مفتقدة .

كما قام جهاز المخابرات العامة بإبلاغ وزارة الخارجية بواقعة فرار الصيادين لتقوم بدورها فى تأمين عودتهم . وعلى الفور قامت وزارة الخارجية بإبلاغ سفارة مصر فى جيبوتى وسفارة مصر فى اليمن والقنصلية المصرية فى عدن لمتابعة الموقف وتقديم أى خدمات من الممكن أن يحتاجها البحارة .

وفجأة يأتى هذا النداء من مركب أجنبى يعلن عن نفسه : ممتاز ١ .. أحمد سمارة ، ويتكرر النداء مراراً . ويخبر البحارة رجال المخابرات المصرية بذلك فيقولون لهم استجيبوا وردوا عليهم ولو أردتم شيئاً اطلبوه . ويرد البحارة على هذا النداء . ويعرض المركب الأجنبى

خدماته على المركبين ، ورغبته فى أن يزودهم بما يحتاجون إليه . فيشكرهم البحارة ولا يطلبون شيئاً . وتستمر اتصالات جهاز المخابرات تكاد لا تنقطع . ويضطر قبطانا المركبين لوضع جهازى محمولهما فى الشحن لاستنفاد طاقتيهما باستمرار بسبب كثرة هذه الاتصالات وطول المكالمات . وكأنه لم يعد يشغل المخابرات العامة فى الوقت الحالى إلا موضوع المركبين . ولا شك أنه إلى جانب هذه الاتصالات المتكررة كان لجهاز المخابرات اتصالاته بالشيخ حسن خليل وببعض الشخصيات الهامة فى بونت لاند للمساعدة فى تأمين وجود الشيخ حسن عندهم .

لم يكن السبب فى اهتمام جهاز المخابرات بتأمين البحارة فى طريق عودتهم أو الشيخ حسن فى إقامته ثم عودته لمجرد أنهم مواطنون من أبناء مصر فجسب ، ولكن كانت هناك أسباب أخرى خاصة بالجهاز نفسه . فقد سبق لجهاز المخابرات أن اشترك فى فك أسر سفينة شحن مصرية اسمها " المنصورة " كان قد تم احتجازها على السواحل الصومالية وعلى متنها ٢٥ بحاراً ، ولكن بعد أن تم دفع مبلغ مقداره ٦٠٠ ألف دولار وترك ١٥ ألف طن أسمنت للخاطفين ، وهو ما يفت فى عضد الجهاز الذى أُرغم على ذلك حفاظاً على حيوات البحارة وسلامة السفينة . أما هذه فهى المرة الأولى التى يشترك فيها جهاز المخابرات فى محاولة جاءت عنوة وببطولة خارقة تليق باسم مصر وعظمة المصريين . عملية تعيد إلى الأذهان نجاحات هذا الجهاز ، وسمعته العالمية كأحد أهم أجهزة الاستخبار فى العالم .

إن نجاح هذه العملية بكاملها بما فى ذلك عودة الشيخ حسن خليل من

معاقل القراصنة إنما هو نجاح لجهاز المخابرات المصرية وإعلاء لسمعته العالمية .

وفى حقيقة الأمر كان جهاز الأمن المصرى يعى أن الدور الذى قام به الشيخ حسن خليل يتعدى كونه فك أسر مجموعة من الصيادين بأن هيأ لهم فرصة القيام بالهجوم على القراصنة واحتوائهم والعودة ببعضهم إلى مصر . ويذهب إلى كونه قام بعمل بطولى قومى من أجل مصر التى تضار من جراء أفعال القرصنة فى تلك المنطقة التى تشهد مسار الخطوط الملاحية المرتبطة بالمرور من قناة السويس . فقد كسر شوكتهم وأذلهم . ولو تكررت مثل تلك العمليات البطولية لكان فى ذلك دحض لأعمال القرصنة وتأمين لحركة الملاحة عبر قناة السويس التى استغنت عن المرور منها الكثير من الشركات الملاحية ، رغم ميزة قصرها وتوفيرها الوقت والجهد والمال .. الشىء الذى أثر سلباً على الدخل القومى المصرى ، وأيضاً على كافة الشركات الملاحية التابعة لكل دول العالم .

وهذا نداء يرد إلى المركبين .. إنها السواحل اليمنية تعرض خدماتها على طاقمى القيادة وإمكانية استقبال المركبين وإمدادهما بما يحتاجانه . ويشكرهم طاقما القيادة ولا يطلبان شيئاً . ومراكب كثيرة تتصل ورد البحارة لا يتغير.

ويعاود رجال جهاز الأمن القومى العرض على طاقمى القيادة فى كلا المركبين أن تتراكى مركبيهما " إن أرادوا " على سواحل اليمن ،

ويعودوا " جميع أفراد المركبين " من اليمن بالطيران . ولكن كان لطاقمي القيادة رأى آخر . لقد كانا يريان أن اكتمال نصرهم وفرحتهم لا يتأتى إلا بعودتهم إلى مصر بالمركبين والقراصنة !

والسؤال الذى يفرض نفسه هو : هل كان بالفعل لا ينقص المركبين شيئاً يطلبانه من المراكب التى نادت عليهما وعرضت سائر الخدمات .. وكذلك السواحل اليمنية ؟

كان وقود المركبين موجوداً وكافياً تماماً للعودة إلى مصر . ولكن الطعام على كلا المركبين كان قليلاً ورديئاً ، هو هذا الأرز والمكرونة وبتلك الكميات المتواضعة التى أتى بها القراصنة بعد نفاد المواد الغذائية التى كانت بالمركب . كما كانت هذه المواد الغذائية من أردأ الأصناف وأسواها ، ولكن وعلى الرغم من ذلك لم يكن طاقما القيادة ولا سائر البحارة يريدون أن يستوقفهم أحد ولو لبضع دقائق مهما كانت فائدة هذا التوقف . وفى المقابل كان البحارة جميعهم ينسون الأكل ، أو لا يهمهم الأكل . كل ما ينقصهم ويتوقون إليه هو الأمان والحرية والعودة سريعاً إلى الوطن والأهل .

ونستطيع الآن أن نمسك بخيوط الموقف على النحو التالى :

البحارة على متن المركبين وسط مياه الخليج فى طريق العودة إلى مصر ، ومعهم الأسرى من القراصنة الصوماليين ، يسابقون الوقت للابتعاد عن نفوذ القراصنة والوصول إلى مناطق الأمان . يكتنفهم قلق شديد على الشيخ حسن خليل الذى مازال فى بونت لاند عند معاقل القراصنة .

والحاج سمارة نصر في عزبة البرج يوالى الاتصال بالبحارة للاطمئنان عليهم . وأجرى أكثر من محادثة تليفونية مع الشيخ حسن ليطمئن عليه كما أنه على اتصال دائم مع جهاز المخابرات لتتبع مسعاه فى حماية الشيخ حسن وتأمين وجوده فى بونت لاند .

وجهاز المخابرات وجهوده ملموسة فى تأمين طريق عودة البحارة ، وأيضاً تأمين وجود الشيخ حسن خليل فى بونت لاند . والعمل على عودته سريعاً بأمان .

أما الشيخ حسن خليل فحكايته حكاية ، والمفروض أنه الآن بين زمرة القراصنة وتحت إمرتهم رهن ما يرونه من رد فعل تجاه هذا الغدر أو تلك المؤامرة التى لابد أنهم استشعروا ارتباطه بها . لقد مكث البحارة على سواحلهم أكثر من أربعة شهور فى استسلام تام لم يحركوا ساكناً . فما الذى دفعهم الآن إلى هذه الحركة المباغتة والتى جاءت بعد زيارة الشيخ حسن لهم ؟ لابد أنه العقل المدبر وراء تنفيذ حركة الخلاص . لابد أنه هو الذى أعطاهم الضوء الأخضر لتنفيذ المؤامرة . لابد أنه هو الذى زودهم بآليات تنفيذها فإن لم يكن فقد شجعهم على ذلك وأمدهم بشحنة معنوية دافعة لأن يفعلوا ما فعلوا ، وكان من نتيجته ليس الفرار من الأسر فحسب ، بل واحتجاز ثمانية قراصنة معهم لا يعلم أهلهم ومواطنوهم ماذا سيكون مصيرهم .. وهذه وحدها كفيلة بأن تجعل عقولهم تشط من رؤوسهم .

ولنبدأ العرض بأول مشهد يحكى كيفية تلقى الشيخ حسن للخبر ، وكيف كانت الأجواء وقت ورود هذا الخبر ثم إلام صارت ، وكيف

ستكون النهاية . دعونا نذكر أن الشيخ حسن خليل مازال إلى الآن فى بونت لاند بصحبة صديقه اليمنى محمد النهدى والرفيق الصومالى عبد الواحد الذى أصبح صديقاً للشيخ حسن بعد طول العشرة .. و " العيش والملح " الذى يتناولوه – ثلاثتهم – معاً يومياً .. ضمن الولائم التى يقيمها الشيخ حسن للعشائر والقبائل البونت لاندية ويشاركهم فيها أيضاً أفراد الحماية المسلحة المستأجرة لحماية الشيخ حسن والتى تلازمه كظله فى تلك المناطق النائية . النائية عن العَمار وعن الحضارة وعن المدنية ، والنائية عن الشرعية والانضباط والنظام . والنائية عن الاتصال بالعوالم الخارجية وعن الارتباط بالوطن الصومالى الأم وعن العلاقات الحميدة مع أى شعب من الشعوب . إنها أدغال صومالية . إنها برية موحشة . إنها فضاء مترامى على سواحل مهجورة ليس فيها إلا الجبال والأحراش والحشرات الضارة والحيوانات الضارية والقحط والانفلات الأمنى وبعض القبائل المتعايشة مع الفقر والمرض والبؤس والعوز ، لا هم حضر يعرفون الرقى ولا هم بدو يعرفون النخوة . إنهم همج مسطحون من أنفسهم مهمشون من الدنيا . وكان من الطبيعى أن يولد من رحم هذا التردى تلك الفئة الضالة التى امتهنت الإجرام ، واحترفت القرصنة دون مبالاة من أحد أو اعتبار لأحد . لقد تعب الشيخ حسن من التفاوض معهم وأتعبهم . هم يريدون المال وهو لا يملك المال ولا يرى شرعية للدفع ، وفى نفس الوقت يريد البحارة والمركبين ، ويرى أنه لاحق لهم فى احتجازهم دون أن يقترفوا إثماً . معادلة صعبة .. غير متوافقة ولا موزونة ، والذى حدث بعدما ترك الشيخ حسن البحارة على ظهر المركبين وأعطاهم الأمان لأن يُقدموا على

محاولة فك أسرهم ، نزل باللنش إلى الساحل ليركب السيارة آيباً وقد اصطحب معه القرصان الوحيد الذى كان على الساحل لحراسة المركبين بحجة أن يقدم له واجب ضيافة مع الجمع الذى يلتم يومياً للغداء ، بينما كان الشيخ حسن يقصد بالطبع إبعاده عن المنطقة . وبعد انتهاء الوليمة وإعلانه للقراصنة أنه وقد اطمأن على البحارة والمركبين مضطر إلى مغادرة بلادهم والعودة إلى بلده لتجهيز المبلغ المطلوب والعودة إلى المفاوضات ثانية . وقد استراح الصوماليون القراصنة لهذه الخطوة التى رأوها جادة وفاعلة فى عملية إطلاق سراح الرهائن والمركبين . وحيث عاد الشيخ حسن مع صديقه اليمنى والمسئول الصومال ابن بونت لاند إلى بوصاصو علم بما اقدم عليه البحارة من مكالمة الحاج سمارة نصر عبر محمول اليمنى محمد النهدى ، ثم إنه حادث ابنيه عندما أوصله بهما الحاج سمارة عبر خاصيته بجهازه النحمول واطمأن عليهما . وبعد هذه المتوالية الهادئة والمتعاقبة جاءت مكالمة عبر التليفون المحمول للمسئول الصومالى .. وما أن رد على محدثه حتى امتقع لونه وتبدلت سمته ومادت به الأرض .. فمن ذا الذى كلمه . وماذا قال له حتى أصبح على هذه الشاكلة الغريبة ؟

كانت المكالمة من أحد معارفه فى لاس كورى أخبره فيها بإفلات البحارة من قبضة القراصنة بعد معركة بالأسلحة النارية أسفرت عن مقتل جميع القراصنة ، فلم ينج منهم إلا فرد واحد ألقى بنفسه فى البحر وهو مصاب وسبح إلى الساحل . وهو الآن فى المستشفى يتلقى العلاج وهو الذى أخبرهم بما حدث . وتناوب الحديث مع المسئول الصومالى عبر هذه المكالمة بعض أهله ومعارفه يؤنبونه على ما فعل . وقالوا له

" مجيئك بالمصرى هو السبب فيما حدث وأنت المسئول الآن عن مقتل عيالنا " !

أنهى المسئول الصومالى المكالمة مذهولاً مما سمع . ونظر مبهوتاً إلى الشيخ حسن يذكر له ما قيل له . وبالطبع لم يفاجأ الشيخ حسن بما سمع لأنه كان يعلمه ،ورد عليه بهدوء قائلاً : فى الصباح تظهر الحقيقة. الرد مقتضب ولا يحمل أى معلومة أو نتيجة . ولا يُطمئن ولا يحل مشكلة . وقد بدا للمسئول الصومالى أن الشيخ حسن لا يعلم شيئاً عن الموضوع فسكت ينتظر ما سوف يجيء به الصباح وهو فى قرارة نفسه تائه فيما حدث ، تغلى الدماء فى عروقه ، ويفور التوتر فى كيانه .

وبالطبع لم يخلد أحد من الثلاثة إلى النوم .. ولم يغمض لأحد جفن ، وراحوا يتسامرون حتى الصباح فى أشتات من الحديث الذى لم يكن مركزاً فى موضوع ما ولم يكن إلا شغل فراغ . وبالطبع لم تكن تجمعهم مشاعر واحدة . فالشيخ حسن قلبه يرقص طرباً منذ اطمئنانه من الحاج سمارة على نجاح البحارة فى عملية الهجوم التى أسفرت عن هروبهم بالقراصنة بينما لم يصب فرد واحد من البحارة . كما أنه يعلم أنه على متن المركبين ثمانية من القراصنة الأحياء لم يُخدش أحدهم . ولكن لم يشأ أن يفيد المسئول الصومالى بذلك حتى لا يعرف أن الشيخ حسن كان يعلم بشيء أخفاه عنه . أما المسئول الصومالى فقد كان مرتجفاً مما سمع ، ومردود قلقه أنه إن صح ما سمع فقد بات مهدداً من قبائل بونت لاند بالقتل ثمناً على ما فعله فيهم .. أو تسبب فيه ، وليس أسهل عندهم من القتل ومن الغدر .. ومن الخيانة . أما اليمنى فلربما تنازعته مشاعر

متناقضة ما بين الفرح لنجاة البحارة ورحيلهم سالمين وبين الحزن على صديقه البونت لاندى الذى وُضع فى موقف مخجل غير مأمون العواقب خاصة أنه هو الذى كان همزة الوصل بين صاحبى المركبين وبين هذا الصومالى .. وهو سبب هذه المعرفة .

وفى الصباح كانت إحدى مكالمات الاطمئنان على الشيخ حسن . فقد اتصل الحاج سمارة نصر به عبر جهاز محمول الصديق اليمنى ليطمئن عليه ويسأله عما تم اتخاذه من إجراءات العودة . ووجدها الشيخ حسن فرصة واتته ليسأله على البحارة وسير المركبين ، فطمأنه الحاج سمارة وقال أنه دائم الاتصال بهم وأن المخابرات أيضاً تتابع ، فطلب منه الشيخ حسن أن يطلب له أحد المركبين بجهازه المحمول ويوصله بالكابتن ليطمئن المسئول الصومالى عبد الواحد على وجود القراصنة أحياء على ظهر المركبين . وعليه طلب الحاج سمارة نصر المركب " ممتاز ١ " التى يقودها الكابتن أحمد ومساعده محمد ، وأوصلهما بأبيهما الشيخ حسن خليل الذى اطمأن عليهما وعلى سائر البحارة ، ثم طلب منهما أن يأتيا له بأحد القراصنة . وناول التليفون للمسئول الصومالى ليحدثه . وقد أفاده القرصان أنهم ثمانية على متن المركبين . خمسة على المركب " ممتاز ١ " وثلاثة على المركب " أحمد سمارة " فيما قفز إلى البحر أربعة . وذكر له أسماء القراصنة الموجودين . كما أفاده أنهم بخير ويلقون أحسن معاملة من البحارة المصريين . وهنا انفرجت أسارير المسئول الصومالى واستراح جداً لما سمعه ، كأنه ضمن بقاء حياته . ولعله بعمله فى السياسة أو بحسه الدبلوماسى على

قناعة أن مصر كدولة محترمة ذات سيادة وكيان . لابد أنها بعد اتخاذ بعض الإجراءات القانونية .. ستعيد هؤلاء القراصنة . وأنهى المكالمة سعيداً .. ثم راح وكأنه تذكر شيئاً مهماً .. يسأل الشيخ حسن خليل . لقد قفز أربعة .. ولم يصل منهم إلا واحد . فأين الثلاثة ؟ وفى هدوء رد عليه الشيخ حسن : فروا إلى الأدغال وسيظهرون لاحقاً . فاطمأن المسئول الصومالى رغم أن الشيخ حسن لم يكن يطمئن إلى ما قال ولا يدرى لهم مصيرا .. إن كانوا بالفعل وصلوا البر سباحة ، أم غرقوا وماتوا .

وتتناقل وكالات الأنباء العالمية خبر فرار الأسرى المصريين من الصومال ، وتنشر الصحف .. وتذيع المحطات الإذاعية والقنوات التليفزيونية الخبر وتتابعه وتعلق عليه باعتباره عملاً بطولياً غير مسبوق ، وباعتباره الحدث الأهم ، والعمل الذى عجز عنه كل بحارة العالم بينما حققه مجموعة من الصيادين المصريين على متن مركبى صيد متواضعين قياساً بما يتم أسره والتحفظ عليه من سفن عملاقة وناقلات ضخمة وبوارج حديثة تابعة لأقوى دول العالم . والطريف أنه وقع ضمن اهتمامات العالم وجود الشيخ حسن .. العقل المدبر للعملية ، فى بونت لاند .. لم يزل فى معاقل القراصنة . والنظر الآن والانتظار لما سوف يفعله المصريون لحماية وتهريب هذا الرجل البطل القومى الذى أعطى له العالم رقماً ضمن أعظم المفاوضين . وصنفه بين الدهماء الدهاة .

وكان الشعب المصرى علىٰ وجه الخصوص منبهراً بما عمله شباب البحارة الدمايطة فى الصومال . لقد حققوا بطولة نادرة وأحرزوا نصراً مبيناً وقهروا قراصنة قهروا كل دول العالم ؟ وها هم أبناء دمياط المصريين يعودون بهم أذلة وقد جردوهم من أسلحتهم التى هى مصدر قوتهم . يعود البحارة بالمركبين اللذين احتجزا على سواحل بونت لاند الصومالية أكثر من أربعة أشهر ، وبثمانية من القراصنة .. بعد عملية بطولية بيضاء لم يرق فيها دم ، فقد حرص أبناء مصر المسالمين ألا يقتلوا فيها أحداً من القراصنة .. ووجدوا النصر الأكبر فى العودة بهم من الصومال أحياء أصحاء بكامل هيئتهم وهيبتهم !!

ولكن كانت هناك فى صدور المصريين أكثر من غصة وفى النفوس أكثر من لوعة . وفى القلوب أكثر من لهفة . كان الجميع ما أن علم بمغادرة المركبين لسواحل القراصنة يتعجل الزمن ليصل المركبين إلى مصر خوفاً من مطاردة القراصنة لهم وتعرضهم لعمليات إرهابية مسلحة تنسف هذه البطولة .. وتمحق هذه الفرحة . كما كان الخوف على الشيخ حسن خليل مدبر عملية الخلاص وراسم خطتها ، فلم يزل فى معاقل القراصنة .. تلك المناطق البائدة فى برية بونت لاند المنشقة عن الصومال والتى يعوزها الأمن ويكتنفها القلق ويعتريها العنف غير المبرر . ولابد أن النفوس فيها محتقنة من هذا الرجل الذى حسبوه وقوراً هادئاً أميناً طيباً فإذ به يقلب الطاولة على مفاوضيه . يلاعبهم ويتلاعب بهم . يهاجمهم ويهادنهم . يجافيهم ويستقطبهم . يعاندهم ويلاطفهم . وفى النهاية يخرجون من ملعبه خاوين الوفاض ، بينما انسل

أبناؤه البحارة من ساحل لاس كورى كما تنسل الشعرة من العجين ، وبغنيمة لم تكن فى الحسبان بتاتاً .. لقد أخذوا معهم القراصنة ! وكان هو بلا شك رجل هذه المهمة ومدبرها والمحرض على تنفيذها . يعتقدون ذلك وحاضرة الذهن تقدم أكثر من دليل : زيارته للساحل مرتين ، واتصاله بالبحارة مباشرة ، وعودته برجل الحراسة الوحيد يوم تنفيذ العملية ، وأيضاً كثرة المكالمات التى كانت ترد إليه فينتحى جانباً ويرد عليها دون أن يسمعه أحد . وفى بعض الأحايين كان يغلق المكالمة دون أن يرد . ثم يسارع بطلبها ثانية وأيضاً يبتعد عنهم عند الحديث . ثم إنه لم يخف اتصالات المخابرات العامة به . كانت كلها أمور باعثة على الريبة والتشكك والتخوف ووجوب الحيطة من هذا الرجل ، ولكنهم للأسف صدقوه بل وصادقوه وأمنوا إليه وانشغلوا بولائمه وتوقعوا منه كل خير ، وفى النهاية كان الخير كله له . لقد أفلت بحارته بمراكبهم ورحلوا سالمين غانمين بما معهم من قراصنة . أما هم فمن المؤكد أنهم أصبحوا أضحوكة العالم بعد أن كانوا مصدر رعب وقوة ، وأهل سطوة واقتحام ، وأرباب بأس وجرأة . لا شك أن وضعهم بات مهيناً . لقد أذلهم المصريون وكسروا شوكتهم وحطوا من قيمتهم .. بل دفنوا هاماتهم فى الحضيض .

كان الخوف على الشيخ حسن خليل متنامياً لا تهدأ له جذوة ، فالكل يخشى من تعرضه لعملية انتقامية يردون بها اعتبارهم أمام العالم . وليس أيسر من أن يدفع حياته ثمناً لدهائه فيقتل أو يخطف ويسجن أبدا . وانشغلت الحكومة المصرية واهتم الإعلام . وكان حاله وما سوف

يجرى له .. حديث كل الناس وسيرة كل بيت . لقد تحول الشيخ حسن خليل إلي " لهفة " كل مواطن مصرى .. وقلق كل أسرة .

وكان الرئيس حسنى مبارك متابعاً لهذا الحدث الأهم فى حينه لكل المصريين ، لقد انشغل بسلامة البحارة العائدين وراح يتابع عن كثب خطوات عودتهم . وفى نفس الوقت شغله وجود الشيخ حسن خليل فى بونت لاند وحان موعد زيارة محددة سلفاً للولايات المتحدة الأمريكية . وسافر الرئيس حسنى مبارك إلى الولايات المتحدة يوم ١٥ أغسطس عام ٢٠٠٩ لإجراء محادثات هامة مع الرئيس الأمريكى باراك أوباما . ومن هناك ورغم كل المستجدات عليه وتغير الأجواء من حوله ، لم ينشغل الرئيس عن موضوع الصيادين وأهمية تأمين الشيخ حسن خليل لحين عودته ، وكان يتابع الموضوع وما يستجد فيه ، ويعطى توجيهاته .

كان هناك بطبيعة الحال الجهاز الأمنى الذى اعتاد العمل ، واعتاد النجاح واعتاد تحقيق المستحيل . وفى ذات الوقت اعتاد الصمت لا تشغله شهوة الإعلام ، ولا صهوة الشهرة . إنه جهاز الأمن القومى .. جهاز المخابرات العامة .. الذى انشغل فى أولويات اهتماماته بتأمين البحارة العائدين بالقراصنة ، وفى ذات الوقت سلامة الشيخ حسن خليل فى بونت لاند والعمل على عودته سالماً . وفى الوقت الذى كان يسير فيه المركبان تجاه مصر كانت خطة تهريب الشيخ حسن خليل من بونت لاند تسير على النحو المرسوم لها واتُخذت كافة إجراءات تأمينه وعودته إلى مصر بأمان .. لأنه من الممكن أن يأخذ القراصنة الشيخ حسن كرهينة ويتم التحفظ عليه لحين عودة القراصنة أو لحين دفع الفدية التى

من الممكن أن يبالغوا فيها مادياً مع اشتراطهم عودة القراصنة أيضاً . فضلاً عن احتمالات عدم التفكير فى هذا أو ذاك ويقتل . ولا يختلف اثنان على خطورة تواجد الشيخ حسن فى مناطق نفوذ القراصنة وتلك الأجواء المحتقنة والنفوس المحمومة .

كان جهاز المخابرات العامة فى مصر على اتصال دائم ونشط بالشيخ حسن الذى يقيم الآن فى فندق متواضع بمدينة أكثر تواضعاً هى بوصاصو وبرفقته الصديق اليمنى والمسئول الصومالى ، يكتنف الجميع الخوف من أى محاولة غدر تكون ثمناً لما فعله البحارة . كانوا فى هذا المكان القلق يتوجسون خيفة من أى فرد يهجم عليهم بالسلاح فى أى وقت .. ليلاً أو نهاراً . والاهتمام الآن يجرى على كافة المحاور من أجل مغادرة بوصاصو . الصومالى قبل اليمنى واليمنى قبل المصرى .. ثلاثتهم يريدون الفكاك الآن من الوضع المحتقن والهروب بأعمارهم . ولا شك أن اللجوء إلى الطيران هو أفضل الطرق وأسرع الوسائل . ومن المفترض الآن أن يستقل الشيخ حسن مع رفيقيه الطائرة إلى جيبوتى ليركبوا منها طائرة أخرى إلى اليمن حيث لا يوجد طيران مباشر من بونت لاند إلى اليمن أو إلى مصر ، وتأتى الأخبار بما لا تشتهى الأنفس : إن أول طائرة ستغادر بوصاصو إلى جيبوتى كاملة العدد ولا يوجد مقعد واحد خال . ولا يمكن بحال الانتظار حتى موعد قيام طائرة أخرى إلى جيبوتى بعد عدة أيام . فماذا إذن عن الطرق البديلة التى ترمينا بعيداً عن بوصاصو لتلوذ هذه الصحبة بالأمان ؟

بالبحث والتحرى والسؤال والاستفسار ظهر صاحب لنش وافق أن

يأخذ الثلاثة بمقابل مادى كبير ويوصلهم إلى المكلا فى اليمن . وأخبرهم أنها رحلة تستغرق نحو ١٨ساعة . هناك أيضاً سيارة وافق صاحبها أن يذهب بهم إلى جيبوتى التى يصلها بعد يومين على أن يتقاضى مبلغاً كبيراً .

لم يكن المبلغ المادى المطلوب مقابل الرحيل من بونت لاند براً أو بحراً يمثل عقبة بالنسبة لهم .. ولكن الزمن الذى يستغرقه السفر ومخاطره واستمرار بقائهم لمدة أطول تحت طائلة القراصنة هو الشيء الذى يقلقهم . وإن كانت هذه أو تلك لم تكن سوى محاولات يتم استكشافها على سبيل الاحتياط إذا لم تمكنهم الظروف من ركوب الطائرة مكتملة العدد . فقد كان أملهم أن يتخلف بعض الركاب ويكونوا البدلاء .

فى خضم هذا الحراك غيَّر المسئول الصومالى رأيه وفضل البقاء فى بونت لاند ، لا شك أن عنده مبرراته أو أسبابه ، وإن كنا نستشف منها أنه لم يشأ الهرب من بلاده حتى لا يكون ذلك سبباً دامغاً لإدانته ، فهو يريد التقرب إلى القبائل الصومالية لامتصاص غضبتها .. وطمأنتهم على أبنائهم المحتجزين لدى البحارة المصريين ، وربما يعدهم بأنه سيسعى جاهداً لإعادتهم .. وهو يعلم جيداً أن مصر من الدول التى تحترم الشرعية الدولية وتقدر حقوق الجوار ولا يغريها أبداً أن تتشفى فى هؤلاء الأشقياء التى ستراهم بؤساء غُرر بهم .

نحن إذن فى احتياج إلى مقعدين فقط على الطائرة المتجهة إلى جيبوتى والتى لم يأت موعدها بعد ، رغم مرور أربعة أيام على وجود

الشيخ حسن فى بوصاصو بذلك الفندق المتواضع . أربعة أيام من القلق البالغ الذى ينتاب أبناءه وسائر البحارة والذين أصبحوا فى منأى عن طائلة القراصنة فى طريق عودتهم إلى مصر ولكنهم لم يشعروا بلذة الأمان لوجود الشيخ حسن لم يزل فى بوصاصو العاصمة .. ذات القلق الذى يكتنف الحاج سمارة على صديقه الشيخ حسن الذى سافر تخفيفاً عنه إلى بونت لاند . وهو القلق الذى تعيشه مصر كلها حكومة وشعباً . إن مصر التى سعدت وانبهرت وافتخرت بما فعله أبناؤها البحارة لم تزل قلقة يعتريها الخوف على بقاء الشيخ حسن فى بونت لاند تحت إمرة القراصنة وبين زمرتهم . لقد شحذ همم الصيادين ليفكوا أسرهم وأعطاهم إشارة البدء ويسر لهم السبل لذلك . بينما لم يستطع حتى الحين الفرار من براثنهم .

ولكن دور جهاز الأمن القومى لم ينته . فهم على اتصال دائم به يسألونه عن حاله وفى نفس الوقت يطمئنونه بأنه تحت سيطرتهم وفى دائرة اهتمامهم . ثم ها هى إحدى المكالمات على تليفون الصديق اليمنى محمد النهدى ، يريد طالبها أن يحادث الشيخ حسن خليل الذى تناول المحمول من صديقه اليمنى ليجد على الطرف الآخر أحد رجالات جهاز المخابرات المصرى يسأله فى البداية عن حاله ويطمئن عليه . ثم يخبره بأنهم تمكنوا من حجز مكانين له ولصديقه اليمنى على متن أول طائرة ستغادر بوصاصو إلى جيبوتى وسيكون ذلك اليوم .. الاثنين الموافق ١٧ أغسطس . لقد نجحوا باتصالاتهم فى تفريغ الطائرة من راكبين ليحل محلهما الشيخ حسن ورفيقه اليمنى وقد سعد الشيخ حسن سعادة

بالغة بتلك الخطوة المطمئنة . وأحس أن مكالمات جهاز الأمن القومى له والتى كانت تطمئنه على نفسه وتدعى أنه تحت سيطرتهم لم تكن من قبل التهدئة ، ولكنها كانت فاعلة . إنه الآن يتنبه أنه محل اهتمام بعض العاملين فى الفندق . بل إنهم جاءوا جدداً للعمل فى الفندق .. بعد واقعة فرار الصيادين . لا يكون هذا أبداً إلا شغل مخابرات . ولا يكون إلا للحفاظ على حياته .

وقبل موعد الطائرة فوجئ الشيخ حسن بزيارة من كبار المسئولين فى بوصاصو كان فى مقدمتهم محافظ بوصاصو وعدد من القيادات الأمنية .. جاءوا للاطمئنان على كيفية مغادرته الفندق ، فقد كان لونه الأبيض يكشفه فى تلك البرية ، ومن المحتمل أن يوجد من أهالى القراصنة من يتربص به لقتله أو خطفه . وقد انبهروا جميعاً من استعداد الشيخ حسن لتلك اللحظة ، فقد أخبرهم بأنه سيغادر الفندق من شباك دورة المياه الخلفية لتلافى الخروج من باب الفندق ، وأنه لارتفاع الشباك تم وضع كرسى أسفله من خارج الفندق حتى ينزل عليه . كما أنه أعد زى حريمى عبارة عن نقاب وحمالة صدر للتخفى بهما عند ركوب السيارة التى ستذهب بهما إلي المطار عبر دروب ضيقة بين أبيات المدينة .

وبالفعل ، وفى الوقت المحدد ارتدى الشيخ حسن الزى النسائى وركب السيارة بعملية تنكرية مع صديقه اليمنى ، ووصل المطار دون أن يكتشفه أحد من سكان بوصاصو التى سار بين أزقتها وشوارعها الملتوية التى كانت تخترقها السيارة بطيئة . وما أن وصل الشيخ حسن

إلى الطائرة حتى وجد مفاجأة فى انتظاره . لقد وجد حشداً هائلاً من الصحفيين ينتظرون مجيئه إلى الطائرة ليصوروه ويجروا معه أحاديث صحفية . والطريف أنه مر من بينهم بزيه الحريمي دون أن يكتشفه أحد وعندما وصل إلى سلم الطائرة أراد أن يتخلص من الزى الحريمى الذى يخنقه ، فراح يخلعه من فوق ملابسه ، وما أن شاهده الصحفيون ورجال الإعلام حتى ارتفعت صيحاتهم وراحوا يشيرون إليه وقد أدركوا أنه خدع الجميع بالزى النسائى وأفلت منهم . وأمام صيحاتهم وحماسهم وقف الشيخ حسن على سلم الطائرة ورفع يده فى زعامة محيياً إياهم وراح يصيح فيهم بنبرة المنتصر .. مصر أم الدنيا . مصر الأمان . مصر القانون . مصر الأزهر . مصر الحضارة والتاريخ . فراحوا يصفقون له إعجاباً بذكائه ووطنيته ونجاحه فى مهمته بدهاء يحسد عليه . واختفى الشيخ حسن داخل الطائرة التى تحركت .. وفى لحظات كانت فى الجو .. متخذة مسارها إلى جيبوتى . والغريب أنه طبقاً لخط سير الطائرة كان مقدراً لها أن تنزل فى مطار هرجيسه فى الصومال لاند إلا أنها لم تتوقف ، واتخذت طريقها إلى جيبوتى مباشرة حسب التعليمات !

وإن كنا هنا نرصد موقفين لرجال المخابرات العامة المصرية .. أولهما تأمين تواجد الشيخ حسن داخل الفندق فى بوصاصو وقد استشعر اهتمام بعض العاملين أو المتواجدين فى الفندق به وأحس بأنهم يراقبون الأجواء من حوله حتى لا يناله أحد . وثانيهما نجاحهم فى إيجاد مكانين للشيخ حسن خليل وصديقه اليمنى محمد النهدى على متن الطائرة

المتجهة إلى جيبوتى والتى كانت مكتملة الحجز وليس بها أى مقعد لراكب جديد . كما زاره بعض كبار المسئولين فى بونت لاند ليطمئنوا على طريقة مغادرته الفندق ويؤمنوا رحيله . ومن الممكن أيضاً أن نضيف موقفاً آخر هو عدم توقف الطائرة فى هرجيسه بإقليم الصومال لاند ، وطيرانها مباشرة إلى جيبوتى . وبعد هذا كله يأتى موقف جديد هو أيضاً من شغل رجال المخابرات العامة . فعندما هبطت الطائرة فى جيبوتى ، ونزل منها الشيخ حسن خليل وصديقه اليمنى محمد النهدى .. فوجئ الشيخ حسن بشخص مهندم يتقدم إلى مهبط الطائرة ويختصه بالسلام ، ويعرفه بنفسه .. إنه قنصل مصر فى جيبوتى . وقد اصطحب الشيخ حسن وصديقه اليمنى إلى حيث قدم لهما طعام الغداء . وقضى معهما بعض الوقت مرحباً ومهنئاً بالسلامة . وفى التاسعة مساءً استقل الشيخ حسن خليل وصديقه اليمنى الطائرة المتجهة إلى اليمن التى وصلاها مع الساعات الأولى ليوم الثلاثاء الموافق ١٨ أغسطس وفيما بقى فى اليمن مواطنها محمد النهدى بات الشيخ حسن ليلة فى فندق بالمطار ، ليستقل الطائرة المتجهة إلى مصر فى التاسعة من صباح يوم الأربعاء الموافق ١٩ أغسطس ، وما أن وصل الشيخ حسن خليل القاهرة فى ظهيرة هذا اليوم حتى فوجئ فى مطارها باستقبال رسمى وشعبى . فقد احتشد فى مطار القاهرة الدولى عدد غفير من المواطنين من بينهم أقارب وأصدقاء الشيخ حسن خليل ، وفى مقدمتهم عدد من كبار المسئولين فى وزارة الخارجية وجهاز المخابرات العامة ليكونوا فى استقبال البطل القومى الشيخ حسن خليل الذى كان حديث الصحافة

وكافة وسائل الإعلام . وأيضاً مثار خوف وقلق المصريين لما قد يفعله القراصنة معه .. وهو الذى جعلهم أبطال من ورق وضحك عليهم وراوغهم وتلاعب بهم ونجح فى رسم خطة الهروب للبحارة بعملية هجوم مباغتة لم يتوقعها القراصنة إطلاقاً .

والبحارة الآن بمركبيهم لم يزالوا يمخرون عباب البحر فى رحلة الإياب المظفرة كلما مرت ساعة زادتهم أماناً ، وكلما مر يوم أعطاهم اطمئناناً . كانوا يقيدون القراصنة من أياديهم وأرجلهم ، ويحددون تواجدهم .. ففكوا القيد وتركوهم أحراراً وكان بعض البحارة يعتلى حواف المركبين مشهراً السلاح خشية ملاحقة ومداهمة القراصنة لهم .. ثم أسقطوا من حساباتهم هذه الملاحقة ونزل البحارة بالسلاح . ثم ها هى السفن تناديهم وتعرض خدماتها عليهم وأهمها بالطبع تزويدهم بالسلع الغذائية . ولكن البحارة جميعهم لا يلقون بالاً إلى بطونهم ، ورغم أنهم كانوا يقدمون للقراصنة ثلاث وجبات فى اليوم ، فقد كانوا لا يأكلون إلا وجبة واحدة وبكميات قليلة للاحتفاظ بالمخزون السلعى . وكان البحارة يعاملون القراصنة معاملة طيبة للغاية ، وقد رأوا أن انكسارهم وذلهم وذعرهم واستكانتهم تكفيهم . لقد تغير حالهم إلى النقيض ، واكتنفتهم الوداعة .. يسألون عن مصيرهم فى مصر فى خوف وتوسل ، ويطمئنهم البحارة بأن السلطات المصرية ستعيدهم إلى بلادهم .. وأنه لا خوف على حياتهم إطلاقاً . يقولون لهم ذلك وهم الذين كانوا يتلاعبون بمشاعرهم ويقولون لهم سنقتلكم . وكانوا يفرطون فى استخدام السلاح وإطلاق الرصاصات بجوار أجسامهم ورؤوسهم ، وعندما يستعطفهم

البحارة ويقولون لهم نحن مسلمون مثلكم نقول لا إله إلا الله يقاطعونهم قائلين نريد المال . المال . المال . فيقطعون عليهم بذلك كل قول . والطريف أن البحارة فى عودتهم كانوا يداعبون القراصنة ويقولون لهم أنتم مسلمون مثلنا . نحن جميعاً نقول لا إله إلا الله . فيكمل القراصنة بأدب وخشوع " محمد رسول الله " ! واستمر البحارة يوالون القراصنة الاهتمام ويقدمون لهم كافة الخدمات . ومن المؤكد أن القراصنة فوجئوا بمعاملة لم يكن أبداً يتوقعونها . معاملة إسلامية . معاملة آدمية . معاملة هم أول من يدركون أنهم لا يستحقونها . ولكنهم أدركوها على متن مركبين كانا بالأمس مسرحاً لإجرامهم وجبروتهم . وفى انكسار يسأل واحد من القراصنة كابتن المركب " أحمد سمارة " هل ستقتلوننا ؟ ويجيب الكابتن مؤكداً : أبداً .. أبداً .. نحن لا نقتل أحداً .. فقط سنسلمكم للسلطات المصرية . ويعاود السؤال بخوف ورعب : والسلطات المصرية تقتلنا ؟ ويطمئنه الكابتن .. مصر لا تقتل أحداً . سترسلكم لبلادكم ، وبلادكم تحاسبكم . ويتنهد القرصان فى انتظار ما سيجىء .

يعيش البحارة الآن حالة طردية بين الوقت والأمان . فكلما زاد الوقت مضياً وكلما انصرمت الساعات ومرت الأيام اطمأنوا أكثر لحسن الخواتيم ، وشعروا بأمان أكبر . أمان افتقدوه طيلة شهور زادت على الأربعة ، عاشوها بين الذل والمعاناة والحرمان من الحرية . ومع ذلك لم يلجأ البحارة إلى التشفى من القراصنة الأذلة الآن . بل عاملوهم معاملة طيبة للغاية ، ولم يكن التعامل الطيب للقراصنة ، والعمل على توفير كل أسباب العناية والرعاية هو الشىء الذى أذهل القراصنة .

ولكن أذهلهم شيء آخر راحوا بمقتضاه ينظرون إلى البحارة نظرة إعجاب وتقدير بعد أن كانوا ينظرون إليهم نظرة تسطيح وتحقير . فما هذا الشيء الذى أذهلهم وبدل نظرتهم ؟

فى أيام الأسر الأخيرة . كانت هناك معاناة من نقص المواد الغذائية والمياه وهو ما حدا بالقراصنة أن يأتوا ببعض المواد الغذائية الرديئة والمياه القذرة وقد أكل الجميع قراصنة وبحارة من هذا الغذاء الذى كان فى مجمله أرز ومكرونة بصلصة طماطم . بينما اختص القراصنة أنفسهم بمياه نظيفة معبأة وتركوا المياه العفنة للبحارة يشربون منها . وشربها البحارة اضطراراً فلم يكن أمامهم إلا تلك المياه العطنة العفنة العكرة يحافظون بها على رمق الحياة فى وجدانهم ، رغم معافاة الأنفس لها والتقضد من طعمها .

والآن .. يفاجأ القراصنة فى المركب " أحمد سمارة " بأن البحارة أظهروا جراكن مياه كثيرة كانوا يخفونها . بينما فوجئوا فى المركب " ممتاز ١ " بخزان ضخم مملوء بالمياه العذبة .. كان البحارة يدعون لهم أنه سولار !

ويبدى القراصنة دهشتهم لهذه الكميات الكبيرة من المياه التى كان البحارة يخبئونها واستعملوا المياه القذرة أمامهم . ويضحك الكابتن أحمد نصر ويقول لهم بالسلاح استطعتم أن تقهرونا . ولكن عقولكم لا تستطيع أن تغلبنا . أما الكابتن أحمد حسن خليل فى المركب " ممتاز ١ " فقد قال لهم " مازال أمامكم الكثير لتصبحوا قراصنة " .. لعله قصد أن يصفهم بالغباء وأنهم لا يصلحون لأى شيء .. ولا حتى للإجرام !

من المؤكد أن رحلة العودة كانت محفوفة بالمخاطر في بدايتها . ولكنها الآن تتشرب الأمان . ويعيش البحارة أجواء الثقة ويعلمون أنهم يسيرون في مياه تحيط بها دول صديقة ودول عربية . فعندما ابتعدوا عن بونت لاند كان إلى الجوار الصومال لاند ذلك الإقليم المنشق عن الصومال والذى يتمتع بحكم انفصالى ذاتى وحياة آمنة مستقرة . ثم إلى الشمال تأتى دولى جيبوتى وقد كانت فيما مضى جزءاً من الصومال أيضاً . لكنه انشق وانفصل وأصبح دولة مستقلة مستقرة تربطها علاقات طيبة بالكثير من دول العالم ، ثم دولة أريتريا ثم السودان فمصر . وفى الساحل الشرقى يوجد اليمن الموحد الذى يعيش النقيض من الصومال الذى يتفتت . لقد شهد اليمن حركة انفصالية أفرزت دولة إلى الجنوب باسم جمهورية اليمن الشعبية تطل على المحيط الهندى . فيما بقى اليمن متقلصاً إلى الشمال على البحر الأحمر ثم قام رئيس اليمن الشمالى الذى كان يعرف بالجمهورية العربية اليمنية بتوحيد اليمنين فى يمن واحد ذى كيان متحد . وعاد اليمن قوياً يغلب شهوات الانفصال . وإلى الشمال من اليمن تمتد المملكة العربية السعودية بطول البحر الأحمر إلى أقصى الشمال . هى إذن منطقة عربية ودول صديقة باعثة على الأمان لم يعكر صفوها إلا هؤلاء الذين امتهنوا القرصنة من شباب بونت لاند المتردية فى كافة مناحى الحياة والفواحة بالإرهاب .

ويستطيع المركبان أن يجنحا فى طريق عودتهما إلى المياه الإقليمية لبعض هذه الدول التى ستستقبلهما بمعلومات مسبقة من جهاز الأمن القومى المصرى أو وزارة الخارجية ، وتقدم لهما كافة التسهيلات

والمعونات . ولكن أفراد القيادة فى كلا المركبين لا يريدون شيئاً حتى وإن كانوا يحتاجونه . كل ما يريدونه أن يعودوا سريعاً إلى مصر . وقد تعمدوا ألا يجنحوا إلى أى من تلك الدول الممتدة على سواحل خليج عدن أو البحر الأحمر . وساروا فى المياه الدولية وقد زادهم اطمئناناً وفرحاً وسروراً نبأ سفر الشيخ حسن من بونت لاند وأخيراً وصوله إلى مصر . لقد كان وجوده فى بونت لاند التى رحلوا هم عنها .. أمراً ينغص عليهم حياتهم ويقلقهم إلى أبعد مدى . أما الآن فلم يعد يشغلهم شيئاً ويعيشون أجواء نصر باتوا على بعد خطوات من إتمامه . إنهم فى طريق عودتهم إلى مصر بأغلى هدية .. وأعظم تحية ، لقد جاءوا بالقراصنة الذين كانوا يحتجزونهم . مدللين بذلك على قوة مصر وعظمة مصر . وتفرد مصر . وتميز مصر . إنهم شباب مصر الذين عاشوا على ثراها وشربوا من نيلها ويكنون لها كل الحب والعشق . هاهم يعودون إليها وقد طال ظمأهم إلى رؤيتها ورؤية أهلهم . بعد أصعب رحلة من الممكن أن يمر بها إنسان ، وأقسى تجربة من الممكن أن يعيشها إنسان . لقد تحملوا مالا يقدر عليه أحد . وقاسوا وعانوا ما تميد به الرواسخ . وها هم بفضل الله وتوفيقه يعودون بعد هذه الرحلة الأسوأ فى حياتهم وهذه التجربة الأصعب مرفوعى الهامة . مؤكدين أنهم وإن كانوا وقعوا فى الأسر .. فلم يكن ذلك ضعفاً منهم ، ولكن لأنه لم يكن معهم سلاح يستخدمونه ضد هؤلاء القراصنة المسلحين . ولأنهم خافوا على تحطيم المركبين وسط مياه الخليج من جراء إطلاق النار وضربهما بالقنابل التى كانت فى حيازة القراصنة . وكان من العقل حفاظاً على حياة البحارة أن يمتثلوا للقراصنة .. امتثال عدم التكافؤ .. امتثال العقل

والحكمة . وظلوا على سواحلهم هادئين لم يبدوا قلقاً أو تزمراً حتى أمن لهم القراصنة . ولكنه كان الهدوء الذى يسبق العاصفة ، بل كان إعصاراً ذلك الذى أقدم عليه طاقما القيادة فى كلا المركبين حيث قاما بالسيطرة على القراصنة واحتوائهم .. والعودة بالمركبين . كانت البداية تخطيط وسعى ودأب من الحاج سمارة نصر . وكانت النهاية خطة محكمة ومحنكة ومموهة من الشيخ حسن خليل . وكانت المعركة شجاعة وبطولة واستبسال من طاقمى القيادة اللذين عاونهما بعض البحارة . وكانت النهاية السعيدة التى أرادها الله لهؤلاء الصيادين الساعين إلى رزق المولى فى البحر . الشاكرين لفضله دوماً .

عودة الأبطال

أغرب رحلة صيد

بدأ المركبان رحلة العودة يوم الخميس الموافق الثالث عشر من أغسطس عام ٢٠٠٩ ، ولأنهما كانا يسيران بأقل من سرعتهما المعتادة نظراً لما ترسب على بدنهما من حشف وأملاح وطحالب نتيجة توقفهما لأكثر من أربعة أشهر دون إجراء عمليات صيانة ، كما كان هناك التحسب لتعطلهما أو تعطل أحدهما ، فإن أحداً لم يستطع الجزم بموعد الوصول إلى ميناء الأتكة بالسويس الذى كان من المقرر المجىء إليه . ولكنه بمرور الوقت وحساب المسافات ، وبعد أن دخل المركبان المياه الإقليمية لمصر ومرا من أمام ميناء برانيس ، فقد بدأ البعض يحسب ويضع احتمالات موعد الوصول ، وكان إجماع على أنه من المنتظر أن يصل المركبان فى أول أيام شهر رمضان المعظم ، الذى كان العالم الإسلامى على مشارف استقباله . ولكن بدا أن هذا التاريخ قد يسبق وصولهما . وبمرور الأيام وتأكيد الحساب اتضح أن المركبين سيصلان بإذن الله فى الثالث والعشرين من أغسطس عام ٢٠٠٩ م وهو ما يوافق ثانى أيام شهر رمضان المعظم عام ١٤٣٠ هجرية .

وبالفعل وصل المركبان وأصبحا على مشارف السويس فى حوالى الساعة الرابعة من فجر يوم الأحد المحدد سلفاً والموافق للتاريخين ، وبينما كانا فى غاطس ميناء السويس انطلق إليهما لنشان تابعان للبحرية المصرية بهما بعض رجال المخابرات الذين هنأوا البحارة على سلامة

الوصول وأثنوا على بطولتهم . ثم ناولوهم " ترنجات " زرقاء بعددهم جميعاً ليرتدوها كزى موحد ونظيف ولائق يظهرون به فى الاحتفالات التى تترقبهم . وتم إنزال القراصنة الثمانية إلى اللنشين .. كما تسلم رجال المخابرات من البحارة قطع السلاح والذخيرة والقنابل التى كانت معهم ، وانطلق اللنشان آيبان بينما بقى المركبان واقفان ينتظران الصبح للولوج إلى ميناء الأتكة .

وفى الصباح تحرك المركبان صوب الميناء الذى ما أن لاح إلى البعد إلا وهال البحارة ما رأوا . لقد رأوا غمامة من البشر . طوفان من الناس . آلاف مؤلفة من المواطنين المحتشدين على أرصفة الميناء فى انتظارهم . منظر تقشعر له الأبدان . وكلما اقتربوا أكثر تظهر الناس أكثر وضوحاً . ويتنامى إلى مسامعهم التهليل والتكبير وصيحات النصر وعبارات الترحيب .. والأيادى تلوح رافعة الأعلام واللافتات . وفجأة تنبه البحارة إلى شىء هام جداً . بل بالغ الأهمية . ماذا لو كانوا الآن وهم على أعتاب الميناء ومشارف الرسو على أرصفته يحملون معهم القراصنة الذين أتوا بهم ؟ لقد كانت الأحاسيس مكبوتة والمشاعر محتدمة والنفوس مشحونة ولو طالت هذه الأيادى هؤلاء القراصنة الذين يهددون الملاحة ويقتلون الأنفس ويعطلون السعى وراء الأرزاق ، لفتكت بهم وقطعتهم إرباً . لقد أيقن البحارة أن ما فعله رجال المخابرات معهم حين تناولوا منهم القراصنة ، كان هو التصرف الأمثل . هو التصرف المسئول والأكثر تحضراً لدولة فى حجم مصر التى من المؤكد أن لها حسابات أخرى مع هؤلاء القراصنة . أو على الأصح لها

حسابات أخرى فى هذا الموضوع ، خاصة أن مصر من الدول الملتزمة التى تتخذ من الشرعية الدولية إطاراً يحكم تصرفاتها .

وموضوع القرصنة بالذات لم تحكمه القوانين الدولية ، ولذلك نرى أن الدول التى اعتقلت سفنها بعض القراصنة لم تستطع تحديد الهيكل القانونى لمحاكمتهم ، وتشتت مصير هؤلاء القراصنة ما بين المحاكمة ارتجالياً فى بعض تلك الدول والتى وُجهت إليها لهذا السبب انتقادات بانتهاك حقوق الإنسان ، وما بين تسليمهم لموطنهم بونت لاند الذى لا يحظى بأى اعتراف دولى على الإطلاق فضلاً عن أن منظمات حقوق الإنسان توجه لحكومته انتقادات بارتكاب انتهاكات خطيرة لحقوق الإنسان ، أو تسليمهم إلى كينيا التى وقّع معها الاتحاد الأوروبى اتفاقاً فى مارس ٢٠٠٩ يقضى بإمكان محاكمة القراصنة بها .. رغم التسليم بعدم وجود نظام قضائى مثالى بها . وفيما يعد إضافة لسابق القول رؤى أن القوات الدولية المحتشدة بالقرب من الصومال .. لمناهضة أعمال القرصنة ، تفرج عن القراصنة الذين يتم اعتقالهم لعدم إمكانية تكييف أوضاعهم القانونية ، وضياع تهمتهم ما بين أعمال القرصنة والإرهاب بآراء تختلف فى توصيف القرصنة ويسودها رأى بأنهم ليسوا انتحاريين وليس هدفهم القتل .. ولكن المال . وبذلك يكون الفارق بين القرصنة والإرهاب كالفرق بين السرقة والقتل . وهو قول يضعف تهمة القرصنة ويخفف عن القراصنة فى حين أن القانون الدولى أجاز القبض على القراصنة ومحاكمتهم بل إنه لم يشترط بأن تقوم بذلك الدولة صاحبة العلم المرفوع على السفينة المختطفة . وأن عقوبة القرصنة تشبه عقوبة

اللص وتتدرج حسب الجريمة التى يرتكبها .. فإن كان سلباً أو نهباً يُحكم عليه بالسجن مع رد المسروقات ، وإذا ارتكب جريمة قتل يُحكم عليه بالإعدام . وكلها أشتات تعنى أن هناك تواطؤاً دولياً تجاه أعمال القرصنة وكأنهم يؤدون أدواراً مطلوبة ضد دول معينة . بل إنه يكفى هزلاً ما صرح به أحد القراصنة بأن دولاً تساعدهم بالمعلومات عن السفن المبحرة تجاههم . وأن نشاطهم يأتى على مرأى من قوات التحالف الدولى فى المنطقة .. الذين كثيراً ما يتبادلون معهم التحية !

ونعود إلى نشوة النصر ومظاهر الفرح ولحظات انتظار الأبطال الأفذاذ ، ففى تمام الساعة العاشرة وخمس دقائق دخل المركبان المظفران " ممتاز ١ " و " أحمد سمارة " إلى الميناء ، وبينما كان يهيئهما طاقما قيادتهما للرسو على الرصيف ، وقبل أن يتوقفا تماماً ويشدا أربطتهما ، اندفعت أعداد كبيرة من المواطنين إلى المركبين يقفزون إليهما ويعانقون البحارة ويحتضنونهم ، ونزل البحارة يفتشون عن ذويهم فى تلك الجموع الغفيرة ، وقد حضر الأهالى من محافظات دمياط والدقهلية وكفر الشيخ وهى المحافظات التى لها أبناء ضمن الصيادين العائدين إضافة إلى مواطنى السويس الذين حرصوا على الحضور ليشهدوا هذا الحدث الهام . واختلطت المشاعر والأحاسيس ، والأحضان والقبلات ، والدموع والضحكات ، والبكاء والزغاريد ، والهمس والصياح . كانت كل أسرة تسعى إلى ابنها أو عائلها . فإن رأته كان هناك احتفال على طريقتها .

كان الآباء والأمهات ، وكانت الزوجات والأبناء ، وكان الأشقاء

والشقيقات ، وكان الأطفال والأقارب ، وكان الجيران والأصدقاء . وكان المواطنون من كل صوب وحدب . الكل ينتابه حالة من الفرح لا حدود لها . كانت هذه الجموع المحتشدة لا ترى أملاً فى نجاة هؤلاء البحارة وعودتهم . وها هو الشمل يلتم ، ويسعد الآباء والأمهات بأبنائهم والزوجات بأزواجهن والأطفال بآبائهم بعد غياب طال أمده وبلغ ١٥٩ يوماً منذ إبحارهم من ميناء الأتكة فى الثامن عشر من مارس وحتى وصولهم إليه فى الثالث والعشرين من أغسطس من نفس العام ٢٠٠٩ منهم ١٢٦ يوماً كانوا فيها قيد الأسر وهى المدة المحصورة ما بين يوم اقتحام المركبين فى العاشر من أبريل ، ويوم معركة الخلاص فى الثالث عشر من أغسطس .. اليوم منها ليس كمثله يوم . كان يمر بطيئاً ثقيلاً تحسبه بالثوانى . فإن مر جىء بأسوأ منه . كانت أيام مشحونة بالقلق والأرق والتوتر ، والجوع والعطش والحرمان ، والشظف والمهانة والانكسار والذل والرعب والفزع والأذى والألم والحزن والشجن وكل سوءات الحياة وعيوبها .

ووسط هذه الجموع الغفيرة المحتشدة فى ميناء الأتكة يظهر سرادق أُعد ليستقبل فيه المسئولون أبطال ملحمة التحرير ، ويدخله البحارة ليروا كل وسائل الإعلام وقد جاءت تغطى هذا الحدث التاريخى . وتطوف عدسات القنوات الفضائية تصور وتركز على البحارة الذين كانوا معروفين بزيهم الأزرق الموحد ويحاولون وسط هذا التزاحم الشديد أن يجروا معهم حوارات أو يلتقطوا أخباراً . وينتشر مندوبو الصحف ووكالات الأنباء يسعون لاستخلاص الحقائق من البحارة

ويسجلون أقوالهم وحكاياتهم . ويتصدر هذا السرادق منصة يعتليها كبار المسئولين وكان فى مقدمتهم الدكتور محمد فتحى البرادعى محافظ دمياط الذى حضر إلى السويس خصيصاً لهذه المناسبة واللواء محمد سيف الدين جلال محافظ السويس . كما كان فى مقدمة الحاضرين صاحبا المركبين الحاج سمارة نصر صاحب الدور المهم فى الوصول إلى معاقل القراصنة والشيخ حسن خليل الذى سافر إلى القراصنة وتلاعب بهم وخطط لهروب الصيادين .. وقد لقيا اهتماماً بالغاً من كل وسائل الإعلام وامتناناً لدورهما فى حل أو فك أسر البحارة دون أن يغرموا شيئاً ، فرفعا بذلك راية مصر خفاقة بين كل دول العالم التى ترضخ فى الغالب لمطالب القراصنة حال أسرهم للسفن . ويلقى المسئولون خطباً رنانة ويشيدون بما فعله أبطال مصر وأنه محل إعجاب كل المصريين بل والعالم أجمع ، وفى كلمته يفجر الدكتور محمد فتحى البرادعى محافظ دمياط المفاجأة فينقل إليهم تحيات الرئيس محمد حسنى مبارك وتقديره . ويعلن عن هدية الرئيس لأبنائه أبطال معركة التحرير وهى إنشاء ميناء صيد فى عزبة البرج يقدم كافة الخدمات للصيادين والمراكب ، ويتعالى التصفيق والتهليل تقديراً للرئيس مبارك . فقد كانت أغلى هدية وأجمل وأحسن ، فهى هدية نافعة ناجعة تعمل على تنمية مهنة الصيد وتطويرها والارتقاء بها . وكثيراً ما تمنى أهالى عزبة البرج إنشاء هذا الميناء على ساحل البحر الأبيض المتوسط شمال شرق بلدتهم لتلافى بعض صعوبات الإبحار من نهر النيل والوصول إليه وصيانة المراكب فيه . وها هى الآمال تتحقق ويكون الصيادون الذين

احتجزوا فى الصومال سبباً فى رقى مدينتهم واستحداث خدمات أفضل لمهنتهم التى يعمل بها غالبية مواطنى عزبة البرج التى تمتلك أكبر وأهم أسطول صيد سمك فى مصر وهو فى حجمه يعادل نحو ثلثى أسطول صيد السمك على مستوى مصر . إذن لم تكن هدية الرئيس للصيادين العائدين فقط ولا حتى لبلدتهم .. ولكنها لمهنة من أهم المهن فى مصر . ومن الممكن بطبيعة الحال أن يستخدم هذا الميناء أو يقدم هذا الميناء خدماته لمراكب الصيد من كافة المحافظات . وأن يقوم بدوره الفاعل للمراكب التى تعمل فى البحر الأبيض المتوسط كما ميناء الأتكة للبحر الأحمر .

ومراعاة لمعاناة الصيادين ، وتلاشياً للازدحام الزائد والصخب المتعالى لا يستمر الاحتفال طويلاً ليركب البحارة جميعاً حافلة تقلهم إلى القاهرة حيث يدخلون مستشفى " وادى النيل " للكشف الطبى عليهم والاطمئنان على صحتهم ، وكان الأهالي يتبعونهم في موكب نصر ضخم ضم كافة أنواع السيارات .

وفى المستشفى كانت الإجراءات سريعة ، وخرج البحارة جميعهم وقد اطمأنت الدولة إلى سلامتهم فيجدون أتوبيسين أحدهما يقل بحارة محافظة دمياط والمطرية – دقهلية والآخر يركبه بحارة برج البرلس ليتخذ كلاهما طريقه إلى وجهته .

وكانت محافظة دمياط قد استعدت لاستقبال أبناءها أحسن استقبال ، وخرجت عزبة البرج عن بكرة أبيها تستقبل أبناءها الصيادين وتعم



الفرحة أرجاء عزبة البرج التى عاشت أكثر من أربعة أشهر متشحة بالسواد حزناً على أبنائها وقلقاً على حيواتهم ، وكانت الكآبة تخيم على كل رجا من أرجائها والجميع يحس بالخيبة والحسرة . ها هى الآن تلك المدينة الأهم فى عالم الصيد ، الثرية بأبنائها .. ترتدى ثوباً قشيباً تستقبل به أبناءها البررة . أبناءها الأبطال . أبناءها الأعزاء . ها هى عزبة البرج وقد ازدانت بالأعلام وعلقت الأنوار ورفعت اللافتات وتزينت مراكبها فى البحر وخرج أبناؤها إلى الشوارع واكتظت شرفات منازلها .. تستقبل أبناءها بالورود والزغاريد والتكبير والتهليل وصيحات النصر ، وها هم أبطالها الشباب يجوبون شوارعها يحيون أهلهم وأصدقاءهم وجيرانهم وأحبابهم . لا شك أنه أهم وأروع وأجمل احتفال شعبى تشهده مدينة عزبة البرج فى حياتها . فرحة ما بعدها فرحة . ونصر ليس كمثله نصر . لقد رفع هؤلاء الشباب هامة مصر وجعلوا كل العالم يتحدث عن بطولة المصريين الذين فكوا أسرهم وأسروا آسريهم وجاءوا بهم إلى بلدهم . شىء مهم جداً أن يأتى المأسور بالآسر . منظر مهم جداً أن يشهد العالم قراصنة الصومال قادمين على متن مركبى صيد استطاع بحارتهما العُزل أن يقيدوا حركتهم ويشلوا قوتهم ويأتوا بهم وبسلاحهم وذخيرتهم وقنابلهم ، وقد فعلوا كل ذلك دون أن يصلهم مدد أو يتم تزويدهم بآليات قتال . لقد فعل شباب عزبة البرج المستحيل وأتوا بأعجوبة من أعاجيبَ الدنيا . ليسجلوا للتاريخ واحدة من بطولات شعب دمياط العظيم . بطولة نادرة فكر لها وبحث وسعى الحاج سمارة نصر وسافر لها ودبر وخطط الشيخ حسن خليل .. اللذان يتقدمان

موكب النصر الآن فى عزبة البرج يلوحان بالأيادى لأهالى العزبة قاطبة ويتلقيان التهانى منهم . وفى حضرتيهما أبطال مصر الشباب أصحاب معركة التحرير .

هو الحدث الأهم فى مصر كلها الآن . هو حديث كل وسائل الإعلام المرئية والمسموعة والمكتوبة . والكل يشاهد والكل يسمع والكل يقرأ والكل يتلهف لمتابعة هذا الحدث الأكثر من رائع . وفى وقت لاحق وتمشياً مع ذات السياق ونشوة الفرحة بهذا النصر المؤزر الذى حققه أبناء مصر ، تسابقت أجهزة الدولة وهيئاتها ومؤسساتها ونقاباتها ومواطنيها فى الاحتفاء بهؤلاء البحارة وتكريمهم مادياً ومعنوياً ، ومنحوا الكثير من الميداليات والجوائز المادية والعينية تقديراً لصبرهم واحتمالهم . وتقديراً لتخطيطهم المحكم وتنفيذهم لهذه البطولة الخارقة . ودائماً ما يكون فى مقدمة المحتفى بهم الحاج سمارة نصر والشيخ حسن خليل صاحبا المركبين واللذان لم يدخرا جهداً أو فكراً أو مالاً فى الوصول إلى البحارة المأسورين والعمل على فك أسرهم . وقد تسابقت وسائل الإعلام فى إجراء الحوارات معهما لمعرفة كافة خبايا هذه البطولة الفائقة ، كما ظهر البحارة فى العديد من وسائل الإعلام . ولا يُعبر عن أجواء هذه الفرحة بهذا النصر وتكالب وسائل الإعلام على نشرها والإشادة بها أكثر من ذكر ما تم إعلانه فى إحدى الصحف القومية من أن ١٢٦ جهة إعلامية ما بين قناة تليفزيونية ووكالة أنباء وصحيفة .. قد طلبت فى وقت واحد إجراء حوارات مع الشيخ حسن خليل !

لقد عاشت مصر لحظات فرح حقيقية وأجواء انتصارات عظيمة شهدت أشنع هزيمة لقراصنة الصومال الذين أرهبوا العالم ، وتم أسر ثمانية منهم فيما هرب أربعة إلى البحر ذعراً وخوفاً وفراراً من صرعة المصريين عليهم . تأتى حلاوة هذا النصر فى الوقت الذى لم تستطع فيه أى من دول العالم رغم الإمكانات الفائقة والتقنيات الحديثة أن تخلص أبناءها من قبضتهم ، ولم يتم الإفراج عن رهائن إلا بدفع الأموال الطائلة التى كان يطلبها القراصنة ويبالغون فى قيمتها . إلا أنه تجدر الإشارة إلى القول أنه لا تقاس بطولة المصريين بقدر ما وفرته من أموال الفدية التى طلبها القراصنة وقدروها بخمسة ملايين دولار كحد أدنى لم يشأوا النزول عنه . فهذا جانب يسير من جوانب النصر الذى يزيده انبهاراً أن قام به أفراد عُزل من السلاح ضد قراصنة أشرار مدججين بالسلاح ومشحونين بالغطرسة والشر والجبروت ، وأين ؟ فى عقر دارهم . فى خليجهم ، وعلى سواحل معاقلهم !

لقد كان نصر شباب دمياط على قراصنة الصومال نصراً للفضيلة على الرذيلة . والعدل على والظلم . والخير على الشر . والعقل على الجبروت . وتتويجاً لمساعى الدولة ممثلة فى أجهزتها المعنية .

ومن المؤكد أنه على النقيض من مشاعر المصريين واحتفالاتهم ، كان الحال فى بونت لاند الصومالية حيث معاقل القراصنة وقبائلهم وعشائرهم والحزن العارم الذى يخيم على ربوع المدن والقرى والشعور بالأسى على أبنائهم الذين هرب بهم المصريون ، ولا يعرفون ماذا سيكون مصيرهم . لقد انتقلت الحسرة واللوعة والقلق على الأبناء

ومشاعر الخوف والفزع من عزبة البرج إلى بونت لاند ، وشرب الصوماليون من نفس الكأس الذى سقوا منه المصريين وسقوا منه كافة دول العالم . ها هو الزمن يبدى لهم الوجه الآخر ، وتتقلب الأحوال رأساً على عقب ، وباتوا يحسون لوعة فراق الأبناء والحسرة على مصيرهم . ولو كان فى رؤوسهم عقل لأدركوا أن مصر بلد القانون . وبلد الالتزام والشرعية واحترام آدمية الغير ، مصر تكرم الوفادة وتوقر الضيوف وتحترم الغريب ولا تتشفى فى مذنب . والصوماليون بصفة خاصة مثار شفقة المصريين . فهذا قطر عربى شقيق يعتريه الشقاق وتكتنفه الحركات الانفصالية وتتقلص مساحته نتيجة النزعات القبلية والمطامع الأجنبية ، وهى أمورٌ داعية لأهمية النظر إلى هذا القطر والوقوف على مشاكله والعمل على حلها من أجل الحفاظ على وحدة أراضيه وحمايته من تلك الحركات الانفصالية التى تفتت كيانه إلى أقاليم ضعيفة تفتقر إلى الشرعية والحول والقوة . لقد عرف هذا القطر الانفصال قبل أن يعرف الوحدة ، وعرف الشقاق قبل أن يدركه الاستقلال . ففى ٢٧ يونيو عام ١٩٦٠ أُعلن استقلال شمال الصومال الذى كان تحت طائلة الاحتلال البريطانى وبعد خمسة أيام وتحديداً فى أول يوليو من نفس العام استقل الشطر الجنوبى الذى كان محتلاً من إيطاليا ، وكان هذا دافعاً لأن يسعى الصوماليون إلى استقلال إقليم عفر " الصومال الفرنسى " وقد نال استقلاله بعد ذلك فى أول يوليو عام ١٩٧٧ ولكنه خيب آمال الصوماليين وانفصل خارج نطاق الصومال وهو ما يعرف الآن باسم جيبوتى ولم يكن سعى الصوماليين إلى استقلال هذا الجزء إلا من أجل وحدة الكيان الصومالى ، ويأتى هذا

الاستقطاع كإضافة لإقليم أوجادين الذى تم ضمه لأثيوبيا ، والإقليم الذى يعرف بالمقاطعة الشمالية الحدودية الذى ضمته كينيا ورفضت إعادته للصومال رغم رغبة مواطنيه فى الانضمام إلى الوطن الأم .

ولم يشهد الصومال بعد ذلك استقراراً فى الحكم يتيح له الحفاظ على ما بقى منه ، فقد قاسى الكثير من المؤامرات الانقلابية التى أطاحت برؤسائه وأتت بجدد ، وكنتيجة لهذه الانقلابات شهد هذا القطر مؤخراً الكثير من مظاهر الفوضى وحركات التمرد والانفصال . فقد انفصل جزء فى الشمال وكون إقليماً عُرف بالصومال لاند ، وفيما بين الصومال لاند شمالاً وباقى الكيان الصومالى جنوباً انشق جزء آخر هو بونت لاند الذى أخذ شهرته من أعمال القرصنة .

وعلى الرغم من أن الصومال دائم الإعلان عن وحدة ما تبقى له ولا يعترف بانفصال إقليمى الصومال لاند وبونت لاند إلا أن الواقع غير ذلك تماماً ، ولا توجد سيطرة لحكومة مقديشيو على هذين الإقليمين مطلقاً .

وتبلغ مساحة الصومال ٦٣٧ ألف كم٢ ، أكثر من نصف هذه المساحة تستخدم كمراع طبيعية يعمل بها ثلاثة أرباع السكان البالغ عددهم نحو عشرة ملايين نسمة ، وتمتد الأراضى الصومالية طولياً فى شرق أفريقيا بتلك المنطقة المسماة أفريقيا الشرقية أو القرن الأفريقى بساحل يمتد على خليج عدن شمالاً وينحدر جنوباً إلى الغرب على المحيط الهندى . ويحد الصومال غرباً أثيوبيا ، ومن جهة الشمال الغربى جيبوتى ومن الجنوب الغربى كينيا . وهو موقع استراتيجى هام

لإطلالته على مضيق باب المندب وطرق التجارة العابرة له بساحل يزيد على الثلاثة آلاف كم ، ومن الممكن أن يُوجد فرص عمل فى مجال الصيد لشريحة كبيرة من السكان ، وأن يكون رافداً هاماً من روافد الدخل القومى للبلاد حتى فى حالة عدم استغلاله بالشكل الأمثل والاكتفاء بالسماح للغير بالصيد منه نظير رسوم معينة مثلما يحدث فى بعض الدول ومنها موريتانيا التى تحقق دخلاً يقدر بنحو ثمانمائة مليون دولار سنوياً مقابل السماح لشركات الصيد بالاصطياد من مياهها الإقليمية قبالة سواحلها التى يبلغ طولها نحو ٨٠٠ كم فقط . ولكن الصومال يتناسى هذا الرافد الهام من روافد الدخل القومى للدول وكأنه دولة داخلية تفتقر إلى إطلالة على بحر !

والصومال أيضاً ثرى بموارده الطبيعية المتمثلة فى البترول والغاز الطبيعى واليورانيوم ، ولكنه لا يستثمر هذه الموارد بالشكل الأفضل حيث تشغله الحركات الانفصالية والمظاهر الانشقاقية والحروب الداخلية واعتداءات أثيوبيا وتدخلات أريتريا ومطامع كينيا وتربص بعض الدول الأجنبية وغياب الدور العربى .. عن استثمار موارده فى التنمية . ومن هنا يأتى ضعف الصومال وفقره وظهوره كإقليم بائس تكتنفه المجاعات ويعيش الأزمات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية . نضيف إلى ذلك أنه فى ظل هذا التردى وفى غيبة من الوعى الثقافى والوازع الدينى يأتى تمرد بعض شبابه وانخراطهم فى عصابات سطو مسلح تمارس إجرامها ضد السفن التى تمر فى خليج عدن لا تفرق بين مركب وآخر ، بما فى ذلك السفن التى تُرسل إليهم بالمساعدات الإنسانية والمواد الغذائية ! وبلغ حدة إجرامهم واتساع حراكهم العدوانى إلى درجة أن

استولوا على بعض السفن للمرة الثانية . وهاجموا سفناً عملاقة تحمل السلاح والبترول والمواد الكيماوية !

وأسوأ من اللا تدين ، الفهم الخاطئ للدين . وعلى هذه الخلفية يقع الصومال الآن فريسة بين يدى جماعتين راديكاليتين مسلحتين هما جماعة الشباب ، وجماعة حزب الإسلام . وكلاهما تحاولان الإطاحة بالحكم السائد الآن وإحلال نظام إسلامى . وللجماعتين أنشطتهما المخربة للبلاد والمجهضة لأمنه واستقراره . ثم إنهما تتقاتلان مع بعضهما من أجل السيطرة على المناطق التى لا تسيطر عليها الحكومة الصومالية !

لقد بلغ الحال بالصومال ليس إلى افتقاره إلى المواد الغذائية والسلع الأساسية واحتياجاته للمساعدات فحسب ، بل إلى درجة عدم توافر المياه الصالحة للشرب رغم وجود نهرين يجريان فى أرضه هما نهر جوبا ونهر شبيلى اللذان ينبعان من هضاب أثيوبيا . وهى نقطة تشدك قهراً إلى الوقوف على معاناة الصومال فى انتشار الأوبئة والأمراض .. وبخاصة مرض الملاريا . وتقلص أو انعدام الخدمات الصحية فضلاً عن تردى سائر الخدمات الأخرى .. وبخاصة الخدمات التعليمية والاجتماعية والأمنية .

وفى ظل هذه الفوضى والانحدار ، والبؤس والشقاء تراك فى حيرة . هل أفرز هذا الفشل .. القرصنة ، أم كانت القرصنة هى سبب هذا الفشل ؟ أم أن الإجابة على هذه الحيرة ليست فى هذه ولا تلك ،

ومن المفترض أن ننحاز إلى الرأى القائل بأن قوى خفية وراء هذا الفشل المقصود للصومال من أجل السيطرة عليه وضمان الحصول على موارده وبخاصة البترول أكسير الحياة فى الغرب المهتم رغم معاداته للقرصنة ومقاومته لها أنه هو الذى يدعم وجودها ويقوى بقاءها ليظل الحال البائس على ما هو عليه ويضمن السيطرة على الصومال أو يرى شرعية لهذه السيطرة . وهنا أضطر إلى خطف معلومة مؤداها أنه إن كان ذلك كذلك ففى هذه الحالة لا يكون انتصار بحارة دمياط مقصوراً على قراصنة الصومال بل يكون البحارة قد انتصروا على القراصنة ومن هم وراء القراصنة من الدول الأجنبية وبالأخص الغربية الداعمة لوجود هؤلاء القراصنة ، والمسئولين عن مدهم بالأجهزة المتطورة والسلاح . أى أن الدمايطة قهروا العالم وغلب ذكاؤهم دهاء الماكرين من كبار ساسة الدول الاستعمارية المناهضة لوحدة واستقرار الدول النامية التى تحمل فى بطون ثراها البترول والغاز الطبيعى والمعادن الهامة .

ويظل الصوماليون على قناعة بأن بلدهم بات ضحية لمؤامرات ساسة دول العالم المتقدم .. المستعبد والمستعمر الهادف إلى استنزاف ثرواتهم واستغلال موقعهم . يعضد هذا الفكر أن يجدوا بلادهم خلال فترة المحاكم الإسلامية قد استطاعت السيطرة على القراصنة وإبطال مفعولهم .. بينما تنشط تلك العمليات الإجرامية الآن وتزداد ويتم خطف عشرات السفن رغم وجود أساطيل بحرية من كل أنحاء العالم ! وفى الوقت الذى ترابض فيه البوارج الأمريكية بالقرب من السواحل

الصومالية توجد عشرات السفن المحتجزة على هذه السواحل قيد الأسر. ويتعجب الصوماليون : كيف تنطلق الطائرات الأمريكية لقصف مسلحين إسلاميين فى أدغال القرى الصومالية النائية . بينما لم تنشط تلك القوات فى دحض القرصنة ومحق قواتها التى تهدد الملاحة فى البحر الأحمر الذى تعبره سنوياً نحو ٣٢٥ مليون طن من البضائع تمثل ١٠ % من إجمالى الشحنات العالمية .. فضلاً عن ٣٠ % من الإنتاج النفطى العالمى . كما تعبره العديد من البواخر السياحية ، وترتاده سفن الصيد .

هى إذن شواهد تؤجج مواجد مواطنى الصومال القاطنين إلى ما يحاك ضدهم . وهى ملزمة لأن يعملوا جاهدين من أجل وحدة الصومال وأن يحافظوا على البقية الباقية من صومالهم . صومال الاستقطاعات والأقاليم المنفصلة من جراء نزعات التمرد وحركات الانفصال والأنشطة القبلية المُغيبَة وعياً وحنكة . صومال الانهيار والتردى إلى هاوية ساحقة ماحقة لطموحات شعبه من جراء فرقة ليس لها ما يبررها بين بنى وطن واحد . صومال الأمراض والأوبئة والمجاعات والظمأ والفوضى واللا أمان . والمفروض أن يكون ذلك كذلك فى ظل التفتت والتفكك والزعامات الهشة لكيانات هزيلة تفتقر إلى مقومات البقاء وشرعية الوجود . كيانات سرعان ما تنقلب حتى على زعمائها ومؤسسيها وتعيش الفاقة والمعاناة .

ونحن إذ نتحدث عن أحوال بلد عربى شقيق فليس من باب التدخل فى خصوصياته وإقحام أنفسنا فيما لا ينبغى . ولكنه نعى قبل أن يكون سرد لأحوال بلد أفريقى عريق ربطتنا به العروبة والدين والجوار . بلد

يعد بعداً استراتيجياً للوطن العربى ومنفذاً له على المحيط الهندى إلى جانب خليج عدن ، ارتبط معه المصريون على وجه الخصوص منذ أيام الفراعنة برحلات تجارية ومنافع متبادلة ، ولا شك أن تدخل القوى الأجنبية فيه له خطورته على سائر أقطار الوطن العربى .. لعلنا لا نكتفى بالدهشة من أن دول العالم المحتشدة أساطيلها فى تلك المنطقة القلقة من العالم ليس لها دور فاعل على الإطلاق فى مقاومة القراصنة بشكل يضمن سلامة الملاحة العالمية فى هذه المنطقة ونعرف أن هذا اللا دور هو فى الواقع دور بل دور مهم للغاية لمحاولة التدخل فى الصومال واستغلال موارده ونهب ثرواته . والتأثير على دخل مصر من قناة السويس . والعمل على تدويل البحر الأحمر لتأمين مصالح إسرائيل . وأما الأمم المتحدة فقد ملص أمينها العام نفسه من القيام بأى دور قائلاً أن القوة المطلوبة للصومال تتجاوز إمكانات قوات حفظ السلام التابعة للأمم المتحدة . والتى ترسل عادة لمراقبة اتفاقية قائمة للسلام وليس لسحق تمرد أو محاربة جهة . ويرى أن مجابهة القراصنة وتأمين تلك المنطقة يحتاج إلى لواءين يضمان نحو عشرة آلاف جندى مؤهلين لتلك المهمة بشكل كبير . وقد قام بعض مسئولي الأمم المتحدة بالضغط على بعض الدول للاشتراك فى " ائتلاف التطوع " الدولى للقيام بهذه المهمة . ولكن لم تستجب أى دولة لذلك حتى الآن . ويأتى كل هذا فى ظل غياب التواجد العربى الذى لم يقدم شيئاً لهذه المشكلة . رغم تضرره من هذا الوضع . ورغم رغبة الصوماليين ودعوتهم للدول العربية لأن يكونوا إلى جوارها .

وليبق الوضع على ما هو عليه ، فى انتظار ما هو آت .

ويبقى القول أنه فى أول رد فعل صومالى على تحرير مركبى الصيد المصريين صرح أحد القراصنة قائلاً " تعودنا على معاملة المصريين أفضل من بقية الرهائن ، لكن إذا أسرنا آخرين منهم سننتقم " .

وهو بالطبع قول هزل أراد أن يعرب به عن حنق وغيظ القراصنة مما فعله المصريون ضدهم . قول يثير الضحك والشفقة أيضا على ما آلت إليه أحوال الصوماليين فى ذلك القطر المفكك الذى نزح منه نحو ثلاثة ملايين نسمة بسبب الحروب الأهلية والصراعات القبلية والانفلات الأمنى والسياسى فى دولة تعدادها عشرة ملايين فقط ليعيشوا خارج وطنهم .

ومن الطريف أن علاقات الود والاحترام فيما بين الحاج سمارة نصر صاحب المركب " أحمد سمارة " والشيخ حسن خليل صاحب المركب " ممتاز ١ " من جهة ، وصديقهما اليمنى محمد النهدى والمسئول الصومالى عبد الواحد من جهة أخرى .. لم تنته بانتهاء الملحمة البطولية التى نفذها البحارة فى بونت لاند ، ففى أعقاب هذه الواقعة جاء الصديق اليمنى وبصحبته المسئول الصومالى الذى أصبح صديقاً هو الآخر .. لزيارة الشيخ حسن خليل والحاج سمارة نصر فى عزبة البرج لتهنئتهما والاطمئنان على البحارة .. وقضيا عدة أيام فى ضيافتهما . ولا تنقطع البتة الاتصالات بينهما عبر أجهزة المحمول !

لقد فرح اليمنى بنجاح البحارة الدمايطة فى تخليص أنفسهم ، واستراح أيضاً المسئول الصومالى لانتهاء الأزمة على خير . صحيح أن الدمايطة لم يدفعوا فدية للصوماليين ، ولكنهم أيضاً لم يقتلوا أحداً من القراصنة وكان ذلك بمقدورهم ، بل عاملوهم أطيب معاملة . وقد بلغ ذلك قبائل بونت لاند فى حينه ، وهو الشىء الذى لم يعقد الأمور ، ولم يخلق مشاكل لابن جلدتهم عبد الواحد المسئول فى حاشية رئيس الصومال السابق .. وأيضاً رفع من منزلة مصر لديهم . فهى غير عدوانية . بل إن الحكومة المصرية فى وقت لاحق وبعد اتخاذ بعض التدابير القانونية والرسمية قد أعادت القراصنة الثمانية إلى موطنهم لاتخاذ إجراءات محاكمتهم وعقابهم حسب القوانين المعمول بها هناك ، ولعله من الوفاء بالوعد والالتزام بالعهد أن يتم ذلك . فقد استجاب مسئولو هذا الإقليم لرغبة جهاز المخابرات المصرية فى تأمين حياة الشيخ حسن خليل عندهم ، والعمل على ترحيله فى أقرب وقت .. بسلام ، وهو تماماً ما حدث . وقد تناقلت بعض وكالات الأنباء فى اقتضاب تفاصيل عودة القراصنة بأنه تم عبر رحلة تجارية بحرية نقلتهم إلى جيبوتى عبر اليمن . ومنها إلى بونت لاند حيث وضعوا فى السجن المركزى لمدينة بوصاصو عاصمة الإقليم .

ولكن مصر لم تعلن ذلك رسمياً . ولم يتحدث أحد من المسئولين حول هذا الموضوع الذى وئد إعلامياً بشكل لافت . حتى أنه لم تذكر أسماء هؤلاء القراصنة ولم تظهر صورهم فى أى وسيلة إعلامية . ولم يأت شيئاً عن موقفهم أوحتى مكان احتجازهم . وهنا تتزاحم عدة أسئلة :

هل كان ذلك عزوفاً عن أى مظهر إعلامى لكونه قضية أمن دولة يتولاها جهاز الأمن القومى ؟ وهل هو من أجل إحكام السيطرة على مجريات الأمور بعيداً عن الضجة الإعلامية التى قد تؤثر على مسار التحقيق ونظر القضية ، وتحدث انشغالاً للرأى العام ليس له ما يبرره ؟ أم هو نهج مصر لوضع الأمور فى نصابها الحقيقى دون مبالغة . والانشغال بالأهم من الأمور ؟ كل هذا وارد . ووارد أيضاً أن هذه التهدئة كانت عهداً والتزاماً ومقابلاً لتأمين عودة الشيخ حسن خليل من بونت لاند سالماً . ووارد أن تكون تهدئة لنفوس وأجواء من الممكن أن تقابل السفن المصرية ومراكب الصيد مستقبلاً فى تلك الأماكن المحتقنة عند خليج عدن وشمالاً عند البحر الأحمر وجنوباً عند المحيط الهندى . وتكون نظرة مستقبلية من أجل مصالح مصر . وقد تكون هذه التهدئة تمهيداً لدور تسعى إليه مصر من أجل لم الشمل الصومالى المفكك ، والعمل على استقراره واستتباب الأمور به فيكون لدورها قبول حالئذ من كافة الأطراف المتنازعة .

وخلاصة القول أن للدولة قطعاً حساباتها ورؤيتها وقرارها الذى يجب أن يُحترم .

وربما ليس مهماً أن نردد ما توارد أو تردد من أخبار هؤلاء القراصنة الذين عادوا إلى بلدهم ، وأنهم خضعوا لمحاكمة قضت بسجن كل منهم سبع سنوات نظير ما اقترفوه من إجرام . ليكن ما يكون .. فليس ذلك بيت القصيد .

وإلى هنا يسدل الستار على هذه الملحمة البطولية العظيمة التى قام بها بعض الصيادين البسطاء .. من أبناء دمياط .. فأذهلوا بها العالم وكانت مثار إعجاب وتقدير الجميع .

وليس إلا حمد الله وشكره على توفيقه فى نجاح عملية لم يكن الفشل فيها يعنى إلا قتل خمسة وثلاثين بحاراً على متن المركبين ورمى جثثهم لحيتان الخليج . وتكون قصتهم مثالاً للتسرع الأهوج وخيبة الرجاء .

ولنضع هذه البطولة فى سجلات الفخر والاعتزاز امتداداً لعظمة أبناء دمياط وانتصاراتهم المتعددة على قوى البغى الغاشم عبر آلاف السنين .

فهرس

الكتاب : أغرب رحلة صيد
كتابة الكترونية : مكتب المجد ث : ٠٥٧/٢٣٢٩٦٣٢
خطوط : محمد سلطان - الخطاط بالأهرام
تصميم الغلاف : مكتب الفادى ت : ٠١٢٢٩١٦٠٨٩
تجهيزات فنية : إدارة التسويق والمطبوعات - وكالة الأهرام للإعلان
طباعة : مطابع الأهرام التجارية - قليوب
توزيع : مؤسسة الأهرام بالقاهرة

مجموعة ريدى جروب

ش.م.م.

...edy Group

فاكس: ٣٣٤٤٤١٢٣

...brawichi.com

...mail:info@drchabrawichi.com